

الدكتور

أحمد موسى الجاسم

عبيد بن الأبرص

دراسة فنية



عبيد بن الأبرص الأسدي

دراسة فنية

د. أحمد موسى الجاسم

عبيد بن الأبرص الأسدي

دراسة فنية



عبيد بن الأبرص الأسدي ـ دراسة فنية
د.أحمد موسى الجاسم
الطبعة الأولى ١٩٩٧

دار الكنوز الأدبية
ص.ب: ١١/٧٢٢٦ بيروت ـ لبنان
هاتف: ٦٥٣٥١٤



مقدمـة

مازلت أذكر في السبعينيات قاعة الدراسة في جامعة حلب أيام كان أستاذنا الدكتور محمد صبري الأشتر رحمه ا لله يلقي علينا محاضراته في الأدب الجاهلي، ولازلت أذكر وقفته عند عبيد بن الأبرص ونعته له بشيخ الشعراء الجاهليين.. إلى تلك الأيام تعود صلتي بالأدب الجاهلي وبعبيد خاصة، فقد كنت أقرأ كل مايصل إلى يدي من أشعار القدماء، وكان شعر عبيد من جملة قراءاتي وقت ذاك، وأعترف أنني كنت من المعجبين به منذ القراءة الأولى، وقد اطلعت على بحث للمستشرق الألماني "فالتربراونه" عن عبيد كان قد ألقاه في جامعة دمشق ونشرته مجلة المعرفة السورية، وينصب هذا البحث على نظرة عبيد التشاؤمية في الحياة، وعندما عزمت على التوجه للدراسة العليا في أرض الكنانة مصر العروبة، والإسلام والعلم والفضيلة والنور، كانت صورة هذا الشاعر تتراءى أمامي، فعدت إلى ديوانه الشعري من جديد، وبدأت في تجميع أخباره من كتب القدماء والمحدثين، والواقع أنني لم أقع إلا على نتف مبعثرة هنا وهناك، وغالباً ماكانت مختلطة بشيء من الخرافات، وهي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة والعقل والمنطق، وكانت بدايتي هي الوقوف على شعر هذا الشاعر لاستجلائه في محاولة لتقريب فنه إلى الأذواق قدر المستطاع، وتنقية ماعلق بحياته من أخبار ملفقة، وقد اتخذت من ديوانه المحقق بقلم الدكتور حسين نصار عمدة لي واستعنت وأفدت مما كتبه المستشرق تشارلز لايل في تحقيقه لهذا الديوان أيضاً ولم أعر طبعة بيروت (طبعة دار صادر) اهتماماً كبيراً ذلك أنه ينقصها التحقيق العلمي المضبوط.

والواقع أن عبيد بن الأبرص ظل منسياً في أحاديث ودراسات القدماء والمحدثين، اللهم إلا من بعض الأخبار ذات الصبغة الأسطورية التي أوردها أبو الفرج وغيره... وظلت صورة شاعرنا مقترنة بتلك النتف من الأخبار في كتب القدماء حتى جاء السير تشارلز ليل وحقق ديوان عبيد وأخرجه في عام ١٩١٣ميلادي، وقدم له بمقدمة قيمة حدثنا فيها عن روايات السابقين حول حياة ونشأة الشاعر، ثم علق عليها بعملية وموضوعية، وكانت تلك أول إشارة من المحدثين إلى شخصية عبيد بن الأبرص، ثم جاء الدكتور حسين نصار فأكمل مابدأه ليل بعد أن اكتشف عدداًمن القصائد الشعرية التي لم يتنبه ليل لوجودها، فأخرج ديوانه عام ١٩٥٧ في طبعة مشروحة ومذيلة بفهارس قيمة "وعليها اعتمدنا في بحثنا هذا" ولم يكن من الدارسين المحدثين بعد هذين العلمين من غير قدماً في سبيل عبيد بل كانوا يكتفون بالإشارة إليه من بعيد، في وقفات سريعة وقصيرة كالدكتور فتحي أحمد عامر في كتابه في مرآة الشعر الجاهلي والدكتور فتحي أبو عيسى في كتابه من قيثارة الشعر العربي.

والواقع أن شاعراً كعبيد يستحق أن يدرس في عمل مفصل، يكشف لنا عن هذه الشخصية الأدبية لاسيما وأنها من أصحاب المعلقات، لذا فقد رأيت أن أخوض هذا الغمار رغم صعابه آملاً أن أكون قد وفقت في رسم صورة واضحة المعالم عن هذا الشاعر الكبير.

ولم تدفعني دراستي لحياة وشعر عبيد إلى التعصب له فتلك آفة من آفات البحث العلمي، ولقد كان لي موقف من نصوص الشعر في الديوان فلم أسلم بأحكام القدماء، ولم أتأثر بآرائهم بل اكتفيت بالإشارةٍ إليها، وجعلت الأولوية للنص الشعري ذاته وصولاً إلى إطلاق حكم، أو إبداء رأي معللاً السبب في هذا الحكم أو ذاك الرأي، وحسب الباحث أن يحاول تعليل ذوقه وإبداء رأيه وطرحه أمام الآخرين على بساط البحث، ولست أدعي أن هذه الدراسة قد حملت في ثناياها الصورة المثلى لشخصية عبيد وأدبه ولكنني أقول أن هذه هي الصورة التي استطعت أن أرسمها بعد طول رحلة مع عبيد امتد الطريق فيها من ضفتي الفرات الهادئتين قرب حلب إلى شاطئ الخليج العربي قرب جبال حتى الصماء، وعلى مدى يقارب أربع سنوات كنت وصاحبي نتسامر في كل ليل، وآمل أن أكون قد وفقت في نقل صورة مقنعة لهذا الصاحب الرزين.

وتقع دراستي هذه في ثلاثة أبواب.. أما الباب الأول فقد خصصته لنشأة الشاعر وحياته، وقسمته إلى أربعة فصول تعرضت في الفصل الأول منها لقبيلة الشاعر وبيئته، وقد أوضحت فيه دور تلك القبيلة في النزاع الذي نشب بين عرب الشمال وعرب

الجنوب، وكشفت عن مكانة هذه القبيلة بين القبائل المضرية ورأيت أنهـا مكانـة رفيعـة سامية، ثم سقت أنسابها بعامة وأنساب بـني سعد بـن ثعلبـة بـن دودان رهـط الشـاعر بخاصة، وقد ربطت بين بيئة الشاعر وبين أبرز الأغراض الشعرية عنده.

وعالجت في الفصل الثاني نشأة الشاعر وسيرته متفحصاً الروايـات والأخبـار الـتي وصلت إلينا عن هذه الشخصية الأدبية المميزة، وقد حاولت قدر المستطاع أن أحصر مولد الشاعر في فترة محددة فرجحت أنه ولد في عام ٤٥٠للميلاد علـى وجـه التقريـب، وممـا رجح عندي هذا الرأي كون الشاعر قد عاش عمراًمديداًوكونه نديم حجر بن الحارث آخر ملوك كندة وأخيراً مقتله على يد المنذر بن ماء السماء الـذي قتـل عـام ٥٥٤م كمـا تقـول الروايات القديمة، وتطرقت في الفصل الثالث لشخصية الشاعر كما تبدو من شـعره، وقـد وقفت على مرحلتين بارزتين من حياته كان لهما أكبر الأثر في تكوينه الفـني والشـخصي وهما مرحلـة الشـباب ومرحلـة الشـيخوخة، وحـاولت أن أدلـل علـى بعـض الجوانـب لشخصية الشاعر من خلال شعره، وأما الفصل الرابع فقد خصصته للمقارنـة بينـه وبـين شعراء عصره، وقـد اقتصـرت علـى مقارنتـه بـامرئ القيـس بـن حجـر، وذلـك لمـا بـين الشاعرين من صلات فنية واجتماعية ولما ظننت مـن تأثير عبيـد علـى امـرئ القيـس في بعض المعاني والصور الشعرية.

وفي الباب الثاني درست موضوعات شعره ومضمونها، وقد قسـمته إلى ثلاثـة فصـول تركز اهتمامي في الأول منها على أهم أغـراض شـعر عبيـد ودراسـتها بشـكل موضوعـي، ووقفت في الفصل الثاني على دلالة شعره على بيئته ومدى الارتباط بين الشاعر وبين تلك البيئة بكل ماتحمله من قيم وعادات وتقاليد، وتوجهت في الفصل الثالث إلى دراسة أبرز صور البيئة في شعره دراسة نفسية وقد اقتصرت دراستي في هذا الفصل على ثـلاث صـور تعد من أهم صور البيئة الجاهليـة وهـي صـورة الطلـل، وصـورة الناقـة، وصـورة الفـرس محاولاً أن أبين مالتلك الصور من دلالات في نفس الشاعر، وكان الباب الثـالث والأخـير في هذه الدراسة يدور حول شـعر عبيـد مـن ناحيـة الشـكل في محاولـة لدراسـته دراسـة نقدية، وقد قسمته إلى أربعة فصول وقفـت في الأول منهـا عنـد الصـورة الفنيـة بعامـة في شعره، وقد ضربت ألواناً من الصور التي جاءت في ذلك الشعر مبيناً سماتها وخصائصهـا الفنية، وفي الفصل الثاني حاولت دراسة لغة الشعر عند عبيـد وذلـك في كـل غـرض مـن أغراض شعره، وقد كانت متفاوتة ليناً وخشونة من غرض لآخر، كما قمت بحصر لبعض الصيغ والتراكيب التي كثرت عند هـذا الشـاعر معلـلاً هـذه الكـثرة أحيانـاً، وخصصـت الفصل الثالث للبناء الفني للقصيـدة عنـده، وقـد رأيـت أن الشـاعر كـان لايلـتزم النهـج

التقليدي المتعارف عليه للقصيدة الجاهلية في كل الأحيان، وإنما كـان يخـرج علـى هـذا النظام كأن يبدأ بغرضه المقصود بصورة مباشرة دون ما وقـوف علـى رسـم دارس أو طلـل أصم.

وأما الفصل الرابع والأخير فقد بحثت فيه عـن أوزان وقـوافي الشـاعر والـتي لفتـت أنظار كثير من الباحثين قديماً وحديثاً وذلك لاضطرابها، وقد عزوت ذلك الاضطـراب في الوزن إلى سوء الرواية بالدرجة الأولى إذا اعتبرنا أن اختلال الوزن عند شـاعر كعبيـد بـن الأبرص يعد نقيصة في شعره، كما أدليت برأيي الخاص في هذه المسألة واعتبرت أن هـذا الاختلال والاضطراب في الوزن مرده إلى المرحلة الزمنية المتقدمة التي عاش إبانها عبيـد، وقد وقفت على قوافي الشاعر فرأيتها متنوعة قد شملت معظم الحروف، وهي تـدل علـى قدرة ومهارة من الشاعر في تطويع اللغـة واسـتخدامها، وقـد قمـت بحصـر لكـل القـوافي والأوزان التي وردت في ديوانه، وقد أفدت من تصنيف الدكتـور حسـين نصـار في هـذا الفصل واعتمدت الفهارس التي ساقها في نهاية تحقيقه لديوان الشاعر وصولاً إلى بعـض الملاحظات التي أبديتها على أوزان وقوافي هـذا الشـاعر، وأخـيراً فحسـبي أنـني بذلـت قصارى جهدي في هذا البحث واتبعت نصح وإرشاد أستاذي الدكتور عثمان مـوافي الـذي منحني من وقته وجهده وعلمه مايجعلني أدين له بالشكل والعرفان والتقدير والثناء، فإن كان فيه من مواضع زلل فحسبي أنني حاولت الاقتراب من جادة الصـواب، وعلـى كـل حال فالكمال لله وحده وفوق كل ذي علم عليم.

الباب الأول

نشأته وحياته

الفصل الأول: قبيلة الشاعر وبيئته
الفصل الثاني: نشأته وسيرته
الفصل الثالث: شخصيته كما تبدو من شعره
الفصل الرابع: هو وشعراء عصره



الفصل الأول

قبيلة الشاعر وبيئته:

تعد قبيلة بني أسد بن خزيمة من القبائل العربية الشمالية "العدنانية" العظيمة الشأن وهي تنتسب إلى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وبنو أسد قبيلة كبيرة ذات بطون كثيرة وأفخاذ متعددة، مما يصعب مهمة الباحث في تتبع حركتها والإلمام بكل فروعها، بيد أننا سنحاول جاهدين الوصول إلى صورة واضحة لأنساب هذه القبيلة التي حظيت كغيرها من القبائل العربية باهتمام علماء الأنساب، فأفاضوا في ذكر أنسابها ومنهم من فصّل في الحديث عن أصولها وفروعها، وعلينا السير في ذلك كله بحذر وحيطة شديدين.

لقد توفر لبني أسد العديد من الأسباب القوية التي أدت إلى ذيوع صيت هذه القبيلة، وبالتالي إلى تمسك أفرادها بأنسابهم، ومفاخرتهم بها، وإلى المحافظة على وشائج القربى فيما بينهم، فنسبهم يرفعهم إلى جد كريم المحتد، ماجد الأصل، وهو أسد بن خزيمة، وحياتهم البدوية الصرفة روضتهم على تحمل كل صعب، وعلى مناوشة كل هول، وعلى رد كل طامع مغير في تلك البيئة الصحراوية القاسية التي لاتعترف إلا بالقوة.

وليس من شك في أن البيئة تلعب دوراً بارزاً في حياة الإنسان، وتترك آثارها على كثير من جوانب حياة الفرد، وهذا بالطبع يختلف من إنسان إلى آخر كما تختلف قوة الشخصية وضعفها في رفض أو قبول تلك التأثيرات وفي بعض الأحيان قد يكون أثر البيئة هذا واضحاًعند أكثر من فرد.

وذلك على نحو متشابه ومتفق إلى حد بعيد، ويكون هذا غالباً عندما يخضع هؤلاء الأفراد لظروف معيشية وحياتية واحدة تقريباًمن حيث الثقافة والعادات وظروف الحياة اليومية العادية، وقبيلة بني أسد تعد من القبائل الحربية البدوية، بل من القبائل المغرقة في بداوتها، مما جعل أبناءها بعامة يتصفون بصفات خاصة تميزهم عن أبناء البيئات الأخرى.

والبدو من العرب هم هؤلاء الذين يقطنون في الصحراء ويرتحلون من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ، وهم مثل غيرهم من الناس يميلون إلى الاجتماع ويتوقون إلى الشعور بالاستقرار وتربط بينهم روابط، بيد أن أهم تلك الروابط إطلاقاهي رابطة الدم والنسب، فهم من أحرص الناس عليها وعلى نقائها وبقائها صريحة، يقول ابن خلدون: "إن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر ومن في معناهم، وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن، فلا ينزع إليهم أحد من الأمم يأنس بهم ويعيش معهم فيؤمن عليه من أجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولاتزال محفوظة صريحة"[1] .

والواقع أن هذا الحكم ينطبق على بني أسد ومن كان على شاكلتهم، فقد كانت مساكنهم حيث الماء والكلاء، وكانوا قبائل وعشائر وبطوناًتغلب عليهم الغلظة والخشونة، ويشتركون في ظروف معيشية واحدة ومع ذلك فإن لكل فرد منهم سماته الخاصة وصفاته المميزة له عن غيره ومن هنا فإننا نجد لكل شاعر من الملامح المتفردة.

وما يميزه عن غيره من الشعراء رغم اشتراكهم في صفات كثيرة، فهم ينهلون من منهل واحد وله خصائصه في القول والقريض، وعلى أية حال فالمتصفح لتاريخ هذه القبيلة يلحظ أنها عاشت في بيئة بدوية حربية خشنة، وفي صراع مع الغساسنة وبعض القبائل العربية الأخرى، ومما يدل على علو وشرف هذه القبيلة ظهور اسمها في نقش النمارة بحوران قرب دمشق، وقد كان لقبيلة بني أسد بن خزيمة على مانظن مايخولها من احتلال تلك المكانة السامية بين القبائل، فقد كانت الحروب سمة من سمات بني أسد، وأستطيع القول أنها كانت تشكل أحد الأساسات لحياتهم، ولعل مما يعين على توضيح هذا الرأي قول شاعرهم عبيد بن الأبرص مخاطباً امرأ القيس بن حجر "من البحر الطويل"[2] :

---

[1] ـ انظر مقدمة ابن خلدون ص١٠١ .

[2] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق د.حسين نصار، ط١٩٥٧، ص٩١-٩٢ .

وَنَحْـنُ قَتَلْنَـا الأَجْدَلَيْـن وَمَالِكَـا ... أَعَـزَّ هُمَـا فَقْـداً عَلَيْـكَ وَهَالِكَـا

وَنَحْنُ الأُلَـى أَنْ تَسْتَطِعْكَ رِمَاحُنَـا ... تَقُـدْكَ إِلَـى نَـارٍ لَعَمْـرُو إِلَهِكَـا

وَيَـوْمَ الرِبَـابِ قَـدْ قَتَلْنَـا هُمَامَهَـا ... وَحُجْـراً وَعَمْـراً قَـدْ قَتَلْنَـا كَذلِكَـا

وَنَحْنُ صَبَحْنَـا عَـامِراً يَـوْمَ أَقْبَلُـوا ... سُـيُوْفاً عَلَيْهِـن النِجَـارُ بَوَاتِكَـا

وَنَحْـن قَتَلْنَا مُـرَّةَ الخَـيْرِ مِنْكُـمُ ... وَقُرْصـاً قَتَلْنَـا كَـانَ مِمَّـنْ أُولَئِكَـا

إنه القتل والبطش والفتك، تلك شريعة البدوي الجاهلي التي قلما يحيد عنها لاسيما إذا كان من قبيلة قوية منيعة شديدة المراس كقبيلة بني أسد، وإذا ماعلمنا أن التاريخ الجاهلي إنما يسجله غالباً الأقوياء من الناس وبخاصة في مثل تلك البيئات البدوية المجدبة الواترة المتورة، عرفنا الأسباب التي من أجلها تتضامن القبيلة وتتعاضد حيث لاعز إلا بالسيف ولامكانة إلا بالقوة عدة وعدداً وقد كان لبني أسد كل أسباب القوة والمنعة.

وكثيراًماحدثتنا كتب التاريخ عن فرسان هذه القبيلة، وعن ساداتها الأماجد الذين قادوا المعارك الطاحنة من أجل السيادة والشرف وصون القبيلة وحماية حقيقتها من أن تطالها أيدي الطامعين، وهذا ابن حبيب يقول في كتابه المحبّر وكان منهم أي بني أسد عوف بن عبد الله بن عامر أخو بني نصر بن قعين، قاد بني أسد يوم عكاظ وليس بعكاظ قريش وكان يعد من الجرارين ولم يكن الرجل يسمى جراراً حتى يرأس "ألفاً"[٣] ومنهم ربيعة بن حذار الأسدي وقد قاد بني أسد يوم الفرات لعدي بن أخت الحارث بن أبي شمر الغساني[٤].

وإن نظرة إلى أيام العرب كافية لإعطائنا فكرة واضحة عما كان عليه هذه القبيلة من قوة ومنعة، ولعل موقفها المناهض للمسلمين وغاراتها العديدة على معقل المسلمين في يثرب وضواحيها، دليل على تلك القوة وعدم الرهبة، ولأدل على ذلك من توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عدم سرايا وحملات تأديبية إلى هذه القبيلة لردعها عن عدوانها المتكرر على المسلمين في تلك الفترة[٥] .

وقد تركزت معظم عشائر وبطون هذه القبيلة في الشمال الشرقي من نجد "منطقتي

---

[٣] ـ انظر المحبّر لابن حبيب ص٢٤٧ .

[٤] ـ المصدر السابق، ص٢٤٧ .

[٥] ـ انظر تاريخ الطبري الجزء الثاني ص٢٩٨ وما بعدها والجزء الثالث ص ب-٤٤-٨٤-٩٣.

حائل والقصيم حالياً" وهو مايعرفِ بنجد الحجاز[٦].

والواقع أن تاريخ هذه القبيلة العظيمة حافل بالحروب والغزوات سواء أكان ذلك في الجاهلية أم الإسلام، فقد حارب رجالها في الجاهلية كثيراً من القبائل الأخرى، ومن هذه القبائل الغساسنة وبنو عبس وبنو عامر بن صعصعة وكندة وطيئ وجشن بن معاوية وغيرها... مما جعلها مهابة الجانب بين سائر القبائل العربية، ومما هو جدير بالذكر أن بطليموس قد ذكر أبناء هذه القبيلة فقال عنهم: "إنهم كانوا يعيشون في بلاد العرب الوسطى إلى الغرب من أوانويتاي" "أي تنوخ" وربما معها إلى خط الفرات، وقد هاجت قبيلة بني أسد مثل تنوخ فيما يبدو قبل منتصف القرن الثالث الميلادي وقد سماهم الإستانوي، وهم يظهرون في النقش الذي اكتشف في المنارة على قبر امرئ القيس ملك الحيرة اللغمي سنة ٣٢٨م وقد ورد في هذا النقش: "هذه نفس قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذي عقد التاج وملك قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وشتت مذحجا بالقوة"[٧].

ويذكر النقش أيضاً أنه حكم الأسدين وملوكهم، وليس بمعروف إلى أي مدى بقيت بنو أسد تحت حكم لخم، وقد عاش بعض سلالتها وهم بنو القين حتى العصور الإسلامية إلى الجنوب الشرقي من حوران على الحد الشرقي للبلقاء هابطين إلى جزيرة العرب.

نحن إذن أمام قبيلة لها شأنها ومكانتها منذ القدم، ولاشك أنه شأن مرموق ومكانة عالية فهي تقارع الملوك إباءً وأنفة من أن تدين لأحد، ولعلم المتصفح لتاريخ هذه القبيلة وكثرة حروبها وتشعب غزواتها، يجد الجواب على انتشارها الواسع في أرجاء متفرقة من شبه الجزيرة العربية فهي كما سنرىفي مواطن القبيلة قد انتشرت من أقصى الشرق الشمالي من شبه الجزيرة حتى منطقة الرياض الحالية مستقرة أكثر من أي مكان آخر في منطقتي حائل والقصيم.

ولهذا كله فقد أفاض علماء الأنساب في ذكر أنساب هذه القبيلة وفصّلوا في الحديث عن بطونها وفروعها، فأصل العرب عند أغلب النسابين يرجع إلى ثلاثة رجال هم: قحطان وعدنان وقضاعة أبناء إسماعيل[٨].

---

[٦] ـ انظر جغرافية شبه جزيرة العرب ص٢٢٠ لعمر رضا كحالة ط:الهاشمية دمشق١٩٤٤.

[٧] ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية الجزء الثالث ص٢٨١ الترجمة العربية.

[٨] ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص٧ . تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، ١٩٦٢م.

ومنهم جاءت العرب، فالضحّاك وإياد ونزار وقنص وعبيد الرمّاح أبناء معد ابن عدنان[٩] .

وقيس عيلان والياس أبناء مضر[١٠] أما أبناء الياس فهم عمرو "طابخة" وعامر "مدركة" وعمير "قمعة" كما ورد في الجمهرة عند ابن حزم[١١].

وأما أبناء مدركة فهم هذيل وخزيمة وغالب ويقال لهم "بني الهون" كما ورد أيضاًعند ابن حزم، وأما أسد وكنانة وأسدة فهم أبناء خزيمة[١٢] .

ويمكن أن يشكل ما أوردته من انتماءات هذه القبيلة العريقة المكثرة تصورامعقولاًلأصول هذه القبيلة المتشعبة على ربوع شمال شرقي الحجاز فيما يلي الكرخ، وإن أردنا الحديث عن فروع وبطون هذه القبيلة فلابد لنا من التسلح بالحذر والحيطة ذلك أن هذا الحديث يكتنفه بعض الغموض بسبب كثرة هذه البطون والفروع وتبديها في أماكن متفرقة من شبه الجزيرة، واختلاف الرواة وعلماء الأنساب في عددها فقد وردت عند ابن حزم على النحو التالي:

يقول ابن حزم "إن أبناء أسد هم: حلمة وكاهل ودودان وعمرو وصعب وقد أنجب الأخير عبد الله الذي أنجب بدوره بني جعدة "بنوهم بنو النعامة" وبنو البحير.

وأما عمرو فأبناؤه الهالك والقليب ومعرض "سعد" وأما كاهل فقد أنجب مازنا، وأما حلمة فمن نسله بنو خذيمة، وأما دودان فله ولدان هما ثعلبة وغنم وفيهم العدد فأما غنم بن دودان فله من الأولاد ثلاثة عامر وكبير ومالك، وأما أبناء ثعلبة بن دودان فهم الحارث ومالك وسعد[١٣] .

وزاد ابن حبيب في المحبّر فرعاً آخر وهم بنو حميس بن ناشرة....ابن دودان بن أسد[١٤] .

---

[٩] ـ وقيل أن أصل المناذرة اللخميين من قنص. انظر الجمهرة، ص١٠ . وكذلك في سيرة ابن هشام، الجزء الأول، ص٧٠ . تحقيق عبد الرؤوف سعد.

[١٠] ـ انظر الجمهرة، ص١٠. وهما ولدا أسمى بنت سود بن أسلم بن الحارث بن قطعة كما قيل.

[١١] ـ أمهم خندف من قضاعة وقد نسبوا إليها. انظر الجمهرة، ص١٠ ومابعدها.

[١٢] ـ ومن أسدة لخم وجذام عاملة وشكك بعض النسابين بأسدة وأثبتتها صاحب الجمهرة ص١١ وكذلك الطبري في الجزء الثاني ص٢٦٦ .

[١٣] ـ انظر الجمهرة لابن حزم ص١٩٠ وما بعدها مخطط النسب المرفق.

[١٤] ـ انظر المحبر لابن حبيب ص٢٥٦ وقد أضاف ابن حبيب أن هذا البطن لايزيد عدده عن اثني عشر رجلاً.

ويزعم اليعقوبي أن أسداً له ابن يدعى هندا، و لم يذكره أحد غيره من الرواة أو النسابين كما يذكر بطناً من بطون أسد تدعى دبانا ولاندري علام اعتمد اليعقوبي في روايته هذه[١٥] .

كما يذكر صاحب العقد الفريد أخاً لأسد يسمى الهون بن خزيمة ومن نسله كما يقول: بنو القارة وهم أرمى حي في العرب ولهم يقال "قد أنصف القارة من راماها و لم أر من خلال البحث من وافق ابن عبد ربه على رأيه هذا[١٦] .

أما ابن دريد فإن له رأياً غريباً حيث يعد بني كاهل من قبيلة بني أسيد وهو رأي منفرد، ونظن أنه التباس اسم بإسم.

ذاك نسب بني أسد بن خزيمة وتلك أهم بطونها وفروعها كما أورده[١٧] الرواة وقد وجدت من المناسب عمل مخطط يوضح أنساب القبيلة، وقد اعتمدت في عمله على أقدم المصادر كالمعارف لابن قتيبة والعقد الفريد وجمهرة ابن حزم والاشتقاق لابن دريد، ونتيجة لكثرة فروع وبطون هذه القبيلة فقد استغرق صفحتين كاملتين.

---

[١٥] ـ انظر تاريخ اليعقوبي ص١٨٩-١٩٠ .

[١٦] ـ انظر العقد الفريد الجزء الثالث ص٤٠-٤٣ تحقيق إبراهيم الأبياري ط٣ ١٩٧١م.

[١٧] ـ انظر الاشتقاق لابن دريد ص١٧٩ تحقيق عبد السلام هارون ط١٩٥٨م.

مخطط رقم (١): النسب قبيلة بني أسد بن خزيمة

أسد بن خزيمة

حلمة	كاهل	دودان	عمرو	صعب (أسقطه ابن قتيبة في المعارف)

- صعب -

عبد الله

بنو جعدة	بنو النعامة	بنو البحيرة

- عمرو -

الهالك	القليب	معرض"سعد"
تلب	الفاتك	
حتر	عمرو	قيس
مخرمة	شداد	ناعج
سماك	الأحزم	وهب
إليهم ينسب مسجد	أيمن "الشاعر"	عبد الله
سماك بالكوفة		المغيرة "الأقيشر الشاعر"

- دودان -

ثعلبة	غنم

- غنم -

عامر	كبير	مالك
	مرة	
	صبرة	
	يعمر	
	رياب	
	جحش	
	عبدالله	
	عبيدالله	
	زينب	

مخطط رقم (٢) لنسب قبيلة بني أسد

ثعلبة

الحارث — مالك — سعد

الحارث: قعين — والبة — سعد

والبة: ذؤيب / مالك / كعب / وهب / سيفان / جنادة / مالك

مالك: عمرو — زياد — الأختم — حمل

وقد جعله عمر ابن الخطاب على خطط الكوفة.

مالك: مالك — غاضرة — عمرو

مالك: اليقين / صعب / همام / مؤالة / مجمع / عامر

عمرو: سعد / كعب / غضاف / سيفان / الححاس

سعد: الحارث — الحلاف — مالك

الحارث: مالك ومنهم الكميت الشاعر / هر / عامر ومنهم بنو دران مانعو حجر من القتل / جشم / الأبرص / عبيد الشاعر المشهور

ـ قعين ـ

نصر — عمرو — كلفة "عبس"

نصر: مالك / طريف / عبدا لله

عمرو: طريف — الميداء — كعب "دبير"،

الميداء: نوفل / نكرة / الحارث / سويط / ورقاء / الحارث

ومنهم قاتل والد لبيد الشاعر

الحارث: فقعس — منقذ — أعياد "الحارث" — قيس "الطماح"

فقعس: حجوان — دثار

حجوان: الأشتر / نضلة / نوفل / خويلد / طليحة

دثار: ومنهم بشر بن أبي خازم

منقذ: قيس / بجرة / الأعشى / الأشيم / الزبير / عبدا لله

مواطنها:

من المعروف أن العرب البداة لم يكن لهم موطن ثابت أو مستقر دائم، فقد كانوا يتوخون في ترحالهم وتنقلهم وحربهم أو سلمهم شيئين: الماء والكلأ، وقد تتوزع بطون القبيلة الواحدة بين أراضي أكثر من إقليم من الأقاليم الخمسة التي تتكون منها أرض شبه الجزيرة العربية[١٨].

وأصل مواطن بني أسد بن خزيمة قبيل الإسلام كان في تهامة واليمامة وماجاورهما فيما يبدو يقولِ البكري في معجمه "لم يبق من ولد عدنان إلا ربيعة ومضر ومن كان معهم أو دخيلاً فيهم أو مجاوراً لهم، ثم كثروا وتضايقوا في منازلهم فانتشرت فيما يليها ربيعة من بلاد نجد وتهامة فكانوا في عرق والعقيق وماوالاها من نجد، معهم كندة يغزون معهم المغازي ويصيبون الغنائم ويناولون أطراف الشام وناحية اليمن[١٩].

ويضيف البكري قائلاً: فكانت لهذيل جبال من جبال السراة ولهم صدور أوديتها وشعابها الغربية، ومايلي تلك الشعاب والأودية على قبائل خزيمة بن مدركة في منازلها، ونزلت خزيمة ابن مدركة أسفل من هذيل واستطالوا في تلك التهائم إلى أسياف البحر فسالت عليهم الأودية التي هذيل في صدورها وأعاليها[٢٠].

ويبدو أن البكري على صواب في هذا فلو تأملنا أشعار تلك القبيلة جيداً لاتضح لنا صحة ذلك، يقول عبيد بن الأبرص مخاطباً حجر بن الحارث، والأبيات من البحر الكامل المجزوء "يقول عبيد:

حَلاً أَبَيْتَ اللّعْنَ حلاً إن فيما قُلْتَ آمَهْ

---

[١٨] ـ انظر صفحة جزيرة العرب للهمداني تحقيق ابن بايهد النجدي ص٤٧ حيث يقسم شبه الجزيرة إلى المناطق التالية: نجد والحجاز والعروض وتهامة واليمن ويوافقه على ذلك أبو الفداء في تقويم البلدان ص٧٨ .

[١٩] ـ انظر معجم ماستعجم للبكري تحقيق مصطفى السقا. ط١ ١٩٤٥م. طبع لجنة التأليف والترجمة ص٨٠ .

[٢٠] ـ انظر معجم ماستعجم للبكري تحقيق مصطفى ص٨٨ .

في كُـــلِّ وادٍ بـــينَ يَثْـــ	ربَ فـــالقصور إلى اليمامَـــةْ
تَطْريـــبُ عـــان أوصيـــا	حُ محـــرَّقٍ أو صـــوتُ هامَـــةْ
وَمَنَعْتَهُـــمْ جَـــدّاً فَقَـــدْ	حلّـوا علـى وَجَـلٍ تِهَامَـــةْ[21]

وفي الأبيات السابقة إشارات واضحة إلى مواطن القبيلة، غير أن بعض بطون بني أسد قد انتشرت فيما جاورها من الأماكن من شمالي نجد حتى قيد الحالية، مجاورة بذلك قبيلة طيء من الشمال وقبيلة كلب كذلك، ومن الجنوب عامر بن صعصعة وبنو هلال، ومن الغرب غطفان وسليم، ومن الشرق جديلة وكندة[22] .

وتأكيداً لذلك يقول عبيد بن الأبرص مشيراً إلى بعض المواضع في شعره، والأبيات من البحر المسرح

أَقْفَـرَ مـنْ مَيّـةَ الدوافـعُ مِـنْ	خَبْـتٍ قلبـني فيحـان فـالرجْلُ
فالقُطَيْبِـاتُ فالدكـادِكُ فالْـــ	هَيْـجُ فـأَعلى هُيَـيْرَة السَـهْلُ
فـالجُمُدُ الحـافِظُ الطريـقَ مِـنَ الـز	يْـغ فَصَحْـنُ الشـقيق فـالأَمَلُ
فـالطَلْبُ فالحـّدُ مِـنْ تَبالَـة لا	عَهْـدَ لَـهُ بـالأنيس مـافعلوا
كـأَنَّ مـاأبقت الروامـس مِنْـهُ	والسُـنُوْنُ الذَواهِـبُ الأُوَلُ[23]

وهذه الأماكن التي يذكرها الشاعر تمتد على رِقعة من الأرض كبيرة تشمل معظم تهامة ونجد وعلى ذلك فإن الأبيات تسوق لنا دليلاً آخر على مواطن القبيلة الأساسية في الجاهلية.

ويتضح لنا من رواية البكري من معجمه أن قبيلة بني أسد بن خزيمة قد استوطنت أولاً مع قبائل ربيعة شمالي تهامة محاذية قبائل هذيل مستطيلة إلى أسياف البحر[24] .

ويطالعنا الأصطخري في مسالكه بخبر مفاده: "أن منازل بني أسد تبدأ من قرب السماوة إلى حد البادية قرب البصرة[25] وعلى هذا فإن الإصطخري يمتد بقبيلة بني أسد

---

[21] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق د.حسين نصار ص١٢٥-١٢٦

[22] ـ انظر الأطلس التاريخي للدكتور عبد المنعم ماجد ص٤ وانظر مصور المواطن المرفق بالبحث.

[23] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٩٥-٩٦.

[24] ـ معجم مااستعجم للبكري الجزء الأول ص٨٨.

[25] ـ مسالك للأمطخري الكرخي ص٢٢ ط بغداد.

نحو الشرق، وربما كان هذا في فترة مؤقتة نتيجة لقحط أو لحرب، وهو شيء مألوف في حياة القبائل العربية.

ويضيف الاصطخري محدداً تهامة فيقول: "وأول تهامة مشرف على بحر القلزم "أي البحر الأحمر" مما يلي غربها وشرقيها بناحية صعدة وجرس ونجران وشمالها حدود مكة. وجنوبيها من صنعاء على نحو عشر مراحل[٢٦] .

ويعلل البكري سبب تسميتها بتهامة فيقول "وتهامة سميت كذلك بسبب تغير هوائها فيقال: تهم الدهن إذا تغيرت رائحته[٢٧] .

ونستنتج أن حدود تهامة على وجه التقريب من قبالة إلى جبل رضوى غرباً، ومن وادي القرى حتى أم القرى "مكة" والطائف شرقاً وهذا مانلاحظه كذلك من خلال شعر عبيد بن الأبرص الذي أوردناه منذ قليل.

وقد حدد المؤلفون القدامى أقاليم شبه الجزيرة العربية فقالوا في نجد:

"وهو ماكان من حد اليمامة إلى قرب المدينة راجعاً على بادية البصرة حتى تمتد على البحرين إلى البحر الأحمر ضمن نجد[٢٨] .

ونقل عن المدائني قوله: إن نجداً هو الناحية التي بين الحجاز والعراق[٢٩] ويؤخذ على المدائني أنه لم يحدد لنا إقليم نجد بدقة كما هو معروف عند غيره ممن أوردنا أقوالهم في ذلك كالإصطخري والبكري.

والواقع أنه إزاء اتساع هذه المنطقة التي تمتد من البحر الأحمر حتى مشارف البصرة في العراق، لايستطيع الباحث أن يحدد على وجه الدقة أين كانت منازل هذه البطون الأسدية؟ غير أننا نجد من الطبيعي انتشارهم على هذا النحو، فقبيلة قوية منيعة كقبيلة بني أسد كانت في حروب مستمرة مع القبائل الأخرى واترة وموتورة ويبدو أنها كانت تنتصر كثيراً في هذه الحروب، وماكان هذا ليحدث لولا امتلاكها للأسباب التي مكنتها من تلك الانتصارات، فهي كثيرة العدد والعدة مرهوبة الجانب تقصدها القبائل لتخطب ودها ولتعقد الأحلاف معها.

وماكان شعراء بني أسد ليتأخروا عن الافتخار بشجاعة وقوة قبيلتهم وانتصارها

---

[٢٦] ـ المرجع السابق ص٢٣.

[٢٧] ـ معجم مااستعجم ص٣٢٢ وكذلك تقويم البلدان لأبي الفداء ص٧٨.

[٢٨] ـ انظر معجم مااستعجم ص٧٩-٨٠ وكذلك تقويم البلدان لأبي الفداء ص٧٨.

[٢٩] ـ انظر تقويم البلدان لأبي الفداء ص٧٨.

على القبائل الأخرى ولاسيما شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول مخاطباًحلفاء بني أسد والأبيات من البحر البسيط:

دَعَـاْ مَعَاْشِـرَ فاستكَّـتْ مَسَـاْمعُهُمْ ... يـالَهْفَ نَفْسـيَ لـو تدعـو بـني أسـدِ

تدعـو إذَنْ حـامي الكُمَـاْةَ لاكسِـلاً ... إذا السيوفُ بـأيدي القـوم كـالْوَقَدِ

لَوْ هُمْ حُمَـاتُكَ بـالمَحْمَى حَمَوْكَ وَلَـمْ ... تُـتْرَكْ ليـوم أقـامَ النـاسَفي كَبَـدِ

كمـا حَمَيْنـاكَيومَالنَعْفِ مِـنْ شَـطِبٍ ... والفضلُ للقوم من ريحٍ وَمِـنْ عَـدَدِ[٣٠]

وإذا ماأمعنا في النظر إلى شعر شعراء هذه القبيلة، وتفحصنا الروايات المختلفة عن مواطنها، لوجدناها تتركز في منطقتي القصيم وحائل الحاليتين بالإضافة إلى تهامة التي قررنا أنها كانت من مواطن القبيلة الأساسية ومن هذه الأماكن امتدت وانتشرت على طريق البصرة والكوفة.

وتقول بعض الروايات أن قسماً من بني أسد هاجر باتجاه حلب شمال سوريا، وكان هذا القسم النواة التي تشكلت منها إمارة الحمدانيين هناك، وكان ذلك في أواخر العصر العباسي حيث تعرضت هذه القبيلة لضغط من بعض بني العباس نتيجة لتشيعها ومن المعروف أن بني أسد من أكثر القبائل العربية تشيعاً[٣١].

ويقول صاحب كتاب بلاد العرب "وكان قبيلة أسد تعيش شمال وادي ثادق في وسط القصيم تقريباً ، وكان أسفله لبني عبس وكانت لها ماءة تسمى الجزيرة قرب ثادق الذي ينتهي إلى الرمة، وأيضاً لأسد وادي الجرير الذي يفرغ في ثادق، ويقول كذلك والجرير يفرغ في ثادق وثادق واد ضخم يفرغ في الرمة أعاليه لبني أسد وأسفله لبني عبس[٣٢] .

ولأسد أيضاً خزاز الأنعمين ومتالع، وهو جبل وبقربه أمدة الحمى وهو لفنى وأسد وكلها تقع غرب دخنة الحالية في جنوب الرس[٣٣] .

ويقول في موضع آخر: "وتنظر من دامة إلى أبانين وقطن وساق المغروين وهو

---

(٣٠) ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ط١ ١٩٥٧ ص٥٨-٥٩ ويوم النعف بين غسان وأحد أحلاق بني أسد فيلومه الشاعر لأنه لم يستنجد بأسد كما حدث في يوم شطب.

(٣١) ـ انظر معجم قبائل العرب للأستاذ عمر رضا كحالة ط دار العلم للملايين بيروت عام ١٩٦٨ الجزء الأول ص٢١ ومابعدها.

(٣٢) ـ انظر بلاد العرب للأصفهاني ص٧٢ وكذلك معجم البلدان لياقو[illegible]زء الثاني ص١٣١.

(٣٣) ـ انظر بلاد العرب للأصفهاني ص٧٢ وكذلك معجم البلدان لياقوت الجزء الثاني ص٣٨٦.

جبل دقيق طويل كأنه قنه لبني أسد وغطفان[٣٤] .

ويقول أيضاً: "وتنتظر من رامة إلى القنان وهو أبعدها، وهو جبل من أصطحه بلاد بني أسد ويقول نهشل بن جرى وهو شاعر من نهشل بن دارم والبيت من الكامل:

ضَمِنَ القِنَانُ لِفَقْعَسٍ سَوْأتِهَا
إن القِنَانَ لِفَقْعَسٍ لَمُعَمَّرُ[٣٥] .

وبجانبه القناة وهي ماءة لبني أسد أيضاً، وأبان الأبيض لبني أسد وهو غرب الرمة في القصيم الحالية، أما أبان الأسود فلبني خزارة ويصف بشر بن أبي خازم الأسدي الظمائن فيقول والبيت من الوافر:

يَؤُم بها الحُدَاةُ مياهَ نَخْلٍ   وفيها عَنْ أَبَانَيْنَ ازْورارُ[٣٦]

ومن مواطن بني أسد النسار، وتعرف اليوم باسم النسر، وهي جنوب القصيم على حدود الرياض، وفيها كانت الوقعة الشهيرة بيوم النسار وكانت بين أسد وغطفان وهم حلفاء ضد بني عامر بن صعصعة وبني تميم، وقد ذكر هذا اليوم أكثر من شاعر من بني أسد يقول عبيد بن الأبرص والبيت من الكامل:

وَلَقَدْ تَطَاوَلَ بالنِسارِ لِعَامِرٍ   يَوْمٌ تشيبُ لَهُ الرؤوسُ عَصَبْصَبُ
وَلَقَدْ أَتاني عَنْ تَميم أَنَّهُمْ   ذَئِروا لِقَتْلَى عَامِرٍ وَتَغَضَّبوا[٣٧]

ويقول بشر بن أبي خاوم فيه والبيت من الكامل:

غَضِبَتْ تَمِيْمٌ أَنْ نُقَتِّلَ عَامِراً
يَوْمَ النِسَارِ فأُعْقِبوا بالصَيْلَمِ[٣٨] .

ومن أمكنة بني أسد أيضاً ذات الشقوق، ذلك أنه حمزة النهشلي حرم على نفسه

---

[٣٤] ـ انظر المرجع السابق ص٣٨٧ "بلاد العرب" وانظر لسان العرب "أبان".

[٣٥] ـ انظر بلاد العرب ص٣٨٨ وكذلك معجم البلدان الجزء الثالث ص٤٤ والأصطح الوسط وفقد بطن من أسد.

[٣٦] ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم تحقيق د.عزت حسن طبع دمشق ١٩٦٦ ص٨٧ وقد ورد البيت في المفضليات "تؤم..ص٣٣٨".

[٣٧] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٦ وكذلك المجاز بين اليمامة والحجاز لعبد بن محمد بن ميس النجدي ص١٩٠ نشر دار اليمامة بالرياض. ونحن نشك في صحة نسبة هذا الشاعر وذلك لأنه مات قبل يوم النسار وسننوه عن ذلك أثناء دراستنا لنشأة الشاعر وسيرته.

[٣٨] ـ انظر المجاز بين اليمامة والحجاز ص١٩١.

الخمر حتى يثأر لتميم على بني أسد، وأغار عليهم في ذات الشقوق فقاتلهم كما يذكر عبد الله بن محمد النجدي في كتابه[٣٩]

ويضيف المؤلف قائلاً: وكذلك بسيان من أمكنهم وهي قرب وجدة والشبيكية الحالية، وقمة مشهورة لبني قشير على بني أسد قال فيها دريد بن الصمة والبيتان من الوافر:

رَدَدْنَا الحيَ من أَسَدٍ بضَرْبٍ
وَطَعْنٍ يَتْرُكُ الأَبْطَالَ زُوْرا
تَركْنَا مِنْهُمُ سَبْعِيْنَ صَرْعَى
ببسْيَاْن وأَبْرَاْنَا الصُدُوْرا

وكان مكمن لصوص بني عامر وسليم وعبس في هذه المنطقة على حد زعم المؤلف[٤٠].

ويقول في موضع آخر: والعرف من ديار بني أسد أيضاً ويذكرها الكميت فيقول والبيت من المتقارب:

أأَبْكَاكَ بالعُرُفِ المَنْزلُ وَمَا أَنْتَ والطَلَلُ المُحْوِلُ[٤١]

وقال العامري: ببلاد أسد فقلت ماهي فقال: بها قفاف ورمال وغير ذلك:[٤٢]

ومن مواطن بني أسد الشبكه، وهي ماءة كلها لهم كما يزعم الأصفهاني في كتابه بلاد العرب[٤٣].

ويذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أماكن عديدة لبني أسد، منها أوضاح والدنية وهي ماءة لبني أسد[٤٤].

ويضيف قائلاً: والرجعية لبني أسد كذلك، ولعلها هي الرجيع الذي استشهد فيه بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الردة[٤٥].

ويقول في موضوع آخر: وشرج هي ماء شرقي الأجفر قريبة من فيد "في منطقة

---

[٣٩] ـ المرجع السابق ص١٩٦.
[٤٠] ـ المرجع السابق ٢٠٥.
[٤١] ـ المرجع السابق ٢٠٦.
[٤٢] ـ بلاد العرب ص٣٩ والمجاز ص٢٠٥.
[٤٣] ـ انظر بلاد العرب للأصفهاني ص٤٧.
[٤٤] ـ انظر معجم البلدان لياقوت الحموي المجلد الثالث ص٨.
[٤٥] ـ المرجع السابق المجلد الأول ص٢٩.

حائل. لبني أسد وقال الحسين بن مطير الأسدي فيها والأبيات من الوافر[٤٦]:

عَرَفْتُ منازلاً بشِعَابِ شَرجٍ فَحَيَّيْتُ المنازلَ والشِعَابَا
منازلَ هَيَّجَتْ للقلبِ شَوْقاً وللعينين دَمْعَاً وانْتِحابَا

والشيقانُ لِأسَدٍ أيضاً قال نصر: الشيقان جبلان أو ماء في ديار بني أسد وأنشد بشر بن أبي خازم الأسدي فيهما والبيت من الطويل[٤٧]:

دَعُوْا مَنْبتَالشيقين إنَّهُمَا لَنَا إذا مُضَرُ الحَمْراءُ شَبَّتْ حُروبُهَا

ويقول ياقوت في موضع آخر: وصعائق أيضاً موضع لبني أسد بنجد فيه حرب[٤٨] و لم نجد غير ياقوت يشير إلى مثل تلك الحروب.

ويتفق ياقوت الأصفهاني في أن جبل صفر بنجد قرب المدينة المنورة لبني أسد أيضاً[٤٩].

وإذا ماأمعنا النظر إلى شعر عبيد بن الأبرص فإننا سنجده يذكر لنا كثيراً من الأماكن والمواطن في ديار قبيلته كمثل قوله: والأبيات من الخفيف[٥٠]

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدفِيْن ببَالِ فَلِوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَيْ أُثَالِ
فالمَرُوْراتُ فالصفيحةُ قَفْرٌ كُلُّ وادٍ وَرَوْضَةٍ مِخْلالْ

وكل هذه الأماكن توجد الآن في منطقة القصيم وفي جنوبها الغربي، ومنطقة القصيم من الأماكن التي سكنتها بنو أسد وتركزت فيها ردحاًطويلاًمن الزمن كما عرفنا ويذكر ياقوت أن وادي طثرة لبني أسد، وكذلك الفداء وهي بنجد والغربات أيضاً ويبدوا أنه قد قتل في هذا المكان بعض بني أسد فقال شاعرهم من الوافر[٥١] :

أَلاْ يَا طَالَ بالغُرَبَاتِ لَيْلَيْ وَمَا يَلْقَى بنو أَسَدٍ بهنَّةْ
وَقَائِلَةٍ أَسِيْتَ فقلتُ جَيْرٌ أَسي إنَّني مِنْ ذَاكَ إنَّهْ

---

[٤٦] ـ المرجع السابق المجلد الثالث ص٣٣.
[٤٧] ـ المرجع السابق المجلد الثالث ص٣٨ وروى البيت في المفضليات.
[٤٨] ـ بتحقيق أحمد محمد شكار وعبد السلام هاوون طه "دعوا منبت السيفين ص٣٣٣".
[٤٩] ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثالث ص٤٠٥.
[٥٠] ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثالث ص٤١٤ وقد وردت الأبيات في الديوان ص١٠٥ غير أن ياقوت يستبدل أثال بذبال.
[٥١] ـ انظر المرجع السابق المجلد الرابع ص٢١ وص١٩٢.

ويضيف ياقوت قائلاً: والغمر ماء من مياه بني أسد ويقع بحذاء توز، وتوز تقع على طريق مكة إلى البصرة للقادم، وهي في أرض اليمامة، وفي هذا دلالة على أن بني أسد بدأوا يتجهون من نجد إلى الشمال الشرقي وينتشرون باتجاه البصرة[٥٢] .

ومن الجبال التي تخص بني أسد جبل قطن، ويقع في الجزء الشمالي الغربي من القصيم قال الأصمعي: هو فيما بين الفوارة والمغرب وبه مياه ومنها السليع والعاقرة والثيلة[٥٣] .

ومن أمكنة تواجدهم ناجية، وهي مدينة صغيرة على طريق المدينة وبعد أثال للقادم من مكة، وكذلك نبوان وهي ماء بنجد[٥٤] .

ويذكر صاحب كتاب بلاد العرب كثيراً من الأماكن التي تخص بني أسد فمن شاء أن يستزيد فليرجع إليه.

وكذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان وبخاصة في المجلدات الخمسة الأولى فإن فيها كثيراًمن الأسماء الخاصة لبني أسد ولانرى فائدة من إيرادها كلها هنا، وقد اكتفينا منها بما يدل على اتساع مواطن هذه القبيلة، ونضيف بعض الأماكن الأخرى التي وردت في أشعار بعض شعراء تلك القبيلة وذلك لما نتوخاه من أهمية لتلك الأماكن ومنفعة للبحث، ومن هذه الأماكن جبل الحبس وقال فيه منظورة بن فروة الأسدي[٥٥]:

هَلْ تَعْرَفِ الدَّارَ عَفَتْ بالْحُبْس ... غَيْرَ رَمَادٍ وإثَافٍ عُبْس

كَأَنَّهَا بَعْدَ سِنِيْنَ خَمْس ... وُرَيْدَةٌ تُذْرِي خُطَامَ الْيُبْس

ومن سهول بني أسد سهل خو، وهو سهل واسع وقعت فيه موقعة كبيرة بين بني أسد وبين يربوع من تميم، وفيه قتل ذؤاب بن ربيعة اليربوعي فقال مالك بن نويرة فيه والبيت من الطويل[٥٦] :

وَهَوَّنَ وَجْدِي إذْ أَصَابَتْ رِمَاحُنَا ... عَشِيَّةَ خَوٍّ رَهْطَ قَيْس بْن جَابر

ومن الأمكنة التي سكنها بنو أسد غبراء الحبيبة، وقد أورد ذكرها عبيد بن الأبرص في شعره والبيت من الطويل[٥٧]:

---

[٥٢] ـ انظر المرجع السابق المجلد الرابع ص٢١٢.
[٥٣] ـ انظر المرجع السابق المجلد الرابع ص٣٧٤.
[٥٤] ـ انظر المرجع السابق المجلد الخامس ص٢٥٠.
[٥٥] ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثاني ص٢١٣.
[٥٦] ـ انظر المرجع السابق المجلد الثاني ص٤٠٧.
[٥٧] ـ انظر المرجع السابق لياقوت المجلد الرابع ص١٨٥ والأبيات مثبتة في ديوان الشاعر عبيد ص١١٣.

فَإنْ تَكُ غَبْرَاْءُ الحُبَيْبَةِ أَصْبَحَتْ خَلَتْ مِنْهُمُ واسْتَبْدَلَتْ غَيْرَ إبْدال

ومن الأماكن التي سكنها بنو أسد سميراء، وهي التي عسكر بقربها طليحة الأسدي عندما ادعى النبوة في خلافته أبي بكر الصديق رضي ا الله عنه، وتقع جنوبي حائل وفيها يقول مطير بن أشيم الأسدي والبيت من الطويل[٥٨]:

أَلاْ أَيُّهَاْ الرُكْبَاْنُ إن أَمَاْمَكُمْ سُمَيْرَاْءَ مَاْءُ رَبّهُ غَيْرُ مُجْهَلِ

كما سكنوا قرب جبل شطب ويقع غرب القصيم وفيه يقول بشر بن أبي خازم الأسدي والبيت من البسيط[٥٩]:

سَاْئِلْ نُمَيْراً غَدَاْةَ النَّعْفِ مِنْ شَطِبِ إذْ فُضَّتْ الْخَيْلُ مِنْ شَهْلاْنَ إذْ رهقوا

ومن الأماكن التي سكنها بنو أسد "لينة" وهي من أعظم مياه بني أسد وماء زبالة ولينه كان كله لبني أسد، وهذه الأرض جميعها اليوم في شمال مدينة حائل[٦٠].

تلك هي أهم المواطن التي استقرت فيها قبيلة بني أسد بعامة، ونلاحظ أن معظمها يقع في منطقتي حائل والقصيم في إقليم نجد وقد ذيلنا هذا الفصل بخارطة توضح مواطن ومنازل هذه القبيلة الكبيرة، أما عن استقرار بعض بطون هذه القبيلة في مواطن أخرى فإننا سنكتفي بتقصي بعض الأماكن لتلك البطون والأفخاذ بما يخدم هذا البحث ويعمق وشائج الترابط فيه، وقد رأينا أن بعض تلك البطون قد وصل إلى حلب في شمال سوريا أيام سيف الدولة الحمداني الذي يرجع بنسبه إلى بني أسد[٦١] .

ووصل بعض هذه البطون إلى البصرة والكوفة شرقاًوقد بنى حلة بن مزيد مدينة الحلة الحالية في العراق كما تقول بعض الروايات وهي تقع بين الكوفة وبغداد[٦٢] .

كما وصل بعضهم فيما يبدوا إلى دمشق أيام مروان بن عبد الملك وكانوا من بني هزيم وهم من بني أسد[٦٣] .

ومن أماكنهم أرمام وسميراء قرب حائل وفيهما يقول الفقعسي والبيت من

---

(٥٨) ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثالث ص٢٥٥.

(٥٩) ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثالث ص٣٤٣.

(٦٠) ـ انظر بلاد العرب للأصفهاني ص٣٢٧.

(٦١) ـ انظر معجم البلدان لياقوت ، المجلد الثاني، ص ٢٩٤.

(٦٢) ـ انظر المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٢٩٤.

(٦٣) ـ انظر المرجع السابق، المجلد الاول، ص ٥٠.

الرجز[٦٤] :

دَعَـتْ سُـمَيْرَاءَ إلَـى أرْمَامِهَـا   إلَـى الْطَرِيْفَـاْتِ إلَـى أَهْضَاْبِهَـاْ

ويذكر الأصفهاني بعض مياه بني أسد فيقول: "وكان لهم ماء بنان قرب الثلبوت في القصيم عند الرمة، وماء الحديباء والعثانة وهي قريبة من الثلبوت أيضاً[٦٥] .

ويحدد ياقوت الحموي مساكن بني جعدة "وهم بنو النعامة" بن عبد الله بن صعب ابن أسد في الثنيان وهما جبلان ويقال لهما: الشمالي ويقول الراجز فيهما[٦٦] :

أَرِقَنِـيْ اللَيْلَـةَ بَـرْقٌ لاْمِـعْ   مِـنْ دِمْنَـةِ الْثِنْيَـاْنِ والْرَبَـاْئِعْ

ويحدد الأصفهاني في كتابه بلاد العرب مساكن سواء ونصر فيقول: "وسكنت سواء ونصر وادي الأجفر قرب السبعان في وسط حائل وأعلاه الملا[٦٧] .

ومن الوديان التي سكنها بنو أسد وادي الثلبوت أو الرحبة القريب من وادي الرمة وفيه يقول مرة بن عياش النصري الأسدي: والشعر من الكامل[٦٨] :

وَلَقَدْ أَرَى الثَلْبُوْتَ يَـأْنفُ نَبْتَـهُ   حَـي كَـأَن هُـمُ أُولُـوْ سُـلْطَاْن

وَلَهُـمْ بـلاْدٌ طَاْلَمَـاْ عُرِفَـتْ بِهِـمْ   صَحْـنُ الْمَـلاْ وَمَدَاْفِـعُ الْسَـبْعَاْن

والثلبوت كما حدده ياقوت وادي يمتد إلي وادي الرمة من تحت ماء الحاجز.[٦٩] ويضيف ياقوت الحموي في موضع آخر محدداً مساكن بني الحارث بن ثعلبة بن دودان فيقول "وسكن بني الحارث بن ثعلبة بن دودان إبان الأسود في غرب القصيم"[٧٠] .

ويوضح لنا ياقوت مساكن بعض بطون وأفخاذ بني أسد في ثنايا معجمه..

فيجعل مساكن بني ثعلبة بن دويدان في نميلة باليمامة قرب فادق بالقصيم[٧١]

ويجعل مساكن بني عبس بن قعين قرب ماء يقال له غمر قرب الفرقدة قرب الرس

---

[٦٤] ـ انظر بلاد العرب للاصفهاني، ص ٦٢.

[٦٥] ـ المرجع السابق، ص٥٦ـ٥٧.

[٦٦] ـ انظر معجم البلدان لياقوت، المجلد الاول، ص ٦٨.

[٦٧] ـ انظر بلاد العرب للاصفهاني، الجزء الثاني، ص ٥٨.

[٦٨] ـ انظر معجم البلدان لياقوت، المجلد الثاني، ص ٨٢.

[٦٩] ـ انظر معجم البلدان لياقوت، الجزء الثاني، ص ٨٢.

[٧٠] ـ المرجع السابق، المجلد الاول، ص٦٣. وقد سكن إبان الأسود بنو والبة ولكن بعد بني الحارث بن ثعلبة.

[٧١] ـ انظر معجم البلدان لياقوت، المجلد الخامس، ص ٢٥٨.

بالقصيم أيضاً.[٧٢]

ويوافقه صاحب كتاب بلاد العرب على رأيه هذا فيقول أما الرمس في وسط القصيم ويجعلها ياقوت من نصيب بني أعياد وهم من بني أسد بن خزيمة[٧٣] .

ويضيف ياقوت الحموي قائلاً: "إن الرسيس سكنها بنو كاهل وهم من بني أسد بن خزيمة أيضاً"[٧٤]

ويقول ياقوت في موضع آخر محدداً مساكن بني منقذ بن أعياد وهم من بني أسد "وسكن بنو منقذ بن أعياد في السلامية وهي معروفة إلى الآن"[٧٥] .

أما بنو حزن بن وهب بن أعياد بن طريف بن أسد فقد سكنوا السلامية أيضاً وهي ماء قرب السلماء في شمال مدينة حائل[٧٦] .

وسكن الفرقدة وهي قريبة من القليب بنو نمير بن نصر من أسد بن حزيمة[٧٧] .

وسكن بنو والبة وهم من بني أسد النبهانية وهي قرية ضخمة في وسط القصيم[٧٨] .

ويذكر صاحب كتاب بلاد العرب أن بني ربيعة وهم من بني نمير بن نصر قد سكنوا قرب ماء القليب[٧٩] .

ويذهب ياقوت إلى تحديد منازل بعض البطون الأخرى من قبيلة بني أسد فيقول: "وسكن بنو عمروا بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان العمرية"[٨٠] .

وسكن بنو غاضرة زبالة وهي بطريق مكة إلى الكوفة وجرت بها واقعة[٨١] كما سكنوا الغاضرية وهي قرب الكوفة قريبة من كربلاء كما سكنوا النير، وهو جبل بأعلى نجد في القصيم، وفيه يقول أبي الهلال الأسدي "من الوافر[٨٢] :

وَشِمْتُ البَارِقَاتِ فَقُلْتُ جِيْدَتْ جبَالُ النِيْر أَوْ مَطَرُ القَلِيْبِ.

---

[٧٢] ـ انظر بلاد العرب للاصفهاني، ص٦٣.

[٧٣] ـ انظر معجم البلدان لياقوت، المجلد الثالث، ص ٤٣.

[٧٤] ـ انظر المرجع السابق لياقوت المجلد الثالث ص٤٣.

[٧٥] ـ انظر المرجع السابق لياقوت المجلد الثالث ص٣٩٣.

[٧٦] ـ انظر المرجع السابق لياقوت المجلد الثالث ص٢٣٤.

[٧٧] ـ انظر المرجع السابق المجلد الثالث ص١٢٩.

[٧٨] ـ انظر المرجع السابق لياقوت المجلد الثالث ص٢٥٨.

[٧٩] ـ انظر بلاد العرب للأصفهاني ص٦٤.

[٨٠] ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الرابع ص١٥٦.

[٨١] ـ المرجع السابق المجلد الثالث ص١٢٩ لكنه لم يحدد لنا الواقعة التي ذكرها ولامع من كانت.

[٨٢] ـ انظر المعجم نفسه لياقوت المجلد الخامس ص٣٣٠.

ويحدد ياقوت مساكن بني مرة من بني أسد في الثلماء قرب القنة والحبس في شمال حائل[٨٣] كما سكن بنو البكاء في الذنائب وهي على طريق البصرة إلىمكة وتسمى الآن "المذنب" جنوب القصيم[٨٤] وسكن بنو سعد وهم من بني أسد قرب الغميم وهي ماء شمال شرق قطن، كما سكن بنو نبهان بفيد شرقي حائل[٨٥] .

ويذكر ياقوت في معجمه أن بنيٍ حلة بن مزيد وهم من بني أسد قد سكنوا مدينة الحلة بين الكوفة وبغداد ويضيف قائلاً: "وكان قد بناها أي مدينة الحلة ـ حلة بن مزيد نفسه"[٨٦] .

ويذهب صاحب معجم قبائل العرب إلى القول أن بني حلة بن مزيد قد سكنوا مدينة الحلة في العراق، وكان ذلك حوالي ٥٨٨هجرية ثم يمموا نحو الشمال قرب الموصل فاستقروا هناك زمناً على حين ذهب الأمير سيف الدولة بن حمدان وهو من بني حلة إلى نواحي مدينة حلب فأسسٍ إمارة هناك[٨٧] .

وتعتبر إمارة الحمدانيين امتداداً لبنى حلة في العراق ويمكننا الاطمئنان إلى مايقوله المؤلف في هذا الشأن إذ ليس من المستبعد أن تكون هذه القبيلة قد تعرضت لضغط من قبل بعض خلفاء بني العباس بسبب تشيعها.

تلك هي منازل ومواطن قبيلة بني أسد بن خزيمة منذ العصر الجاهلي إلى أواخر العصر العباسي الثاني أو مايطلق عليه عصر الدويلات المتتابعة حاولنا أن نقف عليها ونأمل أن نكون قد أصبنا بعض الحقيقة لاكلها في تلمس منازل هذه القبيلة الكبيرة التي لعبت دوراً لايستهان به في العصرين الجاهلي والإسلامي على حد سواء.

---

[٨٣] ـ انظر المرجع السابق المجلد الثاني ص٨٣.

[٨٤] ـ انظر المرجع السابق المجلد الثالث ص٧.

[٨٥] ـ انظر المرجع السابق المجلد الرابع ص٢١٥ وكذلك ص٢٨٢.

[٨٦] ـ انظر المرجع السابق المجلد الثاني ص٢٩٤.

[٨٧] ـ انظر معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة ص٢١ وما بعدها ولايزال حتى اليوم في نواحي مدينة حلب بعض المتشيعين والذين يرجح أنهم بقايا من بني حلة بن مزيد وبخاصة في قريتي نبل والزهراء اللتان تبعدان عن حلب حوالي ٢٥كم.

الفصل الثاني

نشأة الشاعر وسيرته

يروي صاحب الأغاني عن أبي عمرو الشيباني أن اسم الشاعر ونسبه هو: "عبيد بن الأبرص بن حنتم بن عامر بن مالك بن زهير بن مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن معد بن عدنان[1] .

وهذه الرواية عن اسم الشاعر ونسبه هي أشهر الروايات وأقواها وهناك رواية أخرى وردت في تاريخ اليعقوبي تقول: "هو عبيد بن الأبرص بن حنت بن عامر بن مالك: الخ..... وهي موافقة لما جاء في الرواية السابقة[2] .

ويزيد صاحب جمهرة أشعار العرب جداً لعبيد حيث يقول "هو عبيد بن الأبرص بن جشم ابن حنتمٍ بن عامر...الخ.[3] ويخصص له شيطان شعر يدعى هبيدا، ويقول البكري مضيفاً جداً آخر لعبيد وهو "هر" يقول البكري "هو عبيد بن الأبرص بن جشم بن حنتم بن عامر بن مالك بن هر بن مالك...الخ ويجعل البكري لعبيد كنية فيقول "وهو شاعر جاهلي يكنى أبا دودان وأبا زياد"[4] .

ويوافق ابن حزم في جمهرة أنساب العرب البكري فيما ذهب إليه من إضافة هر

---

[1] ـ انظر الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني، المجلد ١٩، ص١٧١ ومابعدها، دار الفكر ببيروت، ١٩٥٦.

[2] ـ انظر تاريخ اليعقوبي الجزء الأول ص٢١٩ المطبعة المرتضوية بالنجف ١٣٥٨هـ.

[3] ـ انظر جمهرة أشعار العرب لابي زيد القرش ص٤٦ وما بعدها تحقق على محمد البجاوي.

[4] ـ انظر سمط اللآلي للبكري الجزء الأول ص١٧٩ مطبعة القاهرة ١٣٠٨ ولم أجد غيره من الرواة يكني عبيداً بتلك الكنية.

إلى جدود عبيد[٥] .

ويحدثنا ابن قيبة عن نسبه فيقول: "هو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم.. الخ... ويضيف قائلاً: "وكان عبيد شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين[٦] .

ونجد الآمدي في المؤتلف والمختلف يخلع عليه صفة الشهرة وينعته بالقدم فيقول: "أنه كان شاعراً جاهلياً مشهوراً وقديماً"[٧] .

ومن هذا كله يتضح لنا أن الرواة متفقون على أن هذا الشاعر يرجع بنسبه إلى بني سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد، وجل ما يختلفون فيه هو إضافة جد أوحذفه من سلسلة نسبه كما رأينا.

هذا عن نسبه أما عن مولده ونشأته فلا أحد يدري على وجه الدقة متى ولد، وليست لدينا أخبار دقيقة عن بداية حياته باستثناء ماجاء بشعره، ونظن أنه لاخلاف في أن عبيداً من أقدم الشعراء الجاهليين إن لم يكن أقدمهم فعلاً ممن وصلت إلينا أشعارهم، فابن سلام الجمحي يجعله "قديم الذكر عظيم الشهرة[٨] .

وقد رأينا الآمدي وابن قتيبة ينعتانه بالقدم والشهرة أيضاً، وهذا أبو حاتم السجستاني يقول عنه: "أنه عاش عمراً مديداً يزيد على المائتي عام[٩] ويبدو أن عبيداً كان على صلة قوية بآخر ملوك كندة حجر بن الحارث في الفترة التي كان فيها الأخير ملكاً على بني أسد، وتقول بعض الروايات أن الشاعر ظل ينادم حجراً إلى أن وقع الخلاف بين كندة وبني أسد لامتناعهم عن تأدية الأتاوة المفروضة عليهم، مما جعل حجراً يسيء معاملتهم وهو الخلاف الذي أفضى إلى مقتل حجر على أيدي بني أسد[١٠] .

وقد ذكر الخبر غير واحد من المؤلفين والرواة القدماء وسنعرض له بالتفصيل في موضع آخر من هذا البحث.

---

(٥) ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الرابعة دار المعارف ص١٩٢.

(٦) ـ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ص٢٦٧ تحقيق أحمد محمد شاكر ١٩٦٦ دار المعارف وكذلك ص٢٧٣ الطبعة الثالثة لنفس المحقق.

(٧) ـ انظر المؤتلف والمختلف للآمدي تحقيق عبد الستار فراج طبع الحلبي ص٢٢٧ سنة ١٩٦١.

(٨) ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي شرح محمود محمد شاكر طبعة المدني بالقاهرة ص٢٦.

(٩) ـ انظر كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني مطبعة السعادة عام ١٩٠٥ ص٦٦.

(١٠) ـ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري الجزء الأول ص٢٧٣ تحقيق أحمد محمد شاكر.

وتقول الروايات أن عبيداً قد قتل على يد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة المشهور[11] ويقول الدكتور شوقي ضيف وكان أزهى عصورهم أي المناذرة عصر المنذر بن ماء السماء الذي حكم فيما بين سنة ٥١٤ ـ ٥٥٤ ميلادي وقد ساءت العلاقات بينه وبين قباذ ملك الفرس، ولعل ذلك يرجع إلى أن قباذاً كان قد اعتنق المزدكية وحاول فرضها على المناذرة فأبوا فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة، ولكن بوفاة قباذ ومجيء كسرى أنو شروان إلى الحكم عاد المنذر إلى حكم الحيرة، ونشبت بينه وبين الحارث وأولاده معارك طاحنة كان النصر فيها حليف المنذر، وقد اشتهرت بين العرب بأن كان له يومان يوم نعيم ويوم بؤس، وكان ممن قتله في هذا اليوم المشؤوم عبيد بن الأبرص[12] ويجعل الدكتور ضيف مقتل هذاالملك في يوم حليمة على يد الحارث الغساني.

ويقول الدكتور علي إبراهيم حسن في كتابه "التاريخ الإسلامي العام" وحالف الروم الغساسنة محالفة الند للند ضد الفرس والعرب المقيمين على أطراف مملكتهم في أواخر القرن السادس الميلادي، ونشبت الحرب بين الحارث والمنذر، وتقدم المنذر كما تقول بعض الروايات حتى بلغ أنطاكية، وفي سنة ٥٤١ميلادي حارب الحارث بن جبلة في العراق إلى جانب الروم وفي عام ٥٤٤ ميلادي عاد الأميران العربيان إلى القتال وفي سنة ٥٥٤ميلادي أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً كبيراً على المنذر في معركة قرب قنسرين "عين أباغ" حيث قتل المنذر في هذه المعركة[13] .

ويذكر السير تشارلز لايل في مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص أن هذا الشاعر كان قد عاصر حجراً أمير كندة الذي حكم أبوه قبائل بني أسد وغطفان وكنانة في أواخر القرن الخامس الميلادي[14] .

وإن صحت الروايات السابقة فلنا أن نفترض أن عبيد بن الأبرص كان قد ولد حوالي سنة ٤٥٠للميلاد أو أقل قليلاً إذا وضعنا في الاعتبار أن تاريخ وفاة المنذر بن ماء السماء يرجع إلى عام ٥٥٤م وهو آخر عام يمكن لنا أن نؤخر به وفاة عبيد الذي تجمع الروايات أنه عاش عمراً مديداً أضف إلى ذلك مانراه مثبوتاً في ديوان الشاعر نفسه فهو يؤكد أنه نعم

---

[11] ـ انظر الأغاني لأبي الفرج المجلد ١٩ ص١٧١ ومابعدها طبع دار الفكر ببيروت عام ١٩٥٦.

[12] ـ انظر تاريخ الأدب العربي –العصر الجاهلي– للدكتور شوقي ضيف ص٤٤ طبع دار المعارف.

[13] ـ انظر التاريخ الإسلامي العام للدكتور علي إبراهيم حسن طبع مكتبة الفلاح بالكويت عام ١٩٧٧ نقلاًعن نولدكة في أمراء غسان ص١٨ المطبعة الكاثوليكية ببيروت عام ١٩٣٣.

[14] ـ انظر مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق تشارلز لايل طبعة ليدن ١٩١٣م. وانظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار طبعة ١٩٥٧ ص٥١. وانظر المرجع السابق ص٦٠-٦١.

بعمر مديد وعاصر كثيراًمن الأحداث التاريخية في عصره. يقول عبيد من الطويل[١٥] :

فَنِيْتُ وَأَفْنَانِي الزْمَانُ وَأَصْبَحَتْ لِدَاتِي بَنُو نَعْشٍ وزُهْرِ الْفَرَاقِدِ

ويقول في موضع آخر من الكامل[١٦] :

أدْرَكْتُ أَوَّلَ مُلْكِ نَصْرٍ نَاْشِئاً وَبنَاْءَ سِنْدَاْدٍ وَكَاْنَ أُبيْدَاْ

وَطَلَبْتُ ذَا القَرْنَيْنِ حَتّى فَاْتَنِي رَكْضَاً وَكِدْتُ بِأَنْ أَرَى دَاْوُوْدَاْ

ما تُبْتَغَى مِنْ بَعْدِ هَذاْ عِيْشَةٌ إلا الْخُلُوْدُ وَلَنْ يُنَاْلَ خُلُوْدَاْ

ويصعب علينا التسليم بأن عبيداً عاش حوالي ثلاثمائة سنة كما ورد في الروايتين السابقتين لابن قتيبة وابي حاتم السحستاني، ولكننا نرجح أن الشاعر قد عاش عمراً طويلاً ربما تجاوز به المئة سنة وهذا أقرب إلى المنطق والتصديق، وكذلك إذا صح أنه ولد عام ٤٥٠م وتوفي عام ٥٥٤م فإنه بذلك يكون قد عاش مائة وأربعة أعوام وليس هذا ببعيد.

أما عن نشأة الشاعر فالأخبار عنها ضئيلة، ولكننا نرجح أنها كانت في إقليم نجد حيث نزلت قبائل بني أسد هناك كما مر بنا مجاورة بعض القبائل المضرية مثل غطفان وطيء وغنيم.

ويعد إقليم نجد من أجمل أقاليم شبه الجزيرة العربية فأرضه مرتفعة عما جاوره من أقاليم، وبه الهضاب والأودية والحرار والدارات، وهواؤه جاف نقي، وأرواحه لطيفة طيبة، ويبدو ذلك كله جليلاً من تغني الشعراء بجمال هذا الإقليم وبطيب هوائه، ولنستمع إلى أحد هؤلاء الشعراء إذ يقول "من الوافر"[١٧] :

أَقُوْلُ لِصَاْحِبيْ والْعِيْسُ تُهْوِيْ بنَاْ بَيْنَ الْمُنيفَةِ فالْضِمَاْرِ

تَمَتعْ مِنْ شَمِيْم عَرَاْر نَجْدٍ فَمَاْ بَعْدَ الْعَشِيّةِ مِنْ عَرَاْر

شُهُوْرٌ يَنْقَضِيْنَ وَمَاْ شَعَرْنَاْ بأَنْصَاْفٍ لَهُنَ وَلاْ سِرَاْرْ

فَأَمَاْ لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ وَأَقْصَرُ مَاْ يَكُوْنُ مِنَ النَهَاْرْ

ولئن كان هذا الوصف معنوياً لهواء نجد ولطبيعته الجميلة فإن ابن الملوح يصف لنا

---

[١٥] ـ انظر الوساطة بين المتنبي وخصومه،ص ٣٣، الطبعة ٣، طبع مصطفى البابي الحلبي. انظر ديوان مجنون ليلى، جمع وترتيب أبي بكر الوالي، تحقيق جلال الدين الحلبي، مطبعة البابي، مصر، ١٣٥٨ هـ، ص ٤٦. وتنسب هذه الابيات لأكثر من شاعر . ومن الشعراء الذين تنسب إليهم الصمة بن عبدا لله القشيري، راجع حماسة أبي تمام.

[١٦] ـ انظر المرجع السابق ص٣٣ وانظر ديوان مجنون ليلى ص١٣ و١٤.

[١٧] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٦١٠.

نجداً وصفاً حسياً إذا يقول "من الطويل":

أَلاَ حَبّذَا نَجْدٌ وَطِيبُ تُرَابِهَا وَأَرْوَاحُهَا إنْ كَانَ نَجْدٌ عَلَى الْعَهْدِ

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِيْ عَنْ عُوَيْرِضَتَيْ قُبَا لِطُوْلِ التَنَائِي هَلْ تَغيرَتَا بَعْدِيْ

وَعَنْ أُقْحُوَانِ الرَمْلِ مَا هُوَ فَاعِلٌ إذَا هُوَ أَمْسَى لَيْلَةً بِثَرىً جَعْدِ

وَعَنْ عُلْويّاتِ الريَاحِ إذَا جَرَتْ بريْحِ الْخُزَامَى هَلْ تَهبُّ إلَى نَجْدِ

وَهَلْ أَسْمَعَّن الدّهْرَ أَصْوَاتَ هَجْمَةٍ تُطَالِعُ مِنْ وَهْدٍ خَصِيْبٍ إلَى وَهْدِ

والمظنون أن شاعرنا عبيد بن الأبرص نشأ نشأته الأولى في هذا الإقليم من أقاليم شبه الجزيرة كما يبدو ذلك من أخبار حياته وشعره، وكما ذكرنا فإن أقليم نجد يتمتع بهواء عذب نقي وسماء صافية وأرواح طيبة، ولاشك أن شاعرنا قد تأثر بذلك الجو الشاعري الجميل فصفت روحه وسمت فجاء شعره عذب الألفاظ رقيقها، جزل العبارة قويها، تفيض الحكمة منه فيضاً، ويتدفق منه الوصف تدفقاًهادئاً كنفسه الهادئة المتأملة أبداً.

أسرته:

لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً يذكر عن الأسرة التي نشأ فيها شاعرنا وليس لنا من مسعف في هذا المجال إلا شعر الشاعر وماورد فيه من إشارات خاطفة حول هذا الموضوع، وسنحاول جاهدين من خلال هذا الشعر أن نلقي بعض الضوء على هذه الأسرة.

ونلاحظ بداية صمت عبيد بن الأبرص عن ذكر أبيه وعدم إشارته إليه في شعره البتة، و لم يتحدث عنه أحد من الرواة والأخباريين، ولعل الأبرص لقب لحق به نتيجة إصابته بهذا المرض، وربما كانا السبب في عدمِ ذكر الشاعر لأبيه أنه توفي صغير السن و لم يره ويتعلق به، أو ربما كانا لأبرص هذا رجلاً هيناً لامكانة له تعلي من شأنه ليفتخر بها عبيد ونحن نرجح السبب الأخير لأنه لو كانت له منزلة عالية أو محامد ومآثر في تاريخ القبيلة لكان عبيد أولى الناس بذكرها وبالتمدح فيها، وقد رأينا فخر الشاعر يتجه نحو قبيلته بني أسد بتهامة وإلى بني سعد بن ثعلبة رهط الشاعر بخاصة.

وكما لانجد لأبيه فكذلك لانجد ذكراً لأم هذا الشاعر، فهو لم يتعرض لها أيضاً وليس بغريب هذا لأنه يبدوا أن ذكر الأم والمرأة بعامة لم يكن محبباً لدى الجاهليين بوجه عام، أما عن إخوة الشاعر وأبنائه فإننا نجد هذا الشاعر قد تعرض لذكرهم مرة

واحدة في ديوانه دون ذكر للتفاصيل في العدد أو المكانة.. ونستدل من ذكره لهم على وجودهم، غير أننا لانعلم شيئاً عن أسمائهم ولاعن ظروف حياتهم، ولم نر أحداً من الرواة يشير إليهم. يقول حين أيقن أن المنذر قاتله لامحالة والأبيات من المتقارب[١٨] :

وَوَالْلّـــهِ إنْ مِــت مَــا ضَــرَّ نِــــي ... وَإنْ عِشْـتُ مَـاْ عِشْـتُفِي واحِــدَةْ

فَــــأَبْلِغْ بَنِــــي وأَعِمَــــاْمَهُمْ ... بــــأن المنايــــا هِــــيَ الــــوارِدَةْ

فَـــلاْ تَجْزَعُـــوْا لِحِمَــــاْم دَنَـــاْ ... فَلِلْمَـــوْتِ مَـــاْ تَلِـــدُ الْوالِـــدَةْ

ويبدو أن أولاد الشاعر كانوا صغاراً عندما قتل؟ وربما كان زواجه متأخراً من أم هؤلاء الأولاد ومن المحتمل أنه قد تزوج بأكثر من امرأة وكانت تلك الأخيرة ومما يؤيد ماذهب إليه أن الشاعر يخاطب هذه الزوجة في أكثر من موضع في ديوانه مخاطبة الزوجة اللائمة لزوجها العاتبة عليه المذكرة له بكبر سنه وبشيبه مما كان يؤلمه كثيراً وفي هذا دليل على أنها كانت تصغره بكثير، يقول والأبيات من البحر الوافر[١٩] :

أَلاْ عَقَبَتْعَلَـــي الْيَـــوْمَ عِرْسِــــيْ ... وَقَــدْ هَبَّــتْ بلَيْـــلٍ تَشْـــتَكِيْنِي

فَقَـــاْلَتْ لي كَـــبِرْتُ فَقُلْـــتُ حَقَـــاً ... لَقَـدْ أَخْلَقْـتُ حِيْنَـاً بَعْــد حِيْــن

تُرِيْنِـــيْ آيَـــةَ الإعْـــرَاْض مِنْهَـــاْ ... وَفَظَّـــتْ في الْمَقَاْلَـــةْ بَعْـــدَ لِيْـــن

ويقول في موضع آخر والأبيات من البحر الخفيف[٢٠] :

زَعَمَـــتْ أَنّنِـــي كَـــبِرْتُ وأَنـــي ... قَـلّ مَـاْلِي وَضَـنّ عَنّـــي الْمَوَاْلِـــي

وَصَحَـاْ بَـاْطِلِي وَأَصْبَحْـتُ شَـيْخَاً ... لاْ يُوَاْتِـــي أَمْثَاْلَهَــــاْ أَمْثَــــاْلِي

أَنْ رَأَتْنِـــي تَغَـــيّر الّلَـــوْنُ مِـــني ... وَعـــلا الْشَـــيْبُ مَفْرِقِـــي وَقَذَاْلِــــي

فَـــاْرفُضِي العَـــاْذِلِيْنَ واقْنَـــيْ حَيَـــاْءً ... لاْ يَكُوْنُـــوا عَلَيْـــكِ خَـــط مِثَـــاْل

ولعله مماسبق نستطيع أن نتبين صورة المرأة عند عبيد بعامة وصورة الزوجة بخاصة فهي المرأة المتعالية عليه،والمشيحة بوجهها عنه، المغلظة له في الكلام، المتذمرة من معاشرته لها، ذلك أن الأيام قد هدته ونالت منه وأذهبت شبابه ونضارته، ونرى الشاعر يلتزم التعقل ويسلك طريق الحكمة في الرد في مثل هذه المواقف، ويبدو لنا في

---

[١٨] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص١٣٣.

[١٩] ـ انظر المرجع السابق ص١٠٦.

[٢٠] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص١٠٦.

صورة الزوج الحريص على أسرته المطالب بعدم إطاعة العاذلين والحساد.

ومن الملاحظ أن المرأة هنا تفيض بالحيوية والشباب مقبلة على الحياة برغبة وأمل بعيدة عن تلك الحسرات والآلام التي يغرق فيها الشاعر وهو يتذكر أيام شبابه الذاهبة يقول والبيت من البحر الخفيف:

دَرَّ دَرَّ الْشَبَاْبِ وَالْشَعْرِ الأَ سْوَدِ وَالْرَاْتِكَاْتِ تَحْتَ الْرِحَاْلِ[21]

ويقول في موضع آخر من البسيط[22] :

والشَيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ أرسى بسَاحَتِهِ ... لله دَر سَوادِ اللَمةِ الخالي

وتلك سنة الجاهليين بل الإنسان بعامة في أي عصر كان، فالنظرة إلى الحياة تعني الشباب فإذا ماغربت شمسه واندثر ضياؤه وانقضى عهده فذاك يعني أن حاجات كثيرة قد انتهت وزالت بزواله وسنعرض بشيء من التفصيل لهذه النظرة أثناء حديثنا عن غزل الشاعر.

وهكذا نرى أن حياة الشاعر العائلية والأسرية تبدو لنا غير واضحة القسمات والملامح، وربما ظننا أن هناك بعض الفجوات فيها مردها إلى انشغال هذا الشاعر الكبير بشؤون قبيلته من جهة وبسط ذات يده من جهة ثانية يقول من البسيط[23] :

هَبتْ تَلَوْمُ وَلَيْستَ ساعَةَ اللاَحي ... هَلا انتَظَرْتَ بهذا اللَوْم إصْباحِي

أَنْ أَشْرَبِ الْخَمْرَ أَوْ أَرْزَأَ لَهَا ثمَنَاَ ... فَلا مَحَالَةَ يَوْمَاَ أَنني صاح

ويبدو أن جامع ديوان عبيد قد توهم أن فقر الشاعر إنما يعود في أحد أسبابه إلى بسط ذات يده، يقول جامع الديوان في المقدمة "وكان فقيراً مقلاً لامال له يرعى غنيمة له... الخ[24]

ونحن لانوافق على هذا الرأي إذ لايعقل أن يكون عبيد بن الأبرص فقيراًإلى تلك الدرجة وهو نديم الملوك والأمراء ومن المقربين لديهم، ولابد أنهم كانوا يصلونه بين الحين والآخر، وعلى أية حال: فإن هذا الأمر لن يتضح لنا بصورة جلية إلا بعد الحديث عن ملامح شخصية الشاعر وإبراز دوره في القبيلة.

---

[21] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص١٠٤.

[22] ـ انظر المرجع السابق ص٣٤-٣٥ وكذلك ص٢٣ حيث يقول:

لانقى بالأحساب مالا ولكن ... نجعل المال جنة الأحساب

[23] ـ انظر مقدمة جامع الديوان المخطوط المرفقة بديوان الشاعر.

[24] ـ وردت الأبيات في الديوان بشيء من الاختلاف عن رواية أبي الفرج.

مقتله:

تجمع الروايات على أن مقتل هذا الشاعر كان على يد ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء صاحب الغريين. ويطالعنا أبو الفرج في كتابه الأغاني بأربع روايات عن مقتل عبيد بن الأبرص مؤدها: أن المنذر بن ماء السماء بنى الغريين فقيل له: ماذا تريد بهما وكان بناهما على قربى رجلين من بني أسد كانا نديميه أحدهما يقال له خالد بن نضلة الفقعسي وكان أسداً يوم جبلة، أما الآخر فيقال له عمرو بن مسعود" فقال المنذر ماأنا بملك إن خالف الناس أمري لايمر أحد من وفود العرب إلا بينهما، وكان له في السنة يومان معروفان بيوم بؤس ويوم نعيم فكان إذا خرج يوم بؤسه يذبح أول من يلقاه كائناً من كان وإذا خرج في يوم نعيمه يصل أول من يلقاه ويحسن إليه، وبينما هو يسير في يوم بؤسه أشرف له عبيد بن الأبرص فقال لرجل ممن كان معه من هذا الشقي فقال له: هذا عبيد بن الأبرص فأتى به فقال له الرجل: أبيت اللعن اتركه فإن عنده من حسن القريض أفضل مما قدرك في قتله، وهو من رؤساء قومه وأهل النجدة والشأن فيهم فادعه إلى مدحك فإن أجاب فدعه فإن مدحته الصنيعة فإن لم يعجبك قوله كان هنيئاً عليك قتله، قال: فنزل فطعم وشرب وبينه وبين الناس حجاب يراهم منه ولايرونه فدعا بعبيد من وراء الستر فقال له رديفه: ماترى ياأخا أسد قال أرى الحوايا عليها المنايا قال: فعليك بالخروج له حتى يغريك ذلك من الخلاص قال: ثكلتك الثواكل إني لاأعطي باليد ولاأحضر البعيد والموت أحب إلي قال الملك أفقلت شيئاً قال: حال الجريض دون القريض قال له المنذر: أنشدني من قولك "اقفر من أهله ملحوب" قال عبيد من البسيط المجزوء:

أَقْفَــــرَ مِــــــنْ أَهْلِـــــهِ عَبِيْــــدُ   فَلَيْــــــسَ يُبْـــــدِي وَلاَيُعِيْــــــدُ

قال أنشدنا أيضاً قال من المتقارب:

هِيَ الخَمْــــرُ تُكْنَـــى بِــــأُم الطـــلاء   كَمَـا الذِئْـبُ يُكْنَـــى أَبَـــا جَعْـــدَهْ

فقال: قل في مديحاً يسير في العرب قال: أما والصبار فيما عجل فلا: قال نطلقك ونحسن إليك قال: أما وأنا أسير لديك فلا قال: نردك إلى أهلك ونلتزم رفدك. قال: أما على شرط المدح فلا قال المنذر: ياعبيد أي قتلة أحب إليك أن أقتلك قال: أيها الملك روني من الخمر وافصدني وشأنك وشأني وأنشأ يقول من المتقارب[٢٥] :

---

(٢٥) ـ هذه رواية الأغاني عن مقتله المجلد ١٩ ص١٧١ ومابعدها طبع دار الفكر بيروت ١٩٥٦ وقد أخذها عنه من جاء بعده كصاحب جمهرة أشعار العرب ص٢١٩ ومابعدها طبع المكتبة المرتضوية بالنجف ١٣٥٨هـ.

أَوْصِـــي بَنِّـــي وأَعْمـــامَهُمْ بـــأَنَّ الْمَنايَـــا لَهُـــمْ رَاصِـــدَهْ
لَهَـــا مُـــدَّةٌ فَنُفُـــوسُ العِبَـــادِ إِلَيْهَـــا وَإنْ جَهـــدُوا قـــاصِدَهْ
فَـــوَ ا للهِ إنْ عِشْـــتُ ماسَـــرّ نِـــي وَإنْ مِـــت ماكـــانتِ الْعَـــائِدَهْ

قال: فسقاه الخمر ثم قطع له الأكل فلم يزل الدم يسيل حتى نفد وسالت الخمر فمات[٢٦] .

ويقول السير تشارلز لايل في مقدمة ديوان الشاعر: "ونعرف من المؤرخين البيزنطيين والسريانيين أن المنذر قتل في حربه مع الحارث الغساني عام ٥٥٤م وإذاً فهو آخر عام يمكن أن نؤرخ به وفاة عبيد وإن كنا لانستطيع أن نعرف المدة التي انقضت على وفاته قبل ذلك العام[٢٧] .

ويختلف الرواة والإخباريون في تواريخ حكم ملوك الحيرة وأسمائهم ولسنا بحاجة إلى إيراد تلك الاختلافات[٢٨] وعلى أية حال فإن إثبت تلك الروايات على ما نظن هي رواية أبي الفرج التي أوردناها منذ قليل.

ويذكر كارلوفالينو "أن المنذر بن ماء السماء كان قد ولى أبا دؤاد الأيادي على خيله نحو عام ٥٠٦ إلى ٥٥٤م" أي إلى آخر حياته فكان وصافاً للخيل[٢٩] .

ومعنى هذا أن عبيداً وأبا دؤاد ربما اجتمعا فترة في بلاط المنذر ويورد لنا ياقوت في معجمه خبر قتل المنذر بن ماء السماء في معركة عين أباغ وقد كانت بينه وبين الملك الغساني الحارث بن جبلة الذي كان معاصراً للمنذر ولعل الحارث هذا هو من قصده عبيد وهو يتحسر على قتلى بني قومه من رهط سعد بن ثعلبة حيث فتك بهم هذا الملك الغساني يقول عبيد من الطويل[٣٠] :

دِيَـــارُ بَنِـــي سَـعْدِ بْـن ثَعْلَبَـــة الأُلى أَذَاعَ بهـــمْ دَهْرٌعلـــى النـــاس رائِـــبُ

---

[٢٦] ـ انظر مقدمة ديوان عبيد بتحقيق لايل طبع ليدن ١٩١٣.

[٢٧] ـ انظر حمزة الأصفهاني في تاريخ سني الملوك والأنبياء منشورات دار الحياة ببيروت ص٨٦ ومابعدها. وكذلك تاريخ الطبري الجزء الأول ص٤٥ ومابعدها. وكذلك تاريخ اليعقوبي الجزء الأول ص٢٣٥ ومابعدها. وكذلك جواد علي في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ص٣٩ ومابعدها. وابن سلام في طبقات فحول الشعراء ص٢٣ ومابعدها تحقيق محمود محمد شاكر.

[٢٨] ـ انظر تاريخ الآداب العربية لكارلونالينو طبع دار المعارف في مصر ١٩٥٤ ص٦٧ ومابعدها.

[٢٩] ـ انظر معجم البلدان لياقوت مادة "عين أباغ" وانظر ديوان عبيد ص٨ – ٩.

[٣٠] ـ انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص٤٢ طبع دار المعارف وانظر في مرآة الشعر الجاهلي للدكتور فتحي أحمد عامر ص٣٠٥ ومابعدها طبع دار الشروق ١٩٧٦.

فَـأَذْهَبْنُهُمْ مـاأَذْهَبَ النـاسَ قَبْلَهُـمْ ضِراسُ المَنايا والحُـروبِ العواقِـبُ

ويؤيد هذا الرأي من المحدثـين كـل مـن الدكتـور شـوقي ضيـف في كتابـه العصـر الجاهلي والدكتور فتحي أحمد عامر في كتابه "في مرآة الشعر الجاهلي"[٣١]

ومما يؤكد لنا مقتل عبيد بن الأبرص على يد المنذر بن ماء السـماء وهـو صـاحب الغريين قوله في ديوانه لما أيقن أن المنذر لابد قاتله "من الطويل"[٣٢] :

وَخَـيرَّنِي ذُو البُـؤْس في يـوم بُؤْسِـهِ خِصَالاً أَرى في كُلِّهَا المَـوْتُ قَـدْ بَـرَقْ

كَمَـا خُـيِّرَتْ عَـادٌ مِـنَ الدهْـر مَـرّةً سَـحَائِبَ ما فِيْهـُا لِذِيْ خِـبْرَةٍ أَنَـقْ

وهكذا كان مقتل عبيد بن الأبرص على يد المنذر بن ماء السماء في ظروف غامضـة لانعرف حقيقتها وإن كنا نظن أن وراء مقتله أسباباً سياسية بحتة ربمـا تتعلـق بصلـة عبيـد بكل من المناذرة والغساسنة على حد سواء أو بموقف بني أسد من أمراء الحيرة بعد ذهاب سلطانهم أفليس من المرجح والمعقول أن تكون هـذه القبيلـة قـد أبـت الخضـوع للمنـذر؟ وهي القبيلة اللقاح على حد تعبير شاعرنا الذي يقول من الوافر[٣٣] :

أَبَـوْا ديْـنَ المُلُـوكِ فَهُـمْ لَقَـاحٌ إذا نُدِبُـوا لِحَـرْبٍ قَـدْ أَجَـابُوا

فإذا أضفنا إلى ذلك ماكان لعبيد من مكانة في قبيلته وماجاء في رواية قتلـه مـن أن سيداًمن سادات قومه وأهل الرأي والمشورة فيها أظننـا نجـد سـبباً معقـولاً لـدى المنـذر لقتل عبيد الذي قد يحرض عليه بني أسد وأحلافهم والمنذر سياسي محنك كما يبدو من سيرته يعلم جيداًمن هم بنو أسد وما موقفهم بين القبائل المضرية كلها.

وهكذا يقطع عبيد مشوار حياته فارساً عنيداً وبطلاً صنديداً من أبطال القبيلة معليـاًمن شأنها في السيف قبل الكلمة حيناً، وبالشفاعة حيناً آخر وبالوعيد والتهديد حيناً ثالثاً.

---

[٣١] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٨٨ ورويت في الأغاني المجلد ١٩ ص١٧٦ ومابعدها طبع دار الفكر ببيروت.

[٣٢] ـ انظر المرجع السابق ص١.

[٣٣] ـ انظر المصدر السابق ص١.

الفصل الثالث

شخصيته كما تبدو من شعره

إن أول مايلفت نظرنا في شخصية عبيد بن الأبرص أنها شخصية مستقلة متميزة لها كيانها في المجتمع الذي عاشت فيه، شخصية يحترمها لاناس ويقدرها أولو الأمر منهم، وليس أدل على ذلك مما أوردناه من مجالسة عبيد لحجر بن الحارث أمير كندة وماكان له من مقام رفيع عند ملوك الحيرة اللخميين، حتى أن المنذر بن ماء السماء عندما أبصر عبيداً في يوم بؤسه وهو يوم مقتل الشاعر كما تقول الرواية قال: هلا كان الموت لغيرك ياعبيد.

ولعل شفاعته لقومه عند حجر بن الحارث واستجابة حجر لها لهي دليل على ماكان للشاعر من شأن عند أمير كندة، وهي في الوقت نفسه دليل على دبلوماسية بارعة وسياسة رشيدة من الشاعر، وهي بالإضافة إلى ذلك دليل على أن عبيداً لم يكن ليدخر جهداً في سبيل خدمة قضايا القبيلة بل كان يتجشم كل صعب من أجلها.

ولئن كانت الروايات والأخبار لاتسعفنا عن هذه الشخصية بشيء وبخاصة عن مكوناتها الأولى فإن لنا من شعره خير مسعف نتلمس به بعض ملامح هذه الشخصية الشاعرة، والتي عاشت فترتين مختلفتين علىمايبدو فترة الشباب وفترة الشيخوخة، وكما يطالعنا شعره عن هاتين الفترتين فإن هذا الشاعر يبدو لنا في فترة الشباب شاباً لاهياً مقبلاً على الحياة يعيش شبابه بكل حيوية وامتلاء وطيش واندفاع.

ونراه في هذه الفترة من حياته جريئاً قوياً ذائداً عن قبيلته خائضاً غمار المعارك غير هياب من لظى الحرب منازلاً الأبطال.

يقول عبيد والأبيات من البحر الطويل[1]:

---

[1] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص١٠٢-١٠٣

هذَا وَحَـرْبٍ عَـوَانٍ قَدْ سَمَوْتُ لَهَـاْ   حَتـى شَـبَبْتُ لَهَـاْ نَـاْراً بإشْـعَاْلِ

تَحْتِـيْ مُسَـوَّمَـةٌ جَـرْدَاءُ عِجْـلِزَةٌ   كَالْسَـهْمِ أَرْسَـلَهُ مِـنْ كَفـهِ الغَـاْلِي

وَكَبْـش مَلْمُوْمَـةٍ بَـادٍ نَوَاْجِـذُهُ   شَـهباءَ ذَاْتِ سَـرَاْبيْل وَأَبْطَـاْلِ

أَوْجَـرْتُ جُفْرَتَـه خُرْصَـاً فَمَـاْلَ بـِهِ   كَمَاْ انْثَنَـى مُخْضَـدٌ مِنْ نَـاْعِمِ الضَـاْلِ

فهو فارس عتيد يقتحم الحروب بل يسعى إليها لأنه قد أعد لها عدتها من فرس سريعة وسيف حاد بتار، وهو سيد من سادات قومه يشار إليه بالبنان، ومن الطبيعي ألا ينازل إلا مثيله ونظيره من الأسياد الفرسان المعدودين، وليس هذا ببعيد وإن لم يذكر لنا الرواة شيئاً عن مكانة أهله لكننا نرجح كونه من المعدودين في قبيلته رأياً وشجاعة واعتمادنا الأول على هذا الرأي إنما يعود إلى شعر الشاعر ونستطيع أن نقول أيضاً: أن الفروسية في الجاهلية كانت شبه مفروضة على كل رجل قوي شجاع بحكم البيئة وظروف الحياة القبلية حيث لاحق بلا قوة ولا أمن ولا استقرار إلا بحد السيف.

إن صورة عبيد الشاب الفارس المتمدح بخصاله وشجاعته تظهر لنا واضحة في أكثر من موضع في ديوانه مما يجعلنا نرجح أن هذا الشاعر قد عاش فترة شبابه في بيت نعمة وفروسية وجاء يقول من الخفيف[٢] :

وَلَقَدْ أَقْـدُمُ الخَمِيْـسَ عَلـى الجَـرْ   داءِ ذاتِ الجِـــراءِ والتَنَقَـــالِ

وَلَقَـدْ أَقْطَـعُ السباسِـبَ والشُهْـ   ـبِ علــى الصَيْعَريــةِ الشِــمْلال

إنها صورة الفارس المقدام الذي يقطع المفاوز والمهامه دون وجل أو خوف ويجندل الفرسان والأبطال في ساحة الوغى حيث يقول "من البسيط"[٣] :

قَـدْ أَتـرُكُ القَـرْنَ مُصْفَـراً أَنامِلَـهُ   كـأَنّ أثْوابَــهُ مَجّــتْ بفِرْصــادِ

ويجمع الحب بين الفارس البطل وفرسه حتى أنه لايطيق له فراقاً ولابعداً يقول في معرض الحديث عن فرسه من البسيط[٤] :

وَلا يُفـارِقَني ماعِشْـتُ ذو حِقَـبٍ   نَهْـدُ القَذالِ جَـوادٌ غَـيْرُ مِلْـواح

أوْ مُهْـرَةَ مِـنْ عِتَـاق الخَيْلِ سـابحَةَ   كأنَهـا سُـحْقُ بُـرْدٍ بَيْــنَ أَرمـاح

وعبيد لايخرج عن المألوف في حبه لفرسه شأنه في ذلك شأن كل فارس فعليه

---

[٢] ـ انظر المرجع السابق ص١١٠.

[٣] ـ انظر المرجع السابق ص٤٩.

[٤] ـ انظر المرجع السابق ص٣٩.

تتوقف نتيجة المعركة، وعلى سرعته ونبل أصله وقدرته على الصبر قد يتوقف النصر وسنعرض لصورة الفرس عند الشاعر أثناء دراستنا لأبرز الصور الفنية في شعره وكم خاطب الجاهليون خيلهم مظهرين ودهم وتعاطفهم معها على أننا لانعنى هنا بهذه النقطة وإنما أردنا أن نقول أن شخصية شاعرنا تبدو من خلال حبه لفرسه شخصية رقيقة شفافة وأنها لتمثل بحق شخصية الشاعر .

وللفارس أخلاق وخصال عند العرب لابد أن يتحلى بها فهو عفيف النفس كريم السجايا غير مسف في قوله أو فعله، وهو الأمين على العادات والأعراض والتقاليد في غالبي الأحيان وهو كما يذود عن حياض القبيلة فإنه الحامي والمدافع عن الأخلاق أيضاً، ولاحاجة بنا هنا لأن نعدد تلك الأخلاق والخصال والفضائل الأثيرة إلى النفس العربية فهي شبه معروفة لدى كل عربي حتى ليصل بها بعضهم إلىدرجة تقترب من التقديس وفارسنا عبيد بن الأبرص أحد هؤلاء الفرسان المدافعين المحافظين على تلك المثل والأخلاق والقيم يقول من الوافر[٥] :

لَعَمْـرُكَ إنّـني لأَعـف نَفْسـي ... وأَسْـتُرُ بـالتَكَرُّم مِـنْ خَصـاص

وأُكْـرِمُ والـدي وأَصـونُ عِرْضـي ... وأكـرهُ أَنْ أُعَـدّ مِـنَ الحِـراص

إذا مـا كنـتُ لحاّسـاً بخيـلاً ... سَـؤولاً للمُطـاع وذا عِقـاص

لِـزادِ المـرء آبـصُ مِـنْ عُقـابٍ ... وَعِنْدَ البـابِ أَثْقَـلُ مِـنْ رَصَاص

فـإنْ خَفـت لِجُـوع البطـن رجْلـي ... فَـدَقّ ا للهُ رجْلـي بالمَعـاص

وشاعرنا كريم النفس والطبع لايبخل بالمال لعلمه أن المرء غير خالد في هذه الحياة، وهذا يذكرنا بمذهب طرفة في الحياة يقول من البسيط[٦] :

إنـي وَجَـدُّ كَ لـو أَصلَحْـتُ مـابيَدي ... لم يَحْمِدِ الْناسُ بَعْدَ المَوْتِ إصلاحـي

أشْري التِلادَ بحَمْدِ الجـار أَبذِلُـهُ ... حَتـى أَصـيرَ رميمـاً تحـتَ ألـواح

وللشباب حقه عند عبيد بن الأبرص الفارس الماجد، فما من أحد قال أن معنى الفروسية أن يقفل الإنسان قلبه،ويكبت مشاعره وأحاسيسه فلابد لذاك القلب من خفوق ولتلك المشاعر والأحاسيس من ميل نحو امرأة معينة فالعشق غريزة إنسانية فطرية، وشاعرنا

---

[٥] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٧٨ الخصاص. الفقر. القصاص. جمع عقصة وهي الضفيرة من الشعر ولكنها هنا بمعنى البخيل آبص. أنشط معصت رجله معاصاً. أصابه التواء في عصب رجله أو وجع من كثرة المشي.

[٦] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٤٠.

يبدو محباً عاشقاً غير أنه في تعبيره عن ذلك الحب غير مفحش ولامتعهر ولامسف، وذلك بالقياس إلى شاعر كامرئ القيس يقول عبيد معبراً عن حبه "من الطويل"[٧] :

لِسِعْدَةَ إذْ كانتْ تُثيبُ بِوُدِّ ها ... وإذْ هِيَ لاتلقاكَ إلا بأَسْعَدِ

وإذْ هِيَ حَوْراءُ المَدِمعِ طَفْلَةٌ ... كَمِثْلِ مَهَاةٍ حُرَّةٍ أُمِّ فَرْقَدِ

تُراعي بهِ نَبْتَ الخمائِل بالضُحى ... وَتَأْوي بهِ إلى أَراكٍ وَغرْقَدِ

فَقَدْ أَوْرَثَتْ فِيْ القَلْبِ سُقْماً يَعُودُهُ ... عِياداً كَسُمِّ الحيَّةِ المُتَرَد دِ

غَداةَ بَدَتْ مِنْ سَيْرِها وكأَنَّما ... تَحِفُّ ثَناياها بحالِكِ إثْمِدِ

وَتَبْسِمُ عَنْ عَذْبِ اللِثاثِ كَأَنَّهُ ... أَقاحي الرُبى أَضْحى وظَاهِرُهُ نَدي

فَإني إلى سُعْدَى وإنْ طالَ نَأْيُها ... إلى نَيْلِها ماعشْتُ كالحائِمِ الصَدي

وأي حالة من الطرب والحبور تنتاب عبيداًوهو يستمع إلى أحاديث الأحبة ويجالسهم ويسامرهم إنها لفرحة شديدة وربما كانت غاية المنى عند كل محب يقول من الطويل مشيراً إلى ذلك[٨] :

فَأُبْنا ونازَعْنا الحديثَ أوانِساً ... عليهنَّ جَيْشانيةٌ ذاتُ أَغْيالِ

فَمِلْنَ إلينا بالسَوالِفِ وانتحى ... بنَا القَوْلُ فيما يَشْتَهي المَرحُ الخالي

كَأَنَّ صَبَاً جاءَتْ بريح لَطيمَةٍ ... مِنَ الْمِسْكِ لاتُسطاعُ بالثَمَن الغالي

ومن الطبيعي أن يشرب الفارس الخمر في الجاهلية بل هي من لوازم الفروسية وتقاليدها في كثير من الأحيان، والناظر في أشعارهم يلمس هذا بشكل جلي وواضح، وما كان عبيد الفارس المعلم ليشذ عن هذه القاعدة، أو ذاك التقليد وهو المعروف بمدافعته عن قيم ومثل القبيلة بسيفه ولسانه يقول من البسيط[٩] :

وَقَهْوَةٍ كَرُفَاتِ المِسْكِ طَالَ بهَا ... فِي دَنِّهَا كَرُّ حَوْل بَعْدَ أَحْوَال

بَاكَرْتُها قَبْلَ أنْ يَبْدو الصَبَاحُ لَنَا ... فِي بَيْتِ مُنْهَمِر الكَفَّيْن مِفْضَالْ

وربما رأيناه يلوم زوجته ويعاتبها لأنها تطالبه بعدم معاقرتها فيقول من البسيط[١٠] :

---

[٧] ـ انظر المرجع السابق ص٥١.

[٨] ـ انظر المرجع السابق ص١١٤.

[٩] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص١١٣.

[١٠] ـ انظر المرجع السابق ص٣٤.

هَبِتْ تَلُومُ وَلَيْسَتْ سَاعَةَ اللاحِي ... هَلا انْتَظَرْتِ بهذَا اللَّوْم إصْبَاحِي
قَاتَلَهَا اللهُ تَلْحَانِي وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَن لِنَفْسِيَ إفْسَادِي وإصْلاحِي
أَنْ أَشْرَبِ الْخَمْرَ أَوْ أُرْزَأْ لَهَا ثَمَنَاً ... فَلا مَحَالَةَ يَوْمَاً أنني صَاح

ولعل خبر مقتله الذي أوردناه، وطلبه الخمر من المنذر في ساعة كتلك، لدليل على حب عبيد للخمر وتعلقه وشغفه بها، إلا أننا لانجد لها كبير ذكر في ديوانه، وقد يكون السبب في ذلك ضياع أكثر شعره ومما يرجح عندنا هذا الرأي قول عبيد نفسه بعد أن غادره قطار الشباب ورحلت عنه أيام الصبا مخلفة وراءها رأس الشاعر وقد جلله الشيب يقول من الوافر[11] :

فَإنْ يَكُ فَاتَنِي أَسِفَاً شَبَابِيْ ... وَأَمْسَى الرَأْسُ مِني كَاللُّجَيْن
وَكَانَ اللهْوُ حَالَفَنِي زَمَانَاً ... فَأضْحَى الْيَوْم مُنْقَطِعَ القَرِيْن

ويقول في موضع آخر من الطويل[12] :

إذَا ذُقْتُ فَاهَا قُلْتُ طَعْمَ مُدَامَةٍ ... مُشَعْشَعَةٍ تُرْخِي الإزَارَ قَديحُ
بمَاء سَحَابٍ مِنْ أَبَارِيْق فِضَةٍ ... لَهَا ثَمَنٌ في البَائِعِيْنَ ربيحُ

ذاك عبيد بن الأبرص الشاب، كما يبدو لنا من خلال شعره شخصية قوية طموحة لها كينانها واستقلالها، ولاغرو في ذلك فصاحب هذه الشخصية فارس ماجد من فرسان بني أسد، وهو بالإضافة إلى ذلك شاعرهم والمتحدث باسمهم واللاهج بمآسرهم، وهو يتمتع بأخلاق الفارس العالية، ويحافظ على تقاليد الفروسية ويتمثل بها قولاً وفعلاً.

ولعلنا نستطيع أن نلمس مكانته الرفيعة في القبيلة منذ صغره من أنه لاينازل إلا رؤساء وأكباش القوم من أمثاله ونظرائه، وكذلك من تعبيره عن حبه بتلك الصورة العفيفة المحتشمة، مما يجعلنا نظن به علو الهمة وسمو النفس ونبل الخصال.

فشاعرنا نابذ لكل دنية، ومبتعد عن كل رذيلة، وعلى الرغم مما كان يتمتع به من فتوة وشباب فقد سلك طريقاً واضحة في الحياة لايحتاج المرء إلى دلالة على وضوحها ولايخالجه شك في سلامتها فآخرها موت محتم ومصير مؤكد غير معلوم، ومادام الأمر كذلك فليشرب الخمر وليصم أذنيه عن سماع العاذلين.

---

(11) ـ انظر المرجع السابق ص١٣٣.
(12) ـ انظر المرجع السابق ص٢٩ - ٣٠.

أما جانب القوة عند شاعرنا في شبابه فإننا نستطيع الوقوف عليه من خلال مواقفه الجريئة الشجاعة في مقارعة الأبطال والفرسان ومما يوضح ذلك قوله من الطويل[١٣] :

وَقَدْ أَتْـرُكُ القَـرْنَ الكَمِـيَّ بصَـدْرِهِ   مُشَلْشَـلَةٌ فَـوْقَ النِطَـاق نَفُـوْحُ

ومن المرجح عندنا أن عبيداً قد نشأ نشأة الفرسان المحاربين شأنه في ذلك شأن أكثر أبناء القبائل البدوية المحاربة ويبدو أن شعره في الفروسية قد ضاع أغلبه، ولعل ذلك هو السبب الذي حدا بالرواة إلى عدم اعتباره من الشعراء الفرسان كمهلهل ربيعة وعنترة العبسي وغيرهما

وتظهر لنا نزعة عبيد الفردية واضحة في سن الشباب يقول متفاخراً على بني أسد أنفسهم "من الكامل"[١٤] :

وَبَنُـو خُزَيْمَـةَ يَعْلَمُـونَ بأَنَّنَـا   مِـنْ خَـيْرِهِمْ فِـي غِبْطَـةٍ وَبَئِيـس

نَنْكِـي عَـدو هُـمُ وَيَنْصَـحُ جَيْبُنَـا   لَهُـمُ وَلَيْـسَ النُصْـحُ بـالمَدْمُوسِ

والملاحظ هنا أن الشاعر يفتخر برهطه الأقربين من بني سعد ابن ثعلبة دون سواهم مما يرجح معه أن بني أسد هؤلاء قد كانت لهم مواقف مشرفة مع الغساسنة وغيرهم وتأخر بني أسد عن نصرتهم.

وأما الفترة الثانية من حياة عبيد بن الأبرص وهي فترة الشيخوخة فتبدو لنا من خلال شعره فترة استواء ونضج لتلك الشخصية وقد عركتها الأيام وطحنتها الأحداث وغيرتها الأحوال والتصاريف، فالشباب الراحل يثير في القلب أكثر من حسرة، والقوة المعهودة في مقارعة الأبطال عند اللقاء في ساحة الوغى لم يعد إلى إرجاعها من سبيل، واجتماع الشمل من بني أسد حل محله التفرق والتنائي، وليس بدعاً هذا، فتلك شريعة الأيام وسنتها يقول متذكراً تلك الأيام الأثيرة إلى قلبه "من مخبون الكامل"[١٥] :

لِمَـنِ الدِيَـارُ ببُرْقَـةِ الروْحَـان   دَرَسَـتْ وَغيَّرَهـا صُـرُوفُ زَمـانِ

فَوَقَفْـتُ فيهـا نـاقَتِي لِسُـؤَالِهَا   فَصُرِفْـتُ والعَيْنَـان تَبْتَـدِرانِ

سَـجْما كَـأَنّ شُـفافَةً رَجَبِيـةً   سَـبَقَتْ إلي بمائِهَـا العَيْنَـانِ

حسرة وألم على عز قد فات ومجد قد انقضى، يطلقها الشاعر من جوفه ولكن بلا

---

[١٣] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٣٢.

[١٤] ـ انظر المرجع السابق ص٧٠ – ٧١.

[١٥] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص، ص ١٣٠- ١٣١.

جزع أو هلع، فلقد شاهد واعتبر واختبر الزمان وأفعاله ونظر في تقلبات الأيام آخذاً منها الحكمة والعبرة يقول في هذا الشأن من البسيط[١٦] :

وَكُل مُجْتَمَع لابُدّ مُفْتَرِقٌ   وكُلُّ ذِي عُمُر يَوْماً لَيُغْتَبَطُ

شباب مدبر، ومجد ضائع، وموت جماعي لرهط الشاعر وأهله على يد الغساسنة وغيرهم يقول في موضع آخر من الطويل[١٧] :

لِمَنْ طَلَلٌ لَمْ تَعْفُمِنْهُالمَذانِبُ   فَجَنْبَا حِبّرٍ قَدْ تَعَفى فوَاهِبُ

دِيارُ بَنِي سَعْدِ بن ثَعْلَبَةَ الأُلَى   أَذاعَ بهِمْ دَهْرٌ على الناس رائِبُ

فَأَذْهَبْنَهُمْ ما أَذْهَبَ الناسَ قَبْلَهُمْ   ضِراسُ الحُروبِ والمَنايَا العَواقِبُ

أفلا يدعو كل هذا إلى التشاؤم واليأس والنظرة السوداوية للحياة أجل إن النفس الشاعرة الرقيقة الأحساسيس والمشاعر لهي أجدر بالحزن في مثل هذه الظروف القاسية يقول شاعرنا معبراً عن حالته تلك "من الطويل"[١٨] :

تَذَكَّرْتُ أَهْلِي الصالِحيْنَ بمَلْحُوبِ   فَقلْبي عَلَيْهِمْ هَالِكٌ جِدُّ مَغْلُوبِ

تَذَكَّرْتُ أَهْلَ الخَيْرِ والباعِ والنَدى   وأَهْلَعِتَاق الجُرْدِ والبِّر والطيِّبِ

تَذَكَّرتُهُمْ ماإنْ تَجِف مَدامِعي   كَأَنْ جَدْوَلٌ يَسْقِي مَزارِعَ مَحْرُوبِ

والدارس لشخصية عبيد في هذه الفترة يجد أن الصبغة التشاؤمية طاغية عليها لأسباب متعددة ولعل هذه الأبيات "وهي من الطويل" توضح لنا شيئاً عن هذه الصبغة[١٩] :

أَمِنْ مَنْزل عَافٍ وَمِنْ رَسْم أطْلال   بَكَيْتَ وَهَلْ يَبْكِي مِنَالشَوْق أَمْثَالِي

دِيَارُهُمُ إذْ هُمْ جَميعٌ فَأَصْبَحَتْ   بَسَابسَ إلا الوَحْشَ فِي البَلَدِ الخَالِي

أَبَعْدَ بَنِي عَمي وَرَهْطي وَإخْوَتي   أُرَجّي لَيَانَ العَيْش ضُلاّ بتَضْلال

فَلَسْتُ وإنْ أضْحَوا مَضَوا لِسَبيْلِهِمْ   بنَاسِيهِمُ طُولُ الحَيَاةِ ولا سَالِي

ومن الملاحظ في هذه الفترة على شخصية عبيد جنوحها بوجه عام إلى العتاب

---

(١٦) ـ انظر المرجع السابق ص٧٠ – ٧١.
(١٧) ـ انظر المرجع السابق ص٨.
(١٨) ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٢٦.
(١٩) ـ انظر المرجع السابق ص١١٣.

والفخر الجماعي بمآثر القبيلة، وكذلك ميلها إلى الحكمة والاعتبار، وشعره في هذه المرحلة يعبر عن حياته بكل أمانة وينسجم مع تقلبات أحوال الشاعر ويتدرج معها محيطاًبكل دقائقها وملابساتها كما نظن .

فنغمة الفخر التي رأيناها تجنح نحو الفردية في مرحلة الشباب،وتشير إلى جلائل الأعمال التي قام بها الشاعر من فروسية، وقيادة لزحوف بني أسد في ساحات الوغى، ومقارعة للأبطال الكماة نرى نغمة الفخر تلك قد تغيرت نبرتها، واعتراها شيء من التبدل، فأمست متحدثة بلسان الجماعة واختفى صوت الفرد منها تماماً ولعل هذه الظاهرة طبيعية عند أكثر شعراء الجاهليين البداة، فهم ملتزمون بقبائلهم وبقضاياها، منافحون عنها، معددون مآثرها ومكروماتها، مهتمون بشؤونها أيما اهتمام، لشعورهم بأنها أي القبيلة الملاذ والملجأ الذي يتحقق بواسطته الأمن، وتتوفر لديه الطمأنينة التي ينشدونها.

ولئن أقعدت السن شاعرنا فلم يعد قادراًعلى امتشاق سيفه وهز رمحه وامتطاء جواده وهو الفارس المشهور له بالشجاعة والجرأة والإقدام الذائد عن حياض بني أسد المدافع عنهم المعدد لانتصاراتهم فما أحراه أن يدافع بالكلمة، وأن يستثير الحمية في النفوس، ويتوعد الأعداء المتربصين ببني أسد مذكراًإياهم بالماضي المجيد يقول مخاطباً امرؤ القيس بن حجر ومعدداً انتصارات قبيلته "من الطويل"[٢٠] :

وَنَحْنُ قَتَلْنَا الأَجْدَلَيْنِ وَمَالِكَا ... أَعَزَّ هُمَا فَقْداً عَلَيْكَ وَهَالِكَا

وَيَوْمَ الرِّبَابِ قَدْ قَتَلْنَا هُمَامَهَا ... وَحُجْراً وَعَمْراً قَدْ قَتَلْنَا كَذَلِكَا

وَنَحْنُ صَبَحْنَا عَامِراً يَوْمَ أَقْبَلُوا ... سُيُوفاً عَلَيْهِنَ النِجَارُ بَوَاتِكَا

وَنَحْنُ قَتَلْنَا مُرَّةَ الخَيْرِ مِنْكُمُ ... وَقُرْصَاً قَتَلْنَا كَانَ مِمَّنْ أَولَئِكَا

ومن الملاحظ هنا أن الشاعر قد استخدم الضمير "نحن" الدال على الجماعة وأنكر ذاته أمام القبيلة، وهذه ظاهرة تتكرر في شعرٍ عبيد بشكل ملفت للنظروبخاصة في هذه الفترة من حياته يقول في موضع آخر مفتخراً ومعلياًمن شأن بني أسد "من الخفيف"[٢١] :

---

[٢٠] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٩٢-٩٣ الرباب. جماعة أحياء وهي تيم وعدي وعوف وثور أبناء عبد مناه.وعمرو من أبناء امرئ القيس وأما قرص فلا نعرف عنه شيئاً, ويرجح الدكتور حسين نصار أنه ملك غساني, ولانعلم شيئاً عن جندل ومرة الخير وإن كنا نرجح أنهما من أجداد امرئ القيش.

[٢١] ـ انظر المرجع السابق ص٢٣.

إننَّــــا إنَّمـــا خُلِقْنَـــاْ رؤوسَـــاً   مَـنْ يُسـو ي الـرُؤُوسَ بالأذْنَــابِ
لانَقِــي بالأحْسَــابِ مـــالاً وَلَكِــنْ   نَجْعَــلُ المَــالَ جُنَّــةَ الأحْسَــابِ

والأمثلة على الفخر الجماعي في شعر عبيـد أكثر مـن أن تحصـى في هـذه الفـترة، ولاتكاد تخلو له قصيدة منه[٢٢]

وعبيد كما يبدو من شعره في هذه الفترة رجل رزيـن متعقـل نـاظر بعـين الحسـرة والألم والحنين والتلهف إلى فترة الشباب الضائعة التي يعدها من أجمل مراحل العمر، مما يحملنا على الظن أن هذا الشاعر قد عاش شبابه في دعة ونعمة، ومـن المرجـح أيضـاً أن أسباب الراحة قد توفرت لهذا الشاعر.

قد عاش شبابه في دعة ونعمة، ومن المرجح أيضـاً أن أسـباب الراحـة قـد توافـرت لهذاالشاعر من غنى في المال وشهرة وذيـوع صيـت ونبـل محتـد، ورفيـع مكانـة، لكـن الرواة لم يحفظوا لنا الشيء الكثير من شعره في تلك الفترة المتقدمة من حياته، ولذا فقـد غلبت الحكمة ومشاعر الزهد على هذه الشخصية، ونحن لانرى ذلـك غريبـاًمن شـاعر كعبيـد بـن الأبـرص، وهـو الـذي عـرف المنـاذرة والغساسـنة وتعـرف إلى ديانـاتهم حضاراتهم، وعلى الأغلب أنه قد تأثر بها إلى حد ما، وإذا ماتتبعنا تطور فكـره الديـني الوثني فيما بين شبابه وشيخوخته، وجدنا اختلافاً بيناً فيه، فعبيد يدين بالوثنية شـأنه في ذلك شأن أغلب قبائل العرب وربما رأيناه يشـير أكـثر مـن مـرة في ديوانـه إلى معتقـده الوثني صراحة، يقول من الكامل[٢٣] :

أُنْبِئْـتُ أَن بَنِــي جُدَيْلَــةَ أوْعَبْــوا   نُضَـرَاءَ مِـنْ سَـلْمَى لَنَــا وَتَكَتَبُــوا
وَلَقَـدْ جَـرَى لَهُــمُ فَلَــمْ يَتَعَيفُــوا   تَيْــسٌ قَعِيــدٌ كالوَلِيَّــةِ أعْضَــبُ
وَأبُـو الفِراخِ عَلَـى خَشَـاش هَشِـيْمَةٍ   مُتَنَكِّبــاً إبْـطَ الشَـمَائِل يَنْعَــبُ
وَتَبَدَّلُــوا اليَعْبُــوبَ بَعْــدَ إلَهِهِــمْ   صَنَمــاً فَقَــرّوا يــاجَدِيلَ وَأعْذُبُــوا

حيـاة دينيـة قوامهـا الأوثـان والأصنـام، والتطير والتشـاؤم مـن بعـض الحيوانـات كالتيس الأعضبِ والغـراب والأفعـى، ويمكننـا أن نلمـس بعـض الطقـوس الدينيـة الـتي كانت سائدة في ذلك الوقت يقول من الكامل[٢٤] :

---

[٢٢] ـ انظر المرجع السابق،القصائد ذات الارقام ٥٢ـ٥٠ـ٤٣ـ٣٩ـ٣٢ـ١٦.
[٢٣] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٤-٦.
[٢٤] ـ انظر المرجع السابق ص٥.

وَإذَا أَخُـوكَ تَركْتَـهُ وَأخَـا امْـرِئٍ أَوْدَى أَخُـوكَ وكُنْـتَ أَنْـتَ تَتَبَّـبُ
فَلْتَعْـزفِ القَيْنَـاتُ فَـوْقَ رُؤوسِـهِمْ وَشَـرَابَهُمْ ذُو فَضْلَـةٍ وَمُحَنَّـبُ

فالقينات تنوح على الأموات، وتأكل الشواء الناضج، وتشرب فضلة الشراب، وذلك حين يموت أحد أفراد القبيلة، وقد يتطيرون بريش الحمام المنثور قرب غدران الماء يقول "من البسيط المخلع"[٢٥] :

وَرُب مَـاءٍ وَرَدْتُ آجـن سَـبيلُهُ خَائِفٌ جَدِيـبُ
ريـشُ الحَمَـامِ عَلَـى أَرْجَائِـهِ لِلْقَلْـبِ مِـنْ خَوْفِـهِ وَجيْـبُ

وكانوا يعتقدون بصياح هامات الموتى مطالبة بالثأر لقتلاهم، يقول من الطويل[٢٦] :

وَخَرْق تَصيحُ الهامُ فيـهِ مَعَ الصَدَى مَخُوفٍ إذَا ما جَنَّـةُ اللّيْـلُ مَرْهُـوبِ

وربما اعتقدوا أن الأرواح بعد الموت تنقلب بوماً يقول "من البسيط"[٢٧] :

أَوْصِـرْتُ ذَا بُومَـةٍ فِي رَأْس رابيَـةٍ أَوْ فِي قَـرارٍ مِـنَ الأَرْضـينَ قِـرْواح

تلك ديانة عبيد بن الأبرص وديانة قبيلته، ولكننا نفاجأ في بقية قصائده المثبتة في الديوان وهي تشكل الأغلبية الساحقة من شعره، أن هذا الشاعر يكاد يكون مؤمناً حقاً بعد ذلك الإيغال في الوثنية حتى أن الدكتور شوقي ضيف يقول: "أنهم كانوا قريبي عهد بمذهب الطوطمية"[٢٨]

ويحدثنا اليعقوبي عن تلبية بني أسد الخاصة أثناء حجها إلى البيت العتيق في مكة فيقول: "وكان لكل قبيلة منهم تلبية خاصة ترددها إذا ماحجت البيت في مكة، وتلبية بني أسد "لبك اللهم لبك يارب يارب أقبلت بنو أسد أهل التواني والوفاء والجلد إليك"[٢٩] .

أفبعد الوثنية المعركة تلك يهتدي شاعرنا إلى مايشبه الإيمان؟ ويذكر الله والقدر والحساب والبعث؟ ولكن لملا؟ ألم تتح له أسفاره وتنقلاته في عرض وطول شبه جزيرة العرب وماجاورها من بيئات نصرانية ويهودية وغيرها أن يتعرف إلى أديان القوم وأن

---

(٢٥) ـ انظر المرجع السابق ص١٦.
(٢٦) ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٢٦ والهام والصدى. طائر صغير يغشى المقابر ليلاً. وقيل أنه ذكر البوم.
(٢٧) ـ انظر المرجع السابق ص٤١.
(٢٨) ـ انظر تاريخ الأدب العربي "العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص٨٩.
(٢٩) ـ انظر تاريخ اليعقوبي الجزء الأول ص٢١١-٢١٣.

يلم بشيء عن تاريخهم مما زاد في ثقافة شاعرنا التاريخية ومعرفته لأخبار القدماء مثل عاد وثمود يقول "من الطويل"[٣٠] :

وَخَيَّرَنِي ذُو البُؤْس فِي يَوْم بُؤْسِهِ   خِصالاً أَرَى فِي كُلِّها المَوْتُ قَدْ بَرَقْ

كَمَا خُيِّرَتْ عادٌ مِنَ الدهْر مَرةً   سَحَائِبَ مافِيْهَا لذِي خِيْرَةٍ أَنَقْ

وبالنظر إلى ماكان باقياً من العرب على ملة إبراهيم وهم قلة يمكننا القول أن عبيداً بن الأبرص في تكوينه الديني كان خليطاً من كل ماسبق، فقد تأثر بالمعتقدات التي كانت سائدة في شبة جزيرة العرب وماجاورها من نصرانية ويهودية، لكن ذلك التأثير لم يكن على مايبدو من القوة في شعره وهو شاب، وربما لم يكن ليستوعب هذه الأفكار وهو في مرحل الشباب، ومع تقدم السن بعبيد، ونضج تجربته الحياتية وكثرة أسفاره في أرجاء الجزيرة العربية بدأت علائم ذلك التأثير في الظهور بشكل ملفت للنظر.

ولسنا نعني هنا إن كان عبيد بن الأبرص من الحنفاء أو القدريين فذلك حديث يبعدنا عن نطاق بحث شخصيته التي نحن بصدد دراستها ويكفي أن نشير إلى قول ابن حبيب في المحبر الذي يعد عبيداً من الحنفاء الذين كانوا قلة متفرقة في أرجاء شبه الجزيرة وكانوا على بقية من دين إبراهيم[٣١] .

والحق أننا نرى الشاعر في هذه المرحلة المتأخرة من حياته يعبر في شعره عن وعي ديني متقدم، ويستشف من ذلك أن الوعي الديني بعامة قد أخذ ينمو فيما بين القبائل العربية، مما يعد إرهاصاً أولياً لظهور دعوة جديدة يقول من مخلع البسيط[٣٢] :

بـا للهِ يُدْرَكُ كُلُ خَيْر   والقَوْلُ فِي بَعْضِهِ تَلْغِيبُ

وا للهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ   عَلاّ مُ مَا أَخْفَتِ القُلُوبُ

مَنْ يَسْأَل الناسَ يَحْرُمُوهُ   وسَائِلُ ا للهِ لايَخِيبُ

ونلاحظ ميله إلى ذكر أفكار التوحيد والغيب، واحترام الوالدين والعفو وغض

---

[٣٠] ـ انظر المرجع السابق ص٨٨. برق:لمع. يريد أن الموت ظهر فيها جميعاً. الأنق. الإعجاب والفرح والسرور.

[٣١] ـ انظر المحبر لابن حبيب ص٢٣٧-٢٣٨ وانظر رأي الدكتور محمد محمد حسين في " الهجاء والهجاؤون في الجاهلية" حول وجود هذه الملة في الجاهلية وتعظيمهم لتعاليمها كالصدق والعفة والحلم ص١٠١.

[٣٢] ـ انظر ديوان عبيد ص١٤-١٥.

الطرف عن المنكرات يقول من البسيط[٣٣] :

حَلَفْتُ بـالله إن ا اللهَ ذُو نِعَـم   لِمَـنْ يَشَـاءُ وذُو عَفْـو وَتَصْفَـاح
مـا الطّرْفُ مِني إلى مالَسْتُ أمْلِكُـهُ   مِمـا بَـدا لي ببـاغِي اللَّحْـظِ طَمّـاح
وَلا أُجَـالِسُ صُبّاحاًأُحادِثُـهُ   حَدِيـث لَغْـوٍ فَمَـا جَـدّي بصُبّـاحِ

ويقـول في موضـع آخـر ذاكـراً مكانـة الوالديـن وحاضـاً علـى احترامهمـا "مـن الوافر"[٣٤] :

وَأُكْـرِمُ والـديَ وأصُـونُ عِرْضِـي   وَأَكْـرَهُ أنْ أُعَـدَّ مِـنَ الحِـرَاص

ونرى الشاعر يذكر الموت والبعث، والحساب أيضاً يقول "من الطويل"[٣٥] :

وَلِلْمَـرْءِ أَيـامٌ تُعَـدُّ وَقَـدْ رَعَـتْ   جِبَـالُ المَنَايـا لِلْفَتَـى كُـل مَرْصَـدِ
مَنِيتُـهُ تَجْـري لِوَقْـتٍ وَقَصْـرُهُ   مُلاقَاتُهـا يَوْمـاً عَلَـى غَـيْر مَوْعِـدِ
فَإنّـا وَمَـنْ قَـدْ بَـادَ مِنّـا لَكّـا الـذِي   يَـرُوحُ وَكَالْقَـاضِي البَتَـاتِ لِيَفْتَـدِي

ويقول في موضع آخر حول هذا المعنى نفسه "من البسيط"[٣٦] :

إنّ أَمـامَكَ يَوْمـاً أَنْـتَ مُدْرِكُـهُ   لا حَـاضِرٌ مُفْلِـتٌ مِنْـهُ وَلابَـادِي
الخَـيْرُ يَبْقَـى وَلَـوْ طَالَ الزَمَـانُ بِـهِ   والشَـرُّ أَخْبَـثُ مـا أوْعَيْـتَ مِـنْ زَادِ

ووجود مثل هذه الأفكار الدينية في شعر عبيد بما تضمنته من حكم وعبرة وزهد يدعونا إلى القول بأن هذه الأفكار حول الألوهية والحياة الآخرة، قد كان لها أثر بالغ في تحول شخصية الشاعر من شخصية مسرفة في الوثنية متصفة بصفات محددة وهي صفات البدو الجاهليين بما فيهم من خشونة وغلظة وإيمان بمنهج القوة كأسلوب وحيد للحياة إلى شخصية مسالمة متأمل متفكرة تحاول النفاذ إلى حقيقة مايحيط بها من ظواهر.

وهي في سبيل ذلك تستقرئ تواريخ الأمم الغابرة، وتؤمن بأن القوة هي الحق، وحول هذا المعنى يقول الدكتور محمد محمد حسين في كتابه الهجاء والهجاؤون في الجاهلية

---

[٣٣] ـ المرجع السابق ص٣٨.
[٣٤] ـ المرجع السابق ص٣٨.
[٣٥] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٥٧.
[٣٦] ـ انظر المرجع السابق ص٤٩.

"والقارئ لشعرهم وآثارهم يستطيع أن يرى بوضوح أن القوة في كل صورها هي المثل الأعلى الوحيد الذي آمنوا به وحرصوا عليه، فكل مانالته يد القوي فهو حق له الفضيلة عندهم هي الرجولة،والخطوب للقوى صفوة الحياة ومتاعها وللضعيف الفضل والعفو فالضعف في كل مظاهره هو الجريرة الوحيدة التي يعير بها الرجل، و لم يكن للخيرين الوادعين مكان[٣٧] .

وهكذا فإن شاعرنا كان منسجماًمع بيئته تلك، ومجتمعه القبلي المسرف في البداوة، وقد رأيناه وثنياً مغرقاً لشطر طويل من حياته وهانحن نراه يختلف عنهم اختلافاً بيناً عندما فارقه نزق الشباب وزخمته فاستوت شخصيته، ونضجت أفكاره، وتعاظمت تجاربه وبخاصة بعد اتصاله بكل من المناذرة والغساسنة واحتكاكه بهم وبلغ القمة من الشهرة والمجد حتى قربه الملوك والأمراء منهم، وخصوه بمجالسهم كما رأينا ذلك عند حجر بن الحارث والمنذر اللخمي، فلاعجب بعد هذا أن تجري الكلمة على لسان عبيد وهي مشوبة بمشاعر الزهد، والسلام، والدعوة إلى فعل الخير وإلى الوحدانية بعد أن كانت دعوة إلى الفتك والبطش، والأصنام وعبادتها، والتهالك على اللذات وانتهابها يقول "من الطويل"[٣٨] :

إذَا كُنْتَ لَمْ تَعْبَأْ بِرَأْيِ وَلَمْ تُطِعْ	إلى اللّب أَوْ تَرْعى إلى قَوْل مُرْشِدِ
وَلاتَت قي ذَم العَشِيرَةِ كُلُها	وَتَدْفَعُ عَنْها باللّسان وباليَدِ
فَلَسْتَ وإنْ عَلَّلْتَ نَفْسَكَ بالمُنى	بِذِي سُؤْدُدٍ بادٍ وَلاكَرْبَ سَيدِ
وَإنّي لَذُو رَأْي يُعُاشُ بفَضْلِهِ	وَمَاأَنا مِنْ عِلْمِالأُمُور ِبمُبْتَدي
إذَا أَنْتَ حَمّلْتَ الخَؤُونَ أَمانَةً	فَإنكَ قَدْ أَسْنَدتَها شَرَّ مُسْنَدِ
تَزَو دْ مِنَ الد نْيَا مَتاعاً فَإنهُ	عَلَى كُل حَال خَيْرُ زادِ المُزَو دِ
وَلِلمَرْءِ أَيامُ تُعَدُّ وَقَدْ رَعَتْ	حِبَالُ المَنَايَا لِلْفَتَى كُلَّ مَرْصَدِ
فَمَنْ لَمْ يَمُتْ في اليَوْم لا بُدَّ أَنّهُ	سَيَعْلَقُهُ حَبْلُ المَنِيّةِ مِنْ غَدِ
فَقُلْ للذي يَبْقَى خِلافَ الذي مَضَى	تَهَيّأْ لأُخْرَى مِثْلِها فَكَأنْ قَدِ
فَإنا وَمَنْ قَدْ بَادَ مِنّا لَكالذي	يَرُوحُ وَكالقاضِي البَتَاتَ لِيَفْتَدِيْ

[٣٧] ـ انظر الهجاء والهجاؤون للدكتور محمد محمد حسين طبع دار النهضة العربية عام ١٩٧٠ ـ بيروت ص٧٦.

[٣٨] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٥٥ ـ ٥٧.

إننا لنشعر ونحن نقرأ هذا الشعر لعبيد كأنه قد أدرك الحقيقـة ونفـذ إلى اللب مـن خلال تجاربه الشخصية وسعة اطلاعه على تاريخ وأخبار الأمم الماضية، تلـك شـخصية بن الأبرص كما تلوح لنا مـن خـلال شـعره وقـد سـرنا مـع هـذه الشـخصية في جميـع أطوارها من شباب إلى كهولة إلى شيخوخة، ولعلنـا قـد اسـتطعنا الكشـف عـن بعـض جوانب هذه الشخصية آملين الكشف عن المزيد من معالمها في أثناء دراستنا لشعر هـذا الشاعر.

الفصل الرابع

هو وشعراء عصره

قيمته الشعرية

يوضع عبيد بن الأبرص في مرتبة عالية بين الشعراء القدامى فابن سلام الجمحي يضعه في الطبقة الرابعة من الفحول الجاهليين، ويقرنه بعلقمة الفحل وطرفة بن العبد،وعدي بن زيد العبادي، يقول بن سلام: "الطبقة الرابعة وهم أربعة رهط فحول شعراء وموضعهم من الأوائل وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة، طرفة بن العبد وعبيد وعلقمة وعدي بن زيد، ويضيف ابن سلام قائلاً عن عبيد: وعبيد شاعر عظيم الشهرة قديم الذكر، شعره مضطرب ذاهب، ولاأعرف له إلا قوله في كلمته أقفر من أهله ملحوب[1] ، ولاأدري مابعد ذلك

ويذهب ابن قتيبة إلى هذا فيقول: وعبيد بن الأبرص شاعر جاهلي قديم، وهو من المعمرين، ويعد قصيدته الأولى من القصائد السبع[2]

ونجد الآمدي يصف عبيداً بالشهرة كذلك[3] ويقول ابن قتيبة في موضع آخر عن عبيد أنه اشتهر بالوصف، وبخاصة الأمطار والعواصف، ويروي خبراً يسنده إلى يونس

---

[1] ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي البصري ص٤٩-٥٠ مطبعة السعادة بمصر نشر خالد عجان الكتبي بحلب. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٤١ ومابعدها.

[2] ـ انظر اشعر والشعراء لابن قتيبة الجزء الأول ص٢٧٣ تحقيق أحمد محمد شاكر طبع دار المعارف بمصر، وانظر تاريخ العصر الجاهلي لمحمد هاشم عطية طبع الحلبي عام ١٩٣٦.

[3] ـ انظر المئتلف والمختلف للأمدي تحقيق عبد الستار فراج دار الحلبي، ١٩٦١ ص٢٢٧.

عن ذي الرمة منٍ أن عبيداًكان في هذا الشأن أفضل من كثير من الشعراء، وتضيف الرواية: أن عبيدامع أوس بن حجر يعدان سادة هذا الوصف(٤) .

ويشير الفرزدق إلى عبيد في إحدى نقائضه فيقول(٥) :

وَهَبَ القَصَائِدَ لِيَ النوَابغُ إذْ مَضَوْا ... وَأَبُو اليَزيدِ وَذُو القُرُوح وَجَرْوَلُ

والفَحْلُ عَلْقَمَةُ الذي كَأنَتْ لَهُ ... حُلَلُ المُلُوكِ كَلامُهُ لايُنْحَلُ

وأَخُو بَني أَسَدٍ عَبَيْدٌ إذْ مَضَى ... وَأبُو دُؤَادٍ قَوْلُهُ يُتَنحَّلُ

ويذكر صاحب الأغاني خبراً عن أبي عمرو الشيباني جاء فيه قوله عن عبيد: وهو شاعر فحل فصيح من شعراء الجاهلية، ويورد قصة قتله على يد المنذر بن ماء السماء(٦) .

ونستدل من هذه القصة علىمكانة عبيد عند المنذر بن ماء السماء فقول الأخير لعبيد عندما وقعت عليه عيناه في يوم بؤسه هلا كان الذبح لغيرك ياعبيد؟ يدل دلالة واضحة على مكانة الشاعر في نفس المنذر، وإذا كان الحال كذلك مع ملك الحيرة فمابالك بمكانة عبيد عند غيره؟

إنه ليبدو لنا من خلال الرواية التي أوردها صاحب الأغاني أن عبيداًكان يتردد على بلاط المناذرة في الحيرة، وأنه كان يحظى بمكانة عالية ورفيعة عندهم، كذلك يخيل إلينا أن حجر بن الحارث آخر ملوك كندة كان مما يقرب الشاعر في مجلسه، ولعله كان ينادمه، ويكن له شيئاًمن التقدير والاحترام، ودليلنا على ذلك قبول حجر لشفاعة عبيد في قومه بني أسد عندما صيرهم حجر إلى تهامة، وأباح أموالهم، ولكنه ما أن سمع مقالة عبيد حتى عفا عنهم وأطلق أسراهم(٧)

يقول عبيد مخاطباًحجر بن الحارث، ومتشفعاً لقومه "من الكامل"(٨) :

يَاعَيْنُ فَابْكي مَابَنِي أَسَدٍ فَهُمْ أَهْلُ النّدامَةْ

فِي كُلِّ وادٍ بَيْنَ يَثْـ .... ربَ فَالقُصُور إلى اليَمامَةْ

بَرِمَتْ بَنُو أَسَدٍ كَمَا ... بَرِمَتْ ببَيْضَتِها الحَمَامَةْ

---

(٤) ـ انظر المؤتلف والمختلف للآمدي تحقيق عبد الستار فراج ص٢٢٧ طبع الحلبي عام ١٩٦١

(٥) ـ انظر النقائض ص٢٠٠ طبع ليدن لأبي عبيد معمر بن المثنى.

(٦) ـ انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني المجلد ١٩ ص١٧١ ومابعدها طبع دار الفكر ببيروت.

(٧) ـ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة الجزء الأول ص١٠٥ تحقيق أحمد محمد شاكر طبع دار المعارف بمصر.

(٨) ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص١٢٥ -١٢٦.

إمّـــا تركْـــتَ تركْـــتَ عفْـــ .... واً أَوْ قَتَلْـــتَ فَلَـــا مَلامَـــةْ
أَنْـــتَ المَلِيـــكُ عَلَـــيْهِمُ وهُـــمُ العَبيـــدُ إلى القِيامَـــةْ

ونستطيع الآن بعد أن استعرضنا آراء القدماء حول مكانة عبيد أن نتلمس الصورة التي رسمت لهذا الشاعر الفحل بشيء من الوضوح والجلاء، ولاشك في أنه كان ذا شهرة واسعة، وصيت ذائع بين معاصريه، ولو نظرنا إلى حكم ابن سلام عليه من أنه لايعرف له إلا قوله "أكفر من أهله ملحوب" لوجدناه يغمط حق هذا الشاعر الكبير من الشهرة، ولاندري لذلك سبباً وكما نعلم فإن ابن سلام توفي في سنة ٣٣١ هجرية ونحن نرى أن رواية ابن عمرو الشيباني تتكرر في الديوان أكثر من تسع مرات مما يدل على أنه عرف تلك القصائد لعبيد، فكيف لم يسمع بها ابن سلام على الرغم من أن وفاة أبي عمرو الشيباني كانت قبل وفاة ابن سلام حيث يقول تشارلز ليل أن وفاته أي أبي عمرو الشيباني كانت بين عامي خمسة ومئتين وثلاث عشرة ومئتين هجرية (٢٠٥ - ٢١٣هـ)[٩] .

ونحن نرجح أن ابن سلام إنما يقصد بقوله ذلك أن هذه القصيدة قد فاقت شعر عبيد من حيث الجودة والقوة، أو لعله اختارها لصبغتها الدينية فهو لايعرف لعبيد أجود منها، ويقول ابن قتيبة كما رأينا أن القصيدة الأولى لعبيد تعد من السبعة، أو من المعلقات، ويخلع عليه الآمدي ثوب الشهرة أيضاً كما مر معنا ويذكره الفرزدق في النقائض قائلاًعنه: بأنه من النوابغ الماضين كما رأينا .

وعلى أية حال فإن هؤلاء الشعراء والنقاد قد أجمعوا على شهرة عبيد الواسعة، وباعه الطويل في الشعر، وحول هذا يقول السير تشارلز ليل "أن القدماء ربما قدروا شعر عبيد لصبغته التعليمية والأخلاقية، وأن هذا السبب هو الذي حدا بابن سلام إلى أن يقرن عبيد بعدي بن زيد الذي يختلف شعره من جميع الوجوه عن شعر عبيد اختلافاً كبيراً[١٠] .

وقد اختلف القدماء في تحديد مكانة قصيدته "أقفر من أهله ملحوب" حيث يقول ابن قتيبة في ترجمته لعبيد: "وأجود شعره قصيدته التي يقول فيها أقفر من أهله ملحوب، وهي إحدى السبع"[١١] .

---

[٩] ـ انظر مقدمة ديوان عبيد تحقيق لايل طبع ليدن ١٩١٣.
[١٠] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق لايل طبع ليدن ١٩١٣ المقدمة.
[١١] ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي ص٣ تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة حلب ١٩٦٩.

ولم يذكر أنها منها غيره، وإنما ألحقها التبريزي بها، فذكرها آخر القصائد العشر التي شرح[١٢] .

وهناك من يجعل مكانة عبيد ومرتبته مع مرتبة امرئ القيس وزهير، فهذا صاحب خزانة الأدب يسوق لنا رواية عن معاذ الهراء مفادها: أنه سئل عن أشعر العرب فقال من الجاهليين امرؤ القيس وزهير وعبيد بن الأبرص[١٣]

وهذا هو الحطيئة يشهد بمكانة عبيد وبمنزلته العالية حين أتى مجلس سعيد بن العاص وهو بالمدينة فقال له: ماأصبتم من جيدي الشعر؟ قال: الذي يقول:

لاأَعُدُّ الإقْتَارَ عُدْمًا وَلكِنْ   فَقْدُمَنْ رُزِئْتَهُ الإعْدَامُ

يعني أبا دؤاد الأيادي قال: ثم من؟ قال الذي يقول[١٤] :

أَفْلِحْ بمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالـ   ـضعْفِ وَقَدْ يُخْدَعُ الأريبُ

وهذا المستشرق غوستاف فون غر ناوم يتحدث عن عبيد في كتابه "دراسات في الأدب العربي"فيقول: "إن عبيد بن الأبرص يمثل قمة من مدارس الشعر الجاهلي[١٥] وسوف نرى في أثناء دراستنا النقدية لشعره أن غرنباوم لم يبتعد عن الصواب حين قرر ذلك، ومن جيد شعر عبيد مااختاره له أبو تمام في الحماسة الصغرى "الوحشيات" وهذه الأبيات لم أقع عليها في الديوان المحقق للشاعر "من السريع" وهي في رثاء فطرة الطائي:[١٦]

نِعْمَ المُجِيرُ وَخَيْرُ أُسْرَتِهِ   للضَّيْفِ يَعْشُو نَارَهُ قَطَرَهْ

فَلَقَدْ يَهيبُ بقَلْبِ ذِي شَرَرٍ   ذَاكَ فَلا تَتَعَرَّضَنْ شَرَرَهْ

والجَارَ يَحْبُوهُ بجَفْنَتِهِ   ولايَذُمُّ رَفيقُهُ خَبَرَهْ

فَأَصَابَهُ حَيْنٌ فَأَدْرَكَهُ   فَلَنِعْمَ مَقْبُوراً وَمَنْ قَبَرَهْ

والخَيْرُ لايأْتِي عَلَى عَجَلٍ   والشَّرُ يَسْبِقُ سَيْلُهُ مَطَرَهْ

وهذه الأبيات كما نراها تنسجم مع ،ضمون شعر عبيد،، وهي قريبة من أسلوبه

---

[١٢] ـ انظر الشعر والشعراء ص٣٣٦ تحقيق أحمد محمد شاكر طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٦.

[١٣] ـ انظر خزانة الأدب للبغدادي الجزء الأول ص١١٤ طبع الهيئة العامة للكتاب.

[١٤] ـ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة الجزء الأول ص٢٢٦ تحقيق أحمد محمد شاكر طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٦.

[١٥] ـ انظر دراسات في الأدب العربي ص١٤٠ لغوستاف فون جرن باوم ترجمة الدكتور إحسان عباس نشر مكتبة الحياة ببيروت.

[١٦] ـ انظر الوحشيات لأبي تمام ص١٣٦ تحقيق عبد العزيز الميمني الطبعة الثانية دار المعارف بمصر.

الشعري، ولذا نرجح أن تكون نسبتها إليه صحيحة، ومما يؤسف له أن حديث القدماء عن شعر شاعرنا كان موجزاً مقتضباً، فقد انعكس هذا على المحثين من معاصرينا، فجاء حديثهم موجزاً كذلك[١٧]

والواقع أن القدماء لم يتناولوا شعر عبيد بالدراسة كما درسوا شعر غيره من أقرانه ونظرائه، ولعل السبب في هذا يرجع إلى عدم وصول شعره إليهم، وضياعه من جهة، أو لغرابة بعض الألفاظ التي وردت في شعره إذا أخذنا بعين الاعتبار أن عبيداً يعد من أوائل الشعراء الجاهليين الذين وصلت إلينا أشعارهم بالإضافة إلى كثرة الزحافات والعلل، واضطراب الوزن عند هذا الشاعر، ووعورة لغته أحياناًمن جهة ثانية.

والناظر في ديوان شاعرنا يجده يحفل بكثير من المقطوعات الشعرية التي لاتتعدى الأبيات المعدودة، وأحياناً تقصر علىبيت واحد مما يدل علي أنها كانت قصائد طويلة امتدت إليها يد الضياع ويقطع ابن سلام الشك باليقين قائلا حول هذه المسألة: "ومما يدل على سقوط الشعر قلة مابقي بأيد الرواة المصححين لطرفة وعبيد اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم تكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان مايروى لهما من الغثاء فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة، ونرى أن غيرهما قد سقطا من كلامه كثير، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر، وكان أقدم الفحول فلعل ذلك لذاك، فلما قل كلامهما حمل عليهما حملاً كثيراً[١٨] .

---

[١٧] ـ انظر من قيثارة الشعر العربي للدكتور فتحي محمد أبو عيسى ص٣٩ ومابعدها طبع دار المعارف عام ١٩٨٠ وانظر في مرآة الشعر الجاهلي للدكتور أحمد عامر ص٣٠٥ ومابعدها طبع دار المعارف ١٩٧٦م.

فقد درس الدكتور فتحي محمد أبو عيسى قصيدة واحدة من شعر الشاعر وهي التي تبدأ بقوله:

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدفِينِ ببَالِ فَلِوى ذِرْوَةٍ فَجُنْبَيْ أُثَالِ

وقد استشهد الدكتور فتحي ببعض أبيات الشاعر من مواضع متفرقة في ديوانه، وسنتعرض للآراء التي أبداها الدكتور فتحي أبو عيسى في أثناء دراستنا الفنية لشعر عبيد.

أما الدكتور فتحي أحمد عامر فقد ألمح باقتضاب إلى حياة الشاعر مقسماً شعره إلى قسمين منحول ومثبت، وحاول تحليل بعض آراء في ذلك الشعر ليس فيها من جديد، وسنتعرض للآراء الفنية في أثناء دراستنا الفنية لشعر عبيد كذلك.

ومن قبل فقد تعرض المستشرق الألماني فالتر براونة لدراسة شيء من معلقة عبيد، وتحليل بعض أبياتها في مجلة المعرفة السورية عدد حزيران ١٩٦٣م.

كما يشير الدكتور مصطفى عبد الواحد في كتابه دراسة الحب في الأدب العربي" حيث يشير إلى موقف عبيد تجاه المرأة بإيجاز شديد وسوف نقف على رأيه هذا في أثناء دراستنا الفنية في هذا البحث.

[١٨] ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص٢٣ تحقيق محمود محمد شاكر طبع المدني القاهرة.

ولهذا لم ينل عبيد بن الأبرص حقه من الدرس في كتب القدماء رغم إجماعهم على فحولته وشهرته وكذلك لم نرهم يستشهدون كثيرابشعره في كتب النحو

واللغة باستثناء بعض الأبيات المنثورة هنا وهناك في الصناعتين لأبي هلال العسكري، والصحابي، وصمت اللآلي والعمدة لابن رشيق، ولانجد له شيئاً في كتبهم على أن هذه الأبيات لاتعدو إشارات لاتستحق الوقوف عندها[١٩] .

[١٩] ـ انظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٧٢ تحقيق علي محمد البجاوي طبع الحلبي وانظر الصاحبي لابن فارس تحقيق أحمد صقر ص٢٩٩ وانظر العمدة لابن رشيق وسمط اللآلي للبكري وانظر شرح أبيات سيبويه.

صلته ومنافرته مع امرئ القيس بن حجر

من المؤكد والثابت تاريخياً أن عبيداً كان على صلة وثيقة بابن الحارث حجراً آخر ملوك كندة، وقد استعرضنا الروايات التي تؤكد ذلك أثناء الحديث عن مولد عبيد ونشأته، ولاحاجة بنا لذكرها هنا مرة أخرى وعلى هذا فإنه من الطبيعي أن يتصل شاعرنا بأبناء حجر وبخاصة أصغر أبنائه امرئ القيس الشاعر المعروف، ومما يدل على أن الشاعرين الكبيرين قد التقيا تلك المساجلات الشعرية التي وردت إحداها في ديوان عبيد وكذلك في ديوان امرئ القيس، والناظر في ديوان الشاعرين يجد كثرة الخطاب بينهما، وبخاصة ديوان عبيد الذي يخاطب فيه حجر بن الحارث وامرئ القيس في أغلب قصائده، وإذن الصلة محققة عندنا بين الشاعرين، ويمكن القول بأن تلك الصلة كان لها أثر في حياة امرئ القيس، ونستطيع أن نتبين آثارها من خلال أشعاره، ويبدو أنه تأثر بعبيد الذي يكبره سناً وبالتالي فهو أسبق في نظم الشعر، وحول هذه الصلة بين الشاعرين يقول تشارلز ليل "لايرتبط بامرئ القيس بواسطة هذه الأحداث التاريخية وحدها يقصد مقتل حجر بن الحارث على أيدي بني أسد وكثرة مخاطبة عبيد لحجر وابنه امرئ القيس إذ توجد إشارات واضحة في أشعارهما كليهما تدل على أنهما عالجا موضوعات واحدة، وربما اشتركا في مناظرات ودية قبل ظهور العداء بينهما وهناك حالات أخرى يظهر فيها شاعران يستمدان من ذخيرة شعرية واحدة في العبارات والموضوعات، أو يعالجا من موضوعاتهما معالجة واحدة[٢٠] .

ويرى الدكتور سيد حنفي في دراسته لمراحل الشعر الجاهلي، واتجاهاته الفنية أن امرئ القيس بن حجر قد تأثر بعبيد في أكثر من معنى، ويذهب الدكتور سيد حنفي إلى أن امرئ القيس كان من الرواة الذين حملوا شعر عبيد فيقول "حمل الرواة شعر عبيد وكان من بين من حمله ورواه امرؤ القيس بن حجر الشاعر الذي نشأ في بني أسد حيث كان أبوه ملكاً عليهم، وترعرع عندهم وهو تلميذ لشاعرهم، وننظر في شعر امرئ القيس من زاوية التأثير الفني، وهل هناك أثر لتلمذته على عبيد؟ ويضيف

---

[٢٠] ـ انظر مقدمة ديوان عبيد تحقيق تشارلز ليل طبعة ليدن عام ١٩١٣.

الدكتور سيد بأن الإجابة على مدى تأثير عبيد بشعر امرئ القيس صعبة جداً، ويعزوا ذلك إلى قلة ماورد من أشعار الشاعرين الصحيحة النسبة إليهما، وأنه من الصعب جداً معرفة شعر المرحلة الأولى من حياة امرئ القيس أو شعر صباه وهو الشعر الذي يمكن أن يظهر فيه تأثير تلمذته لعبيد بصورة مباشرة وبالرغم من ذلك فإن البحث عما يمكن أن يكون قد بقي من أثر في امرئ القيس وبخاصة بعد أن استقلت شخصية الأخير، وتفردت محاولته. بمكن أن تكون بداية الدراسة لشعر هذا الشاعر الذي أمسى نبي الشعر الجاهلي يستوحي منه الشعراء، ويتلمس خطاه المفتونون به.

وإن أول مايلفت نظرنا في ديواني الشاعرين رواية تقول: لقي عبيد بن الأبرص الأسدي امرأ القيس ، فقال له عبيد: كيف معرفتك بالأوابد؟ فقال: ألق ماأحببت فقال عبيد:

مَاحَيَّةٌ مَيْتَةٌ أَحْيَتْ بِمَيْتَتِهَا دَرْدَاءُ مَا أَنْبَتَتْ سِناً وَأَضْرَاسَا

فقال امرؤ القيس[٢١] :

تِلْكَ الشّعِيرةُ تُسقَى في سنابِلِها فأخْرَجَتْ بعدَ طول المكْثِ أَكْدَاسَا

وتستمر هذه المطارحة الشعرية سبعة عشر بيتاً، يلقي عبيد بالبيت ويرد عليه امرؤ القيس بآخر، وجميعها من هذا الوزن البسيط وتلك القافية[٢٢] .

ويورد الدكتور سيد حنفي بعض الأمثلة المتشابهة عند الشاعرين فيقول: "ومما يلفت نظرنا تلك النغمات المتشابهة عند الشاعرين، ونقف عند قصيدة عبيد التي لم يعرف ابن سلام له غيرها، والتي أحس القدماء بنوع من الاضطراب يسود وزنها، وهي من مجزوء البسيط والتي تبدأ بقوله[٢٣] :

أقفَرَ مِن أهلِه ملْحُوبُ فَالقُطِبياتُ فالذ نُوبُ

ولو بحثنا في شعر امرئ القيس عن هذا الوزن، وهو قليل عند الجاهليين، وربما كان نادراً فسوف نجد قصيدة له من هذا الوزن وهي التي مطلعها[٢٤] :

---

[٢١] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٧٢ ومابعدها وانظر ديوان امرئ القيس ص٤٦١ ومابعدها تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار المعارف بمصر.

[٢٢] ـ انظر الشعر الجاهلي للدكتور سيد حنفي طبع الهيئة العامة المصرية ١٩٧١ ص٥٨.

[٢٣] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص١٠ ومابعدها تحقيق الدكتور حسين نصار.

[٢٤] ـ انظر ديوان امرئ القيس ص١٨٩ طبع دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

عَيْنَاكَ دَمعُهُمَا سِجَالُ   كَأَن شَأْنَيْهِمَا أَوْشَالُ

والقصيدتان ليستا متشابهتين في هذه النغمات فحسب، بل ونشعر أن العلاقة أقوى من ذلك، فهاهو عبيد يقول مصرعاً مرة أخرى بعد ستة أبيات من مطلع القصيدة "من مخلع البسيط"[٢٥] :

عَيْنَاك دَمعُهُما سَرُوب   كَأن شَأْنيهما شَعِيبُ

وهو اتفاق قريب في المعنى، فالعينان عند عبيد يتسرب منهما الدمع كأن شأنيهما قربة خلقة لاتحبس الماء في جوفها، والعينان عند امرئ القيس أيضاً كأن شأنيهما أوشال وهو الماء القليل، وكلاهما يصف الواقع ولايبالغ فيه، فالماء الذي يتسرب من القربة الخلقة لاشك أنه غير متدفق وقليل، وكذلك الوشل.

ثم لايكتفي عبيد بالصورة الأولى في تسرب الدمع بل يضيف صوراًأخرى قائلاًمن مخلع البسيط[٢٦] :

واهِيَةٌ أوْ مَعِينٌ مُمْعِنٌ   أو هَضْبَةٌدُونَا لُهُوبُ

أو فلجٌ ما ببَطْن وَادٍ   للماء مِنْ بينِهِ سُكُوبُ

أوْ جَدْوَلٌ في ظِلالِ نَخْلٍ   للماء من تَحْتِهِ قَسِيبُ

فانسكاب الدمع مستمر ومنهمر عند عبيد على الوجه أو الخدين انهمار هذا الماء الجاري على وجه الأرض، أو المتخلل لشعب يخترق تلك الهضبة وهي صورة قريبة من مجرى الدموع فوق الخد في اتخاذ طريق لها على صفحته، أو هو سيلان هذا النهير الصغير يهوي ببطن واد من أودية الصحراء أو جدول يجري في ظلال نخل يسمع لانسكابه خرير خفيف وكأنها تلك الشهقات التي تصحب البكاء، غير أن امرأ القيس لايفصل هذا التفصيل الشديد في تصويره، وبخاصة أن صور عبيد كلها تحمل مضموناواحداً وصوراًمتشابهة، لذلك نجده يكتفي منها بصورة واحدة موجزة لما فصله أستاذه، وأنه استعار الصورة بجزيئاتها وتراكيبها وألفاظها حين قال[٢٧] :

أَوْ جَدْوَلٌ في ظِلال نَخْل   للماء مِنْ تَحْتِهِ مَجَالُ

ينتقل عبيد بعد ذلك إلى هذا القفر الذي يقطعه على عيرانه، أو تلك الناقة الصلبة

---

[٢٥] ـ انظر ديوان عبيد ص١٠ ومابعدها. الشعيب القربة البالية. الشأنان. عرقان في الوجه منهما الدمع.

[٢٦] ـ انظر ديوان عبيد ص١٠ ومابعدها.

[٢٧] ـ انظر ديوان امرئ القيس ص١٨-١٩٠ طبع داء المعارف بمصر.

القوية، ولكنه يفصل في هذا الجزء عن الجزء السابق الذي يبكي فيه أو يتباكى ببعض أبيات يضمنها تجاربه في الحياة، وقد صور عبيد قطعة الصحراء والقفار قائلاً[٢٨] :

قَطَعْتُـــهُ غُـــدْوَةً مُشـــيحاً وَصَـــاحِبي بـــادِنٌ خَبُـــوبُ
عَيْرانَـــةٌ مُؤْجَـــدٌ فَقارُهَـــا كَـــأَنَّ حارِكَهـــا كَثِيـــبُ

فسنام ناقته شبه كثيب الرمل في لينه وسهولة امتطائه، ونشعر أن امرأ القيس ليس بعيد عن عبيد، وهو يتتبع أستاذه في هذه القصيدة وزناً وصوراً ولغة حين قال[٢٩] :

أَقْطَـــعُ الأَرْضَ وَهـــيَ قَفْـــرٌ وَصَـــاحِبي بـــازِلٌ شِـــمْلالِ
ناعِمَـــةٌ نـــائِمٌ أَبْجَلُهَـــا كَـــأَنَّ حارِكَهـــا أَوْثَـــالُ

فإذا كان عبيد قد اكتفى بأن سنام ناقته هضبة أو كثيب من الرمال فسنام ناقة امرئ القيس جبل أوثال، ولكن كلاهما سمى ناقته بصاحبه، وكلاهما اهتم بهذا السنام الذي يعتليه، ويضيف امرؤ القيس صفة نعومة العروق التي في سيقان ناقته فهوو قد أخذها من أستاذه عبيد الذي قال[٣٠] :

زَيْتِيـــةٌ نـــاعِمٌ عُرُوقُهـــا وَلَيِّـــنٌ أَسْـــرُهَا رَطيـــبُ

ولايكتفي امرؤ القيس بذلك كله في متابعته لعبيد، فإذا شبه ناقته بعقاب في سرعة وصوله إلى مبتغاه، فامرأ القيس لايجد غضاضة في أن يستلهم صورته وإن كان لاينقل كل جزئياتها يقول عبيد[٣١] :

كَأَنـــّها لِقْـــوَةٌ طَلُـــوبُ تَحِـــن فِـــي وَكْرِهَـــا القُلُـــوبُ

ويقول امرؤ القيس[٣٢] :

كَأَنهـــا لِقْـــوَةٌ طَلُـــوبُ كَـــأَنَّ خُرْطُومَهـــا مِنْثَـــالُ

ولاشك أن عبيداً عندما يقطع هذه الأرض فإنما يقطعها وفي قلبه وجيب من شدة

---

(٢٨) ـ انظر ديوان عبيد ص١٢.
(٢٩) ـ انظر ديوان امرئ القيس ص١٩١ أوثال. اسم مكان وهو جبل في ديار بني أسد ١-انظر ديوان عبيد ص١٢ - ١٣.
(٣٠) ـ انظر ديوان عبيد ص١٢ - ١٣.
(٣١) ـ انظر ديوان عبيد ص١٢ - ١٣.
(٣٢) ـ انظر ديوان امرئ القيس ص١٨٩-١٩١.

الخوف حيث يقول[٣٣] :

وَرُبَّ مــــاء وَرَدْتُ آجــــن   سَـــبيلُهُ خَـــائِفٌ جَديـــبُ

ريــشُ الحَمَــامِ عَلَــى أَرْجائِـــهِ   للقَلْــبِ مِـــنْ خَوْفِـــهِ وَجيـــبُ

لانستطيع إذن أن نتجاهل هـذه العلاقـة الفنيـة بـين الشـاعرين، ولانسـتطيع إلا أن نؤكد أنه لو كان وصلنا من شعر عبيد شيء أكثر مما سجله الرواة لكان من المحتمل أن نكتشف الأثر الذي خلفه في شعر راويته امرئ القيس، وإننا نشعر أن بعض الصور التي عبر بها عبيد عن أحاسيسه كانت مصدر إلهام لإمرئ القيـس مثـل تلـك الصـورة الـتي وصف بها البرق فهاهو الشاعر يرقب المطر ليـلاً، ويلمـح هـذه الومضـات البارقـة مـن خلال السحب البيضاء الممطرة فكأن النبيط في إضاءتـه. والنبيـط أولئـك القـوم الذيـن عرفهم الجاهليون يسكنون فلسطين وغالبنا هم من المسيحيين وربما أراد عبيد أن يقـول مصابيح الرهبان فعمم وأسماهم النبيط ومن هنا نـدرك مصـدر الإلهـام في صـورة امـرئ القيس في وصفه للبرق في أكثر من قصيدة بمصابيح الرهبان.

ويقول عبيد والبيت من المنسرح:

صَـاحِ تَـرَى بَرْقَـاً بـت أَرْقُبُـهُ   ذَاتَ العِشَـــاءِ في غَمَـــائِمَ غُـــرِّ

إلى أن يقول[٣٤] :

فَهُـــو كَنِـــبْراسِ النبيـــطِ أو الـــ   فَـــرْضِ بكَـــفِّ اللاعِـــبِ المُسْـــمِرِ

ويقول امرؤ القيس والبيتان من الطويل[٣٥] :

أَحَـــارِ تَـــرَى بَرْقَـــاً كَـــأَن وَميضَـــهُ   كَلَمْـــعِ اليَديْـــن في حَـــبِّي مُكَلَّـــلِ

يُضيـــئُ سَـــنَاهُ أَوْ مَصَـــابيحُ راهِـــبٍ   أَهـــانَ السَـــليطَ في الذَبَـــالِ المُفَتَّـــلِ

---

(٣٣) ـ انظر ديوان عبيد ص١٦ ويقول امرؤ القيس حول وصف الخوف..

وغـــائط قـــد قطعـــت وحـــدي   للقلـــب مـــن خوفـــه إجـــلال

(٣٤) ـ انظر ديوان عبيد ص١٣٩ غمائم غر سحاب أبيض الغرض موضع الوتر من القوس. ٢-انظـر مختـار اشعر الجاهلي تحقيق مصطفى السقا ص٣٢ الجزء الأول ط٤ ١٩٧١ مصطفى البـابي الحبي السـحاب المتراك المكلل الذي تراكم بعضه على بعض السليط الزيت الذبال جمع ذبالة وهي الفتيلة.

(٣٥) ـ انظر مختار الشعر الجاهلي تحقيق مصطفـى السـقا ص٣٢ ج١، ط٤، ١٩٧١ مصطفـى البـابي الحبي السحابي المتراك المكلل الذي تراكم بعضه على بعض الصليط الزيت، الزبال جمع الزبالة وهي الفتيلة.

كذلك نجد في شعر عبيد هذه المغامرات التي كثرت في شعر امرئ القيس والتي برع في تصويرها، ونلاحظ هذا اللون من الحوار الداخلي الذي كان يجري بين امرئ القيس وصاحبته له نواتة عند عبيد عندما يقول والأبيات من البحر الخفيف[٣٦] :

فَبِمَ أَدْخُلُ الخِبَاءَ على مَهْضُومَةِ الكَشْحِ طَفْلَةٍ كالغَزَالِ
فَتَعَاطَيْتُ جيدَها ثُمَّ مالَتْ مَيَلانَ الكثيبِ بَيْنَ الرِمَالِ
ثُم قالَتْ فِدىً لنفسِكَ نَفْسي وَفِداءٌ لِمَالِ أَهْلِكَ مالِي

كبر امرؤ القيس وخرج من بني أسد أميراً لاهياً عابثاً مطروداًمن أبيه الذي لم يجد فيه أملاً كي ينصبه والياً على بعض القبائل كما فعل مع إخوته، باحثاً عن أسلوب في الحياة يتفق مع مشربه وهواه[٣٧] .

هذا رأي الدكتور سعيد حنفي في تأثر امرئ القيس بعبيد بن الأبرص، وهو رأي لم يبتعد عن الصواب، ونحن نوافق الدكتور سيد على رأيه هذا ونزيد عليه مارأيناه من عوامل التأثر والتأثير في شعر الشاعرين الكبيرين، وذلك على سبيل المثال لا الحصر وإذا سلمنا بالحقائق التاريخية كما تقول الروايات فإن عبيداً بن الأبرص كان له فضل السبق والريادة في هذا التأثير في شعر امرئ القيس، ومن ذلك قول عبيد في معرض الحديث عن فرسه[٣٨] :

وإذا اقْتَنَصْنَا لايَجِفُّ خِضَابُها وَكَأَن بِرْكَتَها مَدَاكُ عَرُوس

لقد أخذ امرؤ القيس هذه الصورة والألفاظ بنفسها تقريباً دون تحرج حين قال في معرض الحديث عن فرسه أيضاً[٣٩] :

كَأَن على الكَتْفَيْن مِنْهُ إذا انْتَحَى مَدَاكُ عَروس أَوْ صَلايَةُ حَنْظَل

ومن مظاهر تأثر امرئ القيس بعبيد بن الأبرص قول امرئ القيس[٤٠] :

تبصر خليلي هل ترى من ظمائن سوالك نقباً بين خزي شعبعب

---

(٣٦) ـ انظر ديوان عبيد ص١١٠ ورواية البيت الأول وقد أدخل الخباء.
(٣٧) ـ الشعر الجاهلي د.سيد حنفي ص٥٩-٦٢.
(٣٨) ـ ديوان عبيد ص٧ البركة الخضاب الدماء التي أيرت من الصيد على الفريسة. وانظر مختار الشعر الجاهلي ص٣١ جزء أول.
(٣٩) ـ انظر مختار الشعر الجاهلي ص٣١ ج١.
(٤٠) ـ انظر مختار الشعر الجاهلي للسقا ص٤٤ جزء أول.

فقد أخذ شطر البيت الأول بألفاظه وكل جزئياته من أستاذه عبيد الذي قال والبيت من الطويل[٤١] :

تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعائِنٍ   يَمَانيةٍ قَدْ تَفْتَدِي وَتَرُوحُ

وقد توارد على هذه الصيغة عدد من الشعراء فيما بعد، ونرجح أنهم قد أخذوها من عبيد لأننا لانعلم أن أحداًمن الشعراء الجاهليين قد جاء بهذه الصيغة قبل عبيد بن الأبرص الذي يمثل المرحلة المتقدمة من الشعر الجاهلي.

ويذكر ابن سلام في طبقات فحول الشعراء الجاهليين أن امرئا القيس سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء منها: استيقاف صحبه، والبكاء في الديار،ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وأنه شبه النساء بالظباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي[٤٢] ولاشك أن حكم ابن سلام قد بني على ماروي من شعر لامرئ القيس ونظن أن شعر عبيد بن الأبرص لم يكن قد جمع بعد، فعبيد سبق امرأ القيس في تشبيه الخيل بالعقبان وفي تشبيه النساء بالظباء، يقول عبيد والبيت من البحر البسيط[٤٣] :

وَقَدْتَبَطنْتُ مِثْلَالرِيْم آنِسَةً   رَوْدَ الشَبَابِ كَعاباً ذاتَ أَوْضَاح

ويقول أيضاً في معرض تشبيه المرأة بالظباء والبيت من الكامل[٤٤] :

وَسَبَتْكَ ناعِمَةٌ صَفِيّ نَوَاعِم   بيْض غَرَائِرَ كالظّباء العِيْس

وعلى هذا فقد سبق عبيد امرأ القيس في تشبيه النساء بالظباء ومانظن الأخير إلا متكئاً على عبيد في هذا المجال:

ومما شبه به عبيد فرسه القناة أو العصا حيث قال والبيان من الكامل[٤٥] :

تَنْفِي الأَوَائِمُ عَنْ سَوَاء سَبِيْلِها   شَرَكَ الأَحِزَّةِ وَهْيَ غَيْرَ شَمُوس

أَمّا إذا اسْتَقْبَلْتَهَا فَكَأَنّهَا   ذَبُلَتْ مِنْ الهِنْدِي غَيْرَ يَبُوس

وإننا نرى في الأمثلة مصدر إلهام لأمرئ القيس من أستاذه عبيد كما نرى أنه تأثر به أيضاً في بعض المعاني والصور نذكر منها صورة الشيب مثلاً، فعبيد يقول البيتان من

---

(٤١) ـ انظر ديوان عبيد ص٣٠.

(٤٢) ـ انظر ديوان عبيد طبقات فحول الشعراء الجزء الأول ص٥٥ محمود محمد شاكر ط المدني بالقاهرة.

(٤٣) ـ انظر ديوان عبيد ص٤٠.

(٤٤) ـ انظر ديوان عبيد ص٦٨.

(٤٥) ـ انظر ديوان عبيد ص٧٠.

الخفيف[٤٦] :

زَعَمَتْ أَنَّني كَبرْتُ وَأَنّي　　قَلَّ مالي وَضَنَّ عَنّي المَوالي

وَصَحَا باطِلي وأَصْبَحْتُ شَيْخاً　　لايُؤاتي أَمْثالَها أمثالي

ويعبر امرؤ القيس عن هذه الفكرة بالمعنى نفسه، غير أنه يجمع ولايفصل حيث يقول والبيت من الطويل[٤٧] :

أَراهُنّ لايُحْبِبْنَ مَنْ قَلّ مَالُهُ　　وَلا مَنْ رَأَيْنَ الشَيْبَ فيهِ وَقوسا

فتجربته سابقة، ولعل امرأ القيس قد رأى من المرأة حيال أستاذه فتأثر له هو الآخر.

وهناك صيغة تعارف عليها الشعراء الجاهليين أثناء الحديث عن خروجهم إلى الصيد على ظهور الخيل وهي وقد أغتدي ولانعلم أحداًمن الجاهليين قالها قبل عبيد بن الأبرص حين قال والبيتان من الطويل[٤٨] :

وَقَدْ أَغْتَدِي قَبْلَ الغِطَاطِ وَصَاحِبي　　أَمينُ الشِظا رَخْوُ اللَبانِ سَبُوحُ

إذا حَرّكْتَهُ الساقُ قُلْتُ مُحَنّبٌ　　غَضيضٌ غَذَتْهُ عَهْدَةٌ وَسُرُوحُ

ونجد بعد ذلك أن امرأ القيس أخذ التعبير نفسه حين تحدث عن خروجه للصيد حيث قال والبيت من البحر الطويل[٤٩] :

وَقَدْ أَغْتَدِي قَبْلَ الغِطَاطِ بهَيْكَلٍ　　شَديدِ مِشَكّ الجَنْبِ فَعْمِ المُنَطّقِ

ويستعير في موقع آخر من أستاذه تعبيراًوهو أمين الشظا لكنه يغير فيه كلمة أمين ويستبدلها بسليم حيث يقول والأبيات من الطويل[٥٠] :

وَلَمْ أَشْهَدِ الخَيْلَ المُغيرَةَ بالضُحى　　على حَجَباتٍ مُشْرفاتٍ على الفَالِ

ويشبه عبيد ريق صاحبه بالخمر البابلية المعتقة حين يقول والبيت من الطويل[٥١] :

---

(٤٦) ـ انظر ديوان عبيد ص١٠٧-١٠٨.

(٤٧) ـ انظر مختار الشعر الجاهلي ص٨٦.

(٤٨) ـ انظر ديوان عبيد ص٣١-٣٢.

(٤٩) ـ انظر مختار الشعر الجاهلي ص١٢٤.

(٥٠) ـ انظر مختار الشعر الجاهلي ص٤١.

(٥١) ـ انظر ديوان عبيد ص٣١-٣٢ . ورد بيت امرئ القيس كالتالي:

سليم الشظا عَبْلُ الشَوى شَنِجُ النسا　　لَهُ حَجَباتٌ مُشْرفاتٌ على الفالِ

وإذَا ذُقْـتُ فاهَـا قُلْـتُ طَعْـمَ مُدامَــةٍ　　　مُشَعْشَـــعَةٍ　تُرْخِـــي الإزَارَ قَدِيـــح

وقال امرؤ القيس آخذاً شطر البيت الأول من عبيد والبيت من الوزن نفسه[٥٢] :

إذَا ذُقْـتُ فَاهَـا قُلْتُطَعْـمَ مُدامَـــةٍ　　　مُعَتَّقَـــةٍ مِمّـــا تَجـــيءُ بـــهِالتَّجْرُ

ويعبر عبيد عن لحظة ذهوله أثناء ووقفته الطلية بقوله والبيت من السريع[٥٣] :

ظَلْلْـــتُ بهَـــا كَـــأَنَّنِي شَـــاربٌ　　　صَهْبَـــاءَ مِمـــا عَتّقَـــتْ بَـــابلُ

ومرة أخرى نجد امرأ القيس ينحو منحى أستاذه في وقوفه على الأطلال حيث يقول والبيت من الكامل[٥٤] :

فَظَلَلْـتُ فِـي دِمَـن الديـار ِكَـأَنني　　　نَشْـوَانَ بـاكَرَهُ صَبُـوحُ مُـدَام

وهناك أكثر من معنى وتعبير وتركيب نجد أصوله عند عبيد بن الأبرص ونلاحظ استعماله في شعر امرئ القيس مثل: تذكرت أهلي الصالحين "وشبهتهم في الآل.

وبالإضافة إلى بعض النظرات الشخصية التي تأثر بها امرؤ القيس من عبيد بن الأبرص من ذلك مثلاً قول امرئ القيس[٥٥] :

وَمَا المَرْءُ ما دَامَتْ حُشَاشَةُ نَفْسِهِ　　　بمُدْرِكِ أَطْرَافِ الخُطُوبِ وَلا آلِي

ومأشبه ذلك بقول أستاذه عبيد في بائيته المشهورة[٥٦] :

أَفْلِحْ بمَا شِئْتَ فَقَد يُبْلَغُ بالضعْفِ　　　وَقَـدْ يُخْـدَعُ الأَريـب

فالمرء يطلب، لكنه لايصل إلى مبتغاه،، ولاينال الفوز فيما يسعى إليه. وهناك من التعبيرات التي وردت على لسان عبيد وتواردها الشعراء من بعده مثل تعبير هل أترك القرن مصفراً أنامله أو قد أترك، حيث يقول عبيد والبيت من البسيط[٥٧] :

قَدْ أَتْرُكُ القَرْنَ مُصْفراً أَنامِلُهُ　　　كَأَنّ أَثْوَابَهُ مُجتْ بِفِرْصَادِ

فقد جاء زهير وقال والبيت من البسيط أيضاً[٥٨] :

---

(٥٢) ـ انظر مختار الشعر الجاهلي ص٨٨.
(٥٣) ـ انظر ديوان عبيد ص٩٨.
(٥٤) ـ انظر مختار الشعر الجاهلي ص٩١.
(٥٥) ـ انظر مختار الشعر الجاهلي للسقا ص٤٣ ٥-انظر ديوان عبيد ص١٢ ومابعدها.
(٥٦) ـ انظر ديوان عبيد ص٤٩.
(٥٧) ـ شرح ديوان زهير ص١٢١ صنعة ثعلب ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٦٤.
(٥٨) ـ شرح ديوان زهير ص١٢١ صنعة ثعلب ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٦٤.

قَـدْ أَتْــرُكُ القَــرْنَ مُصْفــراً أَنامِلُــهُ   يَمِيـلُ فِي الرُمْــح مَيْـلَ المــائِح الأَسِــن

وقال الأعشى والبيت من البسيط[٥٩] :

قَـدْ أَتْــرُكُ القَــرْنَ مُصْفَــراً أَنامِلُــهُ   وَقَــدْ يَشِـيْطُ عَلــى أَرْماحِنَــا البَطَــلُ

ونخلص من هذا إلى أن عبيد بن الأبرص قد ترك بصماته على بعض النواحي الفنية من شعر امرئ القيس بن حجر، بيد أننا لانستطيع إحصاء ذلك نتيجة لضياع كثير من شعريهما وقد رأينا فيما ورد لهما بعض الأمثلة الـتي تؤكـد حـدوث مثـل ذلـك التأثـير وبخاصة في الغزل والوصف، ويتراءى لنا أن امرأ القيس قد تتلمذ بالفعل على يـد عبيـد بن الأبرص شاعر بني أسد في صغره، مما جعل امرأ القيس يتأثر بأستاذه في بعض المعاني والتعبيرات والصور إلا أن ذلك لايعني الغض من منزلة امرئ القيس فهو قد أجاد وفاق في بعض النواحي الفنية في النص الشعري كتنويعه في التشبيهات وذهابه فيها مذهباً نال إعجاب المتقدمين والمتأخرين.

---

[٥٩] ـ انظر سمط اللآلي، ص٣٠٦، جزء اول، تحقيق عبدالعزيز الميمني، ١٩٣٦م.

الباب الثاني

موضوع شعره ومضمونه

الفصل الأول

أهم أغراض شعره

سوف نتناول في هذا الفصل أهم فنون الشعراء التقليدية لهذا الشاعر الجاهلي الكبير وسنحاول دراسة تلك الفنون دراسة موضوعية لنقف من خلالها على أهم الأغراض التي طرقها في شعره. ويلوح لنا أن الفخر بالذات وبالقبيلة يشكل الجانب الأكبر من ديوانه ولانرى ضيراً أن نبدأ الحديث عن فخر ذلك الشاعر الجاهلي، ونقف على معاني الفخر عنده.

وكما هو معروف فإن الفخر يعد من أهم الأغراض عند الشاعر الجاهلي فبابه عريض وواسع عند العرب،ويدل فيما يدل على حب الأنفة والكبرياء عند كل نفس عاشت في شبه جزيرة العرب،ويقسم الفخر عند بعض الدارسين إلى فخر ذاتي وهو مايدور حول العقل والقلب واللسان والساعد ومايدور حوله القبيلة والآباء والأجداد ومآثرهم ومحامدهم،وفخر موضوعي وحزبي وسياسي وديني الخ...[1]

والنوع الأول من الفخر نراه شائعاًفي الأدب العربي بعامة وفي الأدب الجاهلي بنوع خاص لقد كانت حياة القبائل العربية ومابينها من تنافس على طلب المرعى،والماء وعداوات وحروب قد تدوم أياماً وأعواماً أسباباً دعت إلى نشوء هذا الغرض الذي احتل المكان الأول في ديوان الشاعر الجاهلي بعامة، ولعل هذا من الأسباب التي دعت شاعراًكأبي تمام أن يولي هذه المسألة الاهتمام الأول في ديوانه المسمى بالحماسة.

كما كانت محافل العرب في الجاهلية حيث يجتمعون، ويتبادلون الآراء والسلع، عوامل مساعدة على نشوء مثل هذا الغرض، مثل الحج إلى الكعبة وحضور الأسواق،

---

[1] ـ انظر الفخر والحماسة لحنا الفاخوري، دار المعارف بمصر، ط٤، سلسلة فنون الادب العربي.

لقد جعلوا من محافلهم تلك ميادين مفاخرة، ومعارض قول، ومجالس أدب، وكتب الأدب تعج بمثل هذه الأخبار. كما كان عند بعض القبائل ماسمي بالنادي،وهو مكان يجتمع فيه أبناء القبيلة لتناشد الأشعار وتبادل الأخبار ويبدو أن قبيلة بني أسد كان لها ناد من هذا النوع، يقول عبيد بن الأبرص والبيت من البسيط[٢] :

إذْهَبْ إلَيْكَ فَإني مِنْ بَني أَسَدٍ   أَهْلَ القِبَابِ وَأَهْلَ الجُرْدِ والنَادِيْ

ونلمس من خلال قول عبيد أن النادي كان مدعاة للفخر من جانب أبناء القبيلة، مما يرجح أن وجود النادي إنما يرتبط بقوة وعزة القبيلة، إن حياة العربي في الصحراء حياة فطرية، ولكنها قاسية في الوقت نفسه تهدده الأخطار في كل ساعة،وتدهمه الخطوب،في كل يوم وحياة كهذه أجرر لأن تلزم ابنها بقلب جريء، وقوة دافعة وتضامن وتلاحم متين، ويبدو أنه كان لبيئتهم تلك أثر في ميلهم نحو المثل والقيم كالحلم والشرف والشجاعة، والكرم، والصدق في القول والفعل أما الوفاء فقد كان شيئاً يقترب من التقديس عندهم، ونقض العهد من أبغض الأمور إلى نفسهم.

لقد افتخر العرب في جاهليتهم بنبل الأصل والمحتد، وبقوة العصبية القبلية، وبمكانتها بين القبائل الأخرى كما افتخروا بباقي المحامد والمآثر، من كرم وشجاعة ووفاء وغير ذلك من الخلال التي استمدوها من واقع بيئتهم وتجاربهم، فجاء فخرهم صادقاًعذباً في مشربه سهلاً في مأخذه يجري على ألسنتهم في يسر وسذاجة، وكان مرآة لما يعتمل في نفوسهم من قيم وأفكار، ويتجلى لنا عبيد بن الأبرص من خلال شعره رجلاً ماجد الأصل كريم الغصن صاحب أنفة وإباء، ولم لا؟ فهو من بني أسد بن خزيمة، بل من خيارهم وأنبلهم إنه من بني سعد بن ثعلبة الأشاوس ويقول من البحر الكامل[٣] :

فِي أُسْرَةٍ يَوْمَ الحِفَاظِ مَصَالِتٍ   كَالأُسْدِ لا يَنْمَى لَهَا بفَرِيس

وَبَنُو خَزَيْمَةَ يَعْلَمُونَ بأننا   مِنْ خَيْرِهِمْ في غِبْطَةٍ وَبَئِيس

نُنْكِي عَدُوهُمُ وَيَنْصَحُ حَبِيْبُنَا   لَهُمُ وَلَيْسَ النصْحُ بالمَدْمُوس

ونلاحظ على شاعرنا هنا أنه يفتخر لبطن الأدنى أنه يخص بني سعد ابن ثعلبة رهطه الأقربين دون سائر بني أسد، وعبيد في هذا لايعدو الفخر بالقبيلة إلا أنه قد تحدث في بعض الأحيان مواقف معينة كأن يهمل حتى من الأحياء أو يغمز جانبه في

---

[٢] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٤٩.

[٣] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٧٠-٧١.

بعض القضايا فيثب شعراؤه للافتخار به، وإلى إبراز مناقبه، ومكرماته. وقد كان رهط الشاعر في المقدمة من بني أسد في قتالهم ضد الغساسنة على مايبدو، حتى أنهم أبيدو في نهاية الأمر مما يدل على مكانتهم الرفيعة بين أحياء وبطون بني أسد كافة، وهاهو عبيد يقول موضحاً ماحل ببني سعد بن ثعلبة على يد الغساسنة وغيرهم مبيناً كثرة ماخاضوه من معارك وحروب والأبيات من البحر الطويل(٤) :

لِمَنْ طَلَلٌ لَمْ تَعْفُ مِنْهُ المَذَانِبُ ... فَجَنْبَا حِبِرٍّ قَدْ تَعَفَّى فَوَاهِبُ

دِيَارُ بَنِي سَعْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ لأُلَى ... أذاعَ بهِمْ دَهْرٌ عَلَى الناسِ رائِبُ

فَأَذْهَبْنَهُمْ ماأَذْهَبَ النَاسَ قَبْلَهُمْ ... ضِرَاسُ الحُرُوبِ والمَنَايَا العَوَاقِبُ

إن عبيداً ليظهر أحد هؤلاء الأبطال الميامين الذين تقع حماية القبيلة على كواهلهم.وهو من الجرأة والإقدام بمكان،إنه لايهاب سيداولامسوداً مهما بلغ شأنه وأكثر من هذا فهو يهدد الملوك والأمراء وهاهو يجهر بصوته عالياً ليسمع كل من يجهل مكانة بني أسد وينكر عزها ومجدها والأبيات من البحر الكامل(٥) :

يَاذَا المُخَوِّفُنَا بقَتْـ ... ـل أَبِيْهِ إذْلالاً وَحَيْنَا

أَزَعَمْتَأَنَّكَ قَدْ قَتَلْـ ... ـتَ سَرَاتَنَا كَذِباً وَمَيْنَا

هَلا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنْـ ... ـدَةَ إذْ تَوَلَّوا أَيْنَ أَيْنَا

أَيَّامَ نَضْرِبُ هَامَهُمْ ... ببَوَاتِرٍ حتى انْحَنَيْنَا

وَجُمُوعَ غَسَّانَ المُلُو ... كَ أَتَيْنَهُمْ وَقَدِ انْطَوَيْنَا

وَلَقَدْ صَلَفْنَ هَوَازِنَا ... بنَوَاهِلٍ حَتَّى ارتَوَيْنَا

نَحْنُ الأُلَى فَاجْمَعْ جُمُو ... عَكَ ثُم وَجِّهْهُمْ إلَيْنَا

نَحْمِي حَقِيْقَتَنَا وَبَعْـ ... ـضُ القَوْم يَسْقُطُ بَيْنَ بَيْنَا

هكذا يبدو لنا عبيد، رجل أنوف وفارس صنديد لايرضى بجور ولايقبل بضيم، وهذه صفات الجاهليين من العرب، وهو مرهف الإحساس رقيق الشعور شأنه في ذلك شأن سائر البدو لكنه على رقته ورهافة حسه شديد البطش والفتك بأعدائه ولاعجب في ذلك فإن له من القوة والمنعة، ورهبة الجانب، مايمكنه من ذلك، وإلى جانب عنصر

---

(٤) ـ انظر ديوان الشاعر ص٨.

(٥) ـ انظر ديوان الشاعر ص١٣٦-١٣٧.

القوة والكثرة التي يفتخر بها عبيد هناك جانب العقل والحلم واتزان التفكير وعدم التسرع في المواقف الحرجة، إن بني أسد حكماء وأصحاب رأي سديد بالإضافة إلى كونهم أقوياء قاهرين للأعداء يقول والأبيات من البحر السريع[٦] :

يــا أيهَــا السَــائِلُ عَــنْ مَجْدِنَــا ... إنّــكَ عَــنْ مَسْــعَاتِنَا جَــاهِلُ

إن كنــتَ لم تســمع بآبائنــا ... فســل تنبــأ أيهــا الســائل

سَــائِلْ بنــا حُجْــراً غَــدَاةَ الوَغَــى ... يَــوْمَ تَوَلَّــى جَمْعُــهُ الحَــافِلُ

يَــوْمَ لَقَــوْا سَــعْداً عَلَــى مَــأْقَطٍ ... وَجَــاوَلَتْ مِــنْ دُونِــهِ كَــاهِلُ

وَعَــامِراً أنْ كَيْــفَ يَعْلُوهُــمُ ... إذ التَقَيْنَــا المُرْهَــفُ النَــاهِلُ

وَجَمْــعُ غَسّــانَ لَقِينَــاهُمُ ... بجَحْفَــلٍ قَسْــطَلُهُ ذائِــلُ

قَوْمــي بنــو دودانَ أَهْــلُ الحِجَــا ... يَوْمــاً إذا أُلقِحَــتِ الحَــأئِلُ

كَــمْ فيهــمُ مِــنْ أَيــدٍ سَــيدٍ ... ذِي نَفَحَــأتٍ قَــائِلٌ فَــاعِلُ

مَــن قَوْلُــهُ قَــوْلٌ وَمَــنْ فِعْلُــهُ ... فِعْــلٌ وَمَــنْ نائِلُــهُ نَــائِلُ

لقد افتخر عبيد بنفسه، وبقومه، أما افتخاره بنفسه ففخر الفارس المعلم الشجاع المتطلع إلى العلياء العاشق لحميد الخصال المترفع عن الدنايا الممجد للقوة في مجتمع كان يظن أن القوة هي السبيل الوحيد للبقاء وأنها هي المنهج القويم لتصريف الأمور.

وإننا لنشعر في فخره بنفسه بعلوة همة وزهو عظيمين، فالشاعر ينقلنا إلى جو عربي تدعمه عناصر القوة المستمدة من البيئة العربية البدوية يقول مفتخراً بنفسه والأبيات من البحر الطويل[٧] :

وَقَــدْ أَتْــرُكُ القَــرْنَ الكَمِــي بصَــدْرِهِ ... مُشَلْشَــلَةٌ فَــوْقَ النِطَــاق نَفُــوحُ

دَفُــوعٌ لأطْــرافِ الأنَــامِلِ ثَــرَّةٌ ... لَهَــا بَعْــدَ إنْــزافِ العَبِيْــطِ نَسِــيحُ

إذَا جَــاءَ سِــرْبٌ مِنْنِســاء يَعُدْنَــهُ ... تَبَــادَرْنَ شَــتى كلُّهُــن تَنُــوحُ

وهو في فخره الذاتي بالشجاعة والجرأة والإقدام إنما يمثل صورة صادقة للإنسان العربي الجاهلي الذي كان منسجماً مع بيئته وواقعه ويتجلى لنا من خلال فخره الذاتي

---

(٦) ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٩٨-١٠٠.

(٧) ـ انظر المرجع السابق، ص٣٢-٣٣

التعصب القبلي الذي يمثل ركناً أساسياً في بناء المجتمع الجاهلي، وهو إذا كان يمثل صوت القبيلة في الفخر ويصور انتصاراتها ويشيد بمآثرها ويجسد آلامها، فإنه كان مدركاً لطبيعة العلاقة التي تربطه بقبيلته وهي تتلخص في أنه منها وإليها. شأنه في ذلك شأن معظم شعراء ذلك العصر.

يقول الدكتور محمد النويهي في هذا الصدد أن الشاعر الجاهلي لم يكن ينظم فخره القبلي لمجرد أنه الرأي السائد في مجتمعه ولأنه رأى أن من واجبه الترويج لآراء جماعته، والقيام بالدعاية لها، بل لأنه أحس إحساساً عميقاً وعنيفاً قاهراً بهذه العاطفة، فاجتاز مرحلة ذاتية اضطرمت فيها نفسه، واتقد بها وجدانه وهو حين ينظم فخره القبلي لم يكن دفاعه المباشر إلا أنه ينفس عن هذا الانفعال الذي غلب على مشاعره من حب ملتهب لقبيلته، وفخر مجلجل لمآثرها، وسعادة مجنحة بانتمائه إليها، وبغض قوي لأعدائها، واحتقار ذريع لهم[8] وفي هذا النوع من الفخر القبلي سنقف على مآثر القبيلة وعلى مكانتها كما صورها لنا عبيد.

والواقع أن قبيلة بني أسد كانت تعيش حياة حربية شبه دائمة، ولها سجل حافل يشهد بذلك، وليس من الغريب أن نرى شاعرنا يفتخر بوقائعها ويشيد بانتصاراتها، أليسوا هم الذين قتلوا ملك كندة، وهم من أوقع بالربابِ وعامر وقارعوا غساناً وغيرهم من القبائل؟ يقول عبيد مشيداًبانتصار بني أسد موجهاً خطابه إلى امرئ القيس بن حجر والأبيات من الطويل[9] :

وَنَحْــنُ قَتَلْنَــا الأَجْدَلَيْــن وَمَالِكَــا ... أَعَــزّ هُمَــا فَقْــداً عَلَيْــكَ وَهَالِكَــا
وَيَــوْمَ الرِّبَــابِ قَــدْ قَتَلْنَــا هُمَامَهَــا ... وَحُجْــراً وَعَمْــراً قَــدْ قَتَلْنَــا كَذَلِكَــا
وَنَحْــنُ صَبَحْنَــا عَــامِراً يَــوْمَ أَقْبَلُــوا ... سُــيُوفاً عَلَيْهِــن النّجَــأرُ بَوَاتِكَــا
وَنَحْــنُ قَتَلْنَــا مُــرّ ةَ الخَــيْر فِيْكُــمُ ... وَقُرْصَــاً قَتَلْنَــا كَــانَ مِمّــنْ أولَئِكَــا

ونلاحظ أن صوت الجماعة قد طغى على صوت الفرد، وهذه ظاهرة تتكرر في فخر عبيد وكذلك نجدها في شعر كثير من الشعراء الجاهليين[10] وبنو أسد بالإضافة إلى ذلك كله محافظون على العهود والمواثيق فالكلمة عندهم أكثر من قسم وإذا ماأعطوا عهداً

---

[8] ـ انظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقييمه للدكتور محمد النويهي الجزء الأول ص٢١٤، ٢١٥.
[9] ـ انظر ديوان عبيد ص٩٣ ويبدو أن الأجدلين من أجداد امرئ القيس أما قرص فلاذكر له ويرجح أنه من أمراء الغساسنة.
[10] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص القصائد ذات الأرقام ٥٢، ٥٠، ٤٣، ٣٩، ١٦، ٣٢ .

لحليفٍ فهم موفون به لامحالة. يقول عبيد في هذا الصدد والأبيات من البحر الكامل[11] :

إنَّـــــا لَعَمْـــــرُكَ مايُضَـــــا ...... مُ حَلِيفُنَـــــأ أَبَـــــداً لَدَيْنَـــــا
كَـــمْ مِـــنْ رَئِيـــس قَـــدْ قَتَلْـــ ...... نَـــاهُ وَضَيْـــم قَـــدْ أَبَيْنَـــا

وهم متعاونون على السراء والضراء لاتلين لهم قناة، ولايخمز لهم جانب راجحو العقول سديدو الآراء لايطلقون أحكامهم جزافاً عن غير دراية وخبرة وبصيرة في الأمور كلامهم فصل، وقولهم حكم نافذ، وقد أشار عبيد إلى ذلك أكثر من مرة[12]

ونحن لانجد ماتحدث به الشاعر غريباً، بل نابعاً من صميم الواقع الذي كانت تحياه القبائل العربية في الجاهلية وبخاصة البدوية المتنقلة منها وقد جمع الشاعر في فخره معظم الفضائل والمآثر التي تتحلى بها القبيلة، ونستشف من الشاعر بعض العادات السائدة بين صفوف تلك القبيلة العربية الكبيرة، ومن هذه العادات المشاركة في المال والعدل في توزيع الثروة فيما بينهم، وذلك أدعى للمحبة والتعاضد، وأنفى للتحاسد والكراهية في بيئة لاحياة فيها دون تلاحم وتعاون.

وحول هذه الأفكار جاء فخر شاعرنا مؤكداً عصبيته القبلية، ودالاًعلى حياة القبيلة في كثير من النواحي الاجتماعية والسياسية والحربية.

وكما نرى فإن عنصر الفخر عند شاعرنا متنوع المعاني، وقد كانت الفروسية صورة رائعة من صوره، وقد دعت إليها حياة العرب في الصحراء ونظامهم القبلي المعروف والذي كانت الأعراف والتقاليد والمعدات تشكل جزءاً كبيراً منه، بل أنه يعتمد عليها اعتماداً كلياً في كثير من الأحيان وكانت تلك الأعراف والعادات من

---

[11] ـ انظر ديوان الشاعر ص ١٣٨.

[12] ـ انظر ديوان الشاعر ص٨٦ يقول عبيد مفتخراًوالأبيات من البحر البسيط:

بيْـضٌ بَهَـــالِيْلُ يَنْفِــي الجهْلَ حِلْمُهُــمُ ...... وَتَفْـزَعُ الأَرْضُ مِنْهُـمْ إنْ هُـمُ سَــخَطُوا
إذا تَخَــــم طَ جَــــب ارٌ ثَنَــــوْهُ ...... إلى مَايَشْـــتَهُونَ وَلَـــايُثْنَوْنَإنْ خَمَطُـــوا
والفَـــارِجُو الكَــرْبَ والغُــم ى برَأْيِهِــم ...... إذا تَشَـــــابَهَتِالأَهْوَاءُ والصُــــــرُطُ
والقَـــائِلُو الفَصْـــلَ لاتُعْتَـــادُ طَـــى ...... تُهُــمْ وَمَـــالِقَوْلِهِمُ خُلْــفٌ وَلَاسَـــقَطُ
والخَـــالِطُو مُعْسِـــراً مِنْهُـــمْ بمُوسِـــرِهِمْ ...... وَأَكْـــثَرُ النـــاس مَطْرُوقـــاً إذا اخْتَبَطُـــوا
مُـــر و اللِقَـــاء وَثيقُـــو العَقْـــدِإنْ ...... عَقَـدُوا إذا أضَــاعَ مِـنَ المِيْثَــاق مُشْــتَرَطُ
لايَحْسَـــبُونَ غِنَـــىً يَبْقَـــى وَلاعُدُمَـــا ...... إذا رَأَى ذَاكَمِنْهُـــم مَعْشَـــرٌ فُـــرُطُ

ونحن لانجد ماتحدث به الشاعر غريباً، بل نابعاً من صميم الواقع الذي كانت تحياه القبائل العربية في الجاهلية وبخاصة البدوية المتنقلة منها وقد جمع الشاعر في فخره معظم الفضائل والمآثر التي تتحلى بها القبيلة، ونستشف من الشاعر بعض العادات السائدة بين صفوف تلك القبيلة العربية الكبيرة، ومن هذه العادات المشاركة في المال والعدل في توزيع الثروة فيما بينهم، وذلك أدعى للمحبة والتعاضد، وأنفى للتحاسد والكراهية في بيئة لاحياة فيها دون تلاحم وتعاون.

وحول هذه الأفكار جاء فخر شاعرنا مؤكداً عصبيته القبلية، ودالاًعلى حياة القبيلة في كثير من النواحي الاجتماعية والسياسية والحربية.

وكما نرى فإن عنصر الفخر عند شاعرنا متنوع المعاني، وقد كانت الفروسية صورة رائعة من صوره، وقد دعت إليها حياة العرب في الصحراء ونظامهم القبلي المعروف والذي كانت الأعراف والتقاليد والمعدات تشكل جزءاً كبيراً منه، بل أنه يعتمد عليها اعتماداً كلياً في كثير من الأحيان وكانت تلك الأعراف والعادات من القداسة عندهم بمكان، فقد تشب لها الحروب وتهرق من أجلها الدماء إذا تجرأ أحد على خرقها أو الخروج عليها، وكان شاعرنا يستمد معاني الفخر من نفسه ومن قومه ومن تجاربه الخاصة وبيئته، وكانت في الغالب الأعم تدور حول قيم خلقية واجتماعية من عزة وأنفة وشجاعة وكرم ورجاحة عقل.

وهكذا يبدو فخر الشاعر غنياً بالصور والمشاهد الحماسية الحادة تعلوه نبرة القوة والثقة بالنفس[١٣] .

ونحن نرى أن المعاني التي افتخر بها عبيد أقرب إلى الواقع الذي كانت تعيشه قبيلة الشاعر فقد كان الشاعر يجسم ويشخص بطولات قبيلته ويسجل انتصاراتها في حروبها مع القبائل الأخرى ولم يكن ليبالغ في هذا، وقد كان معاني الفخر عنده مستمدة من الواقع المعاش ومن البيئة وظروفها المحيطة ونحن نوافق الدكتور النويهي في رأيه إذ يقول بأن تلك المآثر والفضائل لم تكن صفات مشتركة عند العرب في الجاهلية كما لم تكن أعرافاً أو قوانين عامة لاينحازون عنها أو يخرجون عليها لأنه لو كان الأمر كذلك لم يكن من داع لفخر الشعراء بها[١٤] .

ويضيف الدكتور النويهي بأن القبائل الكبيرة ذات الأنساب والأحساب لاسيما

---

[١٣] ـ راجع القصائد ذات الارقام التالية في الديوان٥٢، ٥٠، ٤٧، ٤٣، ٤١، ٤٠، ٣٢، ١٩، ١٦، ١٠، ٦.

[١٤] ـ انظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه الدكتور محمد النويهي، ج. الاول ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

تلك التي توفر لها قادة عقلاء متزنون وسادة أشراف ارتضت لنفسها تلك الفضائل وتمسكت بها وحثت أفرادها على التمثل بها ترفعاًوطلباًللعلو والشرف والصدق[١٥] .

ولسنا بحاجة للتذكير بمكانة بني أسد وبعلو نسبها في مضر وبتوافر كل أسباب القوة والمنعة عند هذه القبيلة.

والفخر عند شاعرنا يتجاوز المشاعر الفردية إلى المشاعر الجماعية معبراًعن حياة القبيلة ومصوراً ماكان بينها وبين القبائل الأخرى من تنافر وعداء، وهو عين يصور بطولته الفردية في ميادين الحرب إنما يصور العادات السائدة في عصره، ويمثل خلق الفرسان والأبطال والظاهرة التي نلمحها، في فخر عبيد هي خلو هذا الفخر من ذكر أقصد حب المرأة التي تعودنا أن نرى صورتها حاضرة عند أغلب الشعراء الجاهليين في فخرهم كعنترة وعمرو بن كلثوم ففخر عبيد قبلي صرف تعلوه نبرة التكبر والخيلاء والاستعلاء والعنجهية وغالباً مايكون في صيغ المتكلمين، وهو يستخدم الضمائر المناسبة لهذه الجموع مما يكسب قوله فخامة ورصانة، ونستطيع أن نلمح في فخر عبيد صورة العلاقات الاجتماعية والسياسية التي كانت قائمة بين قبيلة بني أسد وبقية القبائل الأخرى، وكذلك العلاقات التي ربطت بين هذه القبيلة وبين كل من إمارة كندة وإمارتي المناذرة والغساسنة، وهي في الغالب علاقات عدائية بحتة.

الوصف

يبدو أن بعض نقادنا القدماء كانوا على صواب حينما أرجعوا معظم موضوعات الشعر العربي إلى الوصف[١٦] . فالواقع أن الوصف بمعناه العام يغلب على موضوعات الشعر الجاهلي كلها ذلك أن الشاعر في رثائه ومديحه وهجائه وفخره ونسبه إنما يصف .... مايعنينا ويهمنا هو ذلك الوصف المحدد الذي يعتبر أحد موضوعات الشعر الجاهلي بعامة ويشكل مادة شعرية لدى الشعراء تقوم على وصف الطبيعة والحيوان والحروب، وهو مانقصد إليه بدراسته هذه، وسنحاول أن نلقي بعض الضوء على ماجاء في شعر عبيد بن الأبرص من لوحات فنية تصويرية استمدها هذا الشاعر من الطبيعة الصافية حوله، ومما قد رآه وشاهده وعرفه.

وسنحاول الوقوف على مدى صلة الشاعر بما كان يدور حوله، وقد حفل ديوان

---

[١٥] ـ انظر المرجع السابق، ص ٢٢٦.

[١٦] ـ العمدة لابن رشيق، ج ٢، ص ٢٩٤، ط. التجارية.

شاعرنا بمثل تلك الصور واللوحات التي استحوذت على اهتمامه فوصف لنا الناقة والفرس والأطلال والليل والشيب والشباب والقوة والضعف والدموع والصحراء والمطر والبرق والسحاب والعواصف إلى غير ذلك مما كان محيطاً بهم من مظاهر الطبيعة الحية منها والصامة.

ونحن نوافق مصطفى صادق الرافعي على رأيه في هذا الصدد حيث يقول عن شعر الوصف عند القدماء من العرب:

"ولما كان الوصف عند العرب أشبه بالحقيقة العلمية كان الشاعر منهم لايتعاطى إلا مايحس من ذلك ضرورة وقد يشارك بأوصاف كثيرة ولكنه ينفرد بالشهرة في بعضها من جهة العلم لامن جهة الصناعة، فكلما كان أعلم بأجزاء الموصوف وحالاته وقدر على استقصاء هذا العلم في شعره كان أبلغ في الوصف وأولى بالتقديم فيه أن أحسن مايكون الوصف الصادق إذا خرج عن علم وصرفته روعة العجب فإن العلم يعطي مادة الحقيقة والعجب يكسبها صوراً من المبالغة الشعرية وكل وصف لايكون عن هذين الوجهين فهو تزيد من الكذب[17] .

والوصف قديم في الشعر فقد كان الشعراء يصفون مايشاهدون من مظاهر الطبيعة وشؤون الحياة يصفون الصحراء ومافيها من حيوان ونبات ويصفون الخيل والإبل والسلاح وأدوات الحرب ويصفون الليل والعواصف والنجوم والأمطار والناظر في شعر عبيد بن الأبرص يجد أن الوصف عنده قد شمل كل هذه الأشياء التي تحدثنا عنها كما يلاحظ أن وصف الفرس عند هذا الشاعر جاء في المقام الأول من شعره ثم تلته الناقة ثم بقية الأشياء المتحركة والصامتة ولاعجب في ذلك فالشاعر من قبيلة محاربة عنيدة أبناؤها على ظهور جيادهم الكريمة في أغلب الأحيان تحسباً لكل طارئ ولهذا كانت الحاجة إلى الفرس عندهم ماسة وملحة فهي عدة الفارس لملاقاة الأعداء ومطارداتهم.

وسنبدأ بالحديث عن الفرس عند عبيد بن الأبرص محاولين الكشف عن الأوصاف التي أرادها الشاعر لفرسه الذي لايفارقه فهو أليفه ورفيقه في السلم والحرب. يقول من البحر البسيط[18] :

وَلايُفَارِقُنِي مَاعِشْتُ ذُو حِقَبٍ ... نَهْدُ القَذَال جَوَادٌ غَيْرُ مِلْوَاحِ

---

[17] ـ تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، الطبقة الاستقامة، ١٩٤٠، ج ٣، ص ١٢١ـ ١٢٢.

[18] ـ انظر ديوانه، ص ٣٨.

أَوْ مُهْرَةٌ مِنْ عِتَاقِ الخَيْلِ سَابحَةٌ   كَأَنَّهَا سُحْقُ بُرْدٍ بَيْنَ أَرْمَاحِ

لقد وصف عبيد فرسه لوناً وسرعة ونسباً وخلقاً ولا عجب في ذلك فإن العرب كانت تعنى بالخيل عناية فائقة ولا أدل على ذلك من وصفهم العظيم لها ومن تأليف الكتب المتحدثة عنها وعن أنسابها الكريمة يقول عبيد واصفاً نسب فرسه الكريم من البحر الخفيف[19] :

أَوْحَشَتْ بَعْدَ ضُمَّرٍ كالسَعَالِي   مِنْ بَنَاتِ الوَجِيْهِ أَوْ حَلاَّبِ

وهاهو يصف لنا فرسه موضحاً ماتنفرد به من ميزات يقول والأبيات من مخلع البسيط[20] :

فَذَاكَ عَصْرٌ وقَدْ أُرَانِي   تَحْمِلُنِي نَهْدَةٌ سُرْحُوبُ

مَضَبَّرٌ خَلْقُهَا تَضْبِيْرَا   يَنْشَقُ عَنْ وَجْهِهَا السَبِيبُ

زَيْتِيَةٌ نَاعِمٌ عُرُوقُهَا   وَلَيِّنٌ أَسْرُهَا رَحِيْبُ

ففرسه مشرقة طويلة الظهر موثقة الخلق حادة البصر زيتية اللون موفورة الصحة لينة الجسم مطيعة لفارسها ثم يضيف إليها عناصر القوة والصبر والسرعة الفائقة فيقول من البحر الكامل[21] :

مِنْ كُلِ مَمْسُودِ السَرَاةِ مُقَلِّصٌ   قَدْ شَفهُ طُولُ القِيَادِ وَأَلْغَبُوا

وَطِمِرَّةٍ كالسِيْدِ يَعْلُو فَوْقَهَا   ضِرْغَامَةٌ عَبْلُ المَنَاكِبِ أَغْلَبُ

ويستطرد في وصف فرسه في حالة السلم، أو في حالات صيده فيمنح تلك الفرس مايناسبها من صفات ولأهم من صفتي القوة والسرعة هنا كي تكون قادرة على اللحاق بالفريسة ومما يوضح ذلك قوله والأبيات من البحر الطويل[22] :

وَقَدْ أَغْتَدِيْ قَبْلَ الغِطَاطِ وَصَاحِبِي   أَمِينَ الشَظَا رَخْوُ اللبَانِ سَبُوحُ

إذَا حَرَكْتَهُ السَاقُ قُلْتَ مُحَنَبٌ   غَضِيْضٌ غَذَتْهُ عَهْدَةٌ وَسُرُوحُ

مَرَابطُهُ القِيعَانُ فَرْدٌ كَأَنَّهُ   إذَا مَا تُمَاشِيهِ الظبَاءُ تَطِيحُ

ومن الملاحظ على فرس عبيد أنه يخلو من الصفات المبالغ فيها والتي تقترب من

---

[19] ـ انظر ديوانه، ص ٢١.

[20] ـ انظر ديوانه عبيد بن الابرص، ص ١٧.

[21] ـ انظر المرجع السابق، ص٥.

[22] ـ انظر المرجع السابق، ص ٣٣.

الصورة الأسطورية، وذلك بالقياس إلى شاعر كامرئ القيس.

أما فرس الحرب فإن شاعرنا يرسمها لنا في صورة رائعة وذلك في أكثر من موضع، وقد أفاد الشاعر فيما ينبغي أن تتوافر لها من خصال وبما تتمتع به من خصائص يقول والأبيات من البحر الكامل[٢٣] :

وَأَمِيْر خَيْـل قَـدْ عَصَيْـتُ بنَهْـدَةٍ	جَـرْدَاءَ خَاظِيَـةِ السَـرَاةِ جَلُـوس
خُلِقْـتَ عَلَـى عُسُـبٍ وتَـم ذَكَاؤُهَـا	وَأَحَـالَ فِيهـا الصنْـعُ غَـيْرَ نَحِيـس
وإذا جُهِـدْنَ وَقَـل مـاءُ نِطَافِهـا	وَصَلَقْـنَ في دَيْمُومَـةٍ إمْلِيْـس
تَنْفـي الأَوَائِـمَ عَـنْ سَـوَاء سَـبيلِها	شَـرَكَ الأَحِـز ةِ وَهِـيَ غـيرُ شَـمُوس
أَمـا إذَا اسـتَقْبَلْتَها فَكَأَنهَـا	ذَبُلَـتْ مِـنَ الهنْـدِي غـيرُ يَبُـوس
أَمّـا إذَا مَـا أَدْبَـرَتْ فَكَأَنهَـا	قـارُورَةٌ صَفْـرَاءُ ذاتُ كَبِيْـس

إنها فرس جميلة جسيمة قليلة الشعر مكتنزة اللحم وثيق الخلق قوائمها كجريد لانخل دقيقة، وقد اكتمل عمرها وتعهدها بالرعاية سائس ماهر مدرب فإذا ماقل الماء وشح وجهدت الخيل في طلبه وهن في فلاة مقفرة مجدبة رأيت تلك الفرس تغذ السير مسرعة نحوه ورأيت الإبل العطشى تفسح لها الطريق للوصول إلى منهل الماء، وهي على ذلك كله سهلة القياد لينة العريكة غير نافرة وهي سريعة في أرض المعركة لاينالها نائل.[٢٤]

---

[٢٣] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٦٩.

[٢٤] ـ راجع الصفحات ذات الارقام التالية في ديوان الشاعر وهو يصف فرس الحرب ويفيض في مميزاتها وذكر ما تتمتع به من خصال ص ١٠٢ن ص٧، ص ١٢٣. ومن ابياته التي وصف غيها فرس الحرب وهو من البحر الخفيف:

وَاذا الخيـل شمـرت عـن سـنا الحـر	ب وصـار الغبـار فـوق الـذؤاب
واسـتجارت بنـا الخيـول عجـال	متقـلات المتـون والاصـلاب
مصغيـات الخـدود شـعث النواصـي	في شمـاميط غـارة أسـراب
مسـرعات كـأنهن ضـراء	سمعـت صـوت هـاتف كـلاب
لاحقـات البطـون يصهلـن فخـراً	قـد حويـن النهـاب بعـد النهـاب

وقد بلغ الأمر بشاعرنا لشدة حبه وتعشقه للخيل أن يفضل أن يكون لونٍ فرسه كميتا تخالط حمرته بعض السواد، ومن المستحب أيضاً أن يكون جلده صافياً لا شائبة فيه، وأن تكون جوانب الحوافر فيه تحمي أرجله من الرمض وأن يكون ضخم الجنبين ولكن الأمر الأهم من هذا وذلك هو نقاء نسبه وضورة الأصالة فيه والشاعر يؤكد على هذه الخصيصة وقد كان له ماأراد يقول من الطويل[٢٥] :

وَقَدْ أَغْتَدِيْ فِي القَوْمِ تَحْتِي شِمِّـلَةٌ   بطَـرْفٍ مِنَ السِيْدَان أَجْـرَدَ مَنْسُـوبِ

كُمَيْـتٍ كَشَـاةِ الرَمْـلِ صَـافٍ أَدِيْمُـهُ   مُـفَجِ الحَوَامِـي جُرْشَـعٍ غَـيْرِ مَخْشُـوبِ

وهكذا فإن صورة الفرس في حالتي السلم والحرب تأتي على نهايتها عند عبيد الشاعر الفارس، وهو في وصفه لها وذكره لكل صفاتها وخصالها وسجاياها إنما يمثل وجدان الإنسان العربي في الجاهلية، ويصور أهمية الخيل في حياته، وهي على هذا صورة معبرة عن بعض زوايا الحياة التي كان يحياها العربي الجاهلي اجتماعياًوسياسياً وسنتناول هذا بشيء من التفصيل عند حديثنا في الباب الثاني عن أبرز صور لبيئة في شعر هذا الشاعر.

وصف الناقة:

شغلت الناقة مساحة واسعة من الشعر العربي في الجاهلية، وماذاك إلا لأهميتها البالغة في حياتهم، فبدونها تتعذر الحياة في الصحراء ويستحيل المقام والتنقل في أرجائها الواسعة، ولذلك فقد كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربي فهي سفينته وهي رفيقته في تحمل المشاق والصعاب وعليها يتنقل ومن خيرها يكتسي ويتغذى، وهي المنقذ له إذا مااشتبهت عليه الطرق، ولقد أدرك الإنسان العربي الجاهلي قيمة الناقة بعقله وحسه وبفطرته، فقال فيها أجمل الألحان ومنحها من الرعاية والاهتمام والحب والوصف ما لم يمنحه لأي حيوان آخر، وشاعرنا عبيد بن الأبرص أحد هؤلاء الشعراء الذين وصفوا الناقة فأجلدوا في وصفها وكأنهم قد عشقوها.

ليس غريباً أن رأينا عبيداً، وهو ابن البادية وابن القبيلة التي كانت على عهد شبه دائم بالحرب يقف أمام الناقة مدققاًمتفحصاً ثم واصفاً إياها بصفات تغلب عليها الضخامة والقوة والسرعة والخفة والنشاط والشدة وقوة الاحتمال.

---

[٢٥] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٢٦، ٢٦.

لقد شبه عبيد الناقة بتشبيهات مختلفة وكلها مستمدة من البيئة الجاهلية. فصور أخلاقها وطباعها وهي عنده حسنة الأخلاق صابرة صامتة مطيعة وهي وجناء عنتريس وجسرة ناجية وجلالة وذمول وشملال وخبوب وهي كعلاة القين وهي موثقة الخلق أمون وستتضح لنا حقيقة ذلك في الفصل الخاص بدراسة أبرز صور البيئة[٢٦] .

وصف البرق والسحاب والمطر والعواصف

يعيش البدوي في صحراء قاحلة جرداء قلما تخصب فهي خالية من الأنهار الجارية وجل اعتمادها على الأمطار فإذا مانزلت الأمطار رأيت هؤلاء البدو يتهيؤون للرحيل إلى الأماكن الخصبة التي تمرح وتعشوشب ورأيتهم على غاية من الفرح والحبور. فالمطر يعني الخير لهم ولماشيتهم وعلى الماء تتوقف حياتهم ولذلك فهو نادر عزيز عندهم، وكم من غارة وحرب شبت بسببه.

ولقد فتن الشعراء بمظهر المطر والسحاب وابتهجوا لمنظر السيل إلى حد بعيد فأخذوا يصفون هذه الصورة في أشعارهم بكل إعجاب وحب. ذاك من جهة، وكان حبهم وشغفهم بمنظر السحاب والمطر والسيل مما يستتبع ذلك من مظاهر تنتج عنه من اخضرار الأرض وخروج الطيور مغردة فرحة وصفاء الجو من الغبار بعد نزيل المطر عليها وريها يعني شيئاً جديداً وطارئاً وحدثاً سعيداً طال انتظارهم له وقد يبلغ ذلك الانتظار سنتين طوالاً.

وشاعرنا من أوائل الشعراء الجاليين الذين وصفوا البرق والعواصف والمطر

---

[٢٦] - راجع الصفحات التالية في ديوان عبيد في وصف الناقة: ص٣٩, ١٠٢, ١٠٣, ١١٠, ١١٣, ٤٣, ٤٤, ص١٦, ص٢٨, ٨٤, ٤, ٥, ٢٧, ٦٨, ٦٩

ومن قوله يصف الناقة والأبيات من البحر البسيط:

وَقَدْ أُسَلِّي هُمُومِي حِيْنَ تَحْضُرُنِي ... بِجَسْرَةٍ كَعَلاةِ القَيْنِ شِمْلَالِ

زَيَّافَةٍ بِقُيُودِ الرَّحْلِ نَاجِيَةٍ ... تَغْرِي الهَجِيرَ بِتَبْغِيلٍ وإرْقَالِ

مَقْذُوفَةٍ بِلَكِيكِ اللحْمِ عَنْ عُرُضٍ ... كَمُفْرَدٍ وَحِدٍ بِالجَوِّ ذَي ال

ويقول في موضع آخر والبيتان من البسيط:

وَمَهْمَهٍ مُقْفِرِ الأَعْلامِ مُنْجَرِدٍ ... نَائِي المَنَاهِلِ جَدْبِ القَاعِ مُنْسَاحِ

أَجَزْتُهُ بِعَلَنْدَاةٍ مُذَكَّرَةٍ ... كَالعِيْرِ مَوَّارَةِ الضَبْعَيْنِ مِرَاحِ

والسحاب ولعله سبق جيل امرئ القيس إلى ذلك.

وقد جاء وصف هذه المظاهر على لسان عبيد أكثر من أي شاعر معاصر له. كعمرو بن قميئة والأهوةُ الأودي وطفيل الغنوي وابن دؤاد الأيادي ولعل السبب راجع في ذلك إلى كون عبيد يعيش في قبيلةبدوية مغرقة في بداوتها وتقطن منطقتي حائل والقصيم حالياً حيث تقل الأمطار كثيراً فيها عن بقية مناطق نجد رغم قلتها بوجه عام في شبه الجزيرة العربية[27] .

ولذا فقد رأينا عبيداًيفرد قصيدة كاملة في وصف البرق والسحاب والمطر "ينسبها بعضهم لأوس بن حجر" ونرجح أنها لعبيد لكثرة ماوصف به مظاهر الطبيعة ومجيء قصيدة أخرى على الوزن نفسه والقافية.

وقد أثبتت بديوانه من تحقيق الأستاذ الدكتور حسين نصار ومن قبله أثبتها تشارلز ليل في ديوان عبيد والذي يقول فيها وهي من البسيط[28] :

يَا مَنْ لِبَرق أبيْتُاللَيْلَ أرْقُبُهُ ... مِنْ عَارض كبَيَاض الصبْح لَماح

دَان مُسِف فُوَيْق الأرْض هَيْدَبُهُ ... يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بالراح

يَنْزِعُ جِلْدَ الحَصَى أجَش مُبْتَرِكُ ... كَأنهُ فَاحِصٌ أو لاعِبٌ دَاح

كَأن رَيقَهُ لَمّا عَلا شَطِبا ... أقْرابُ أبْلَقَ يَنْفي الخَيْلَ رَمّاح

فالْتَج أعْلاَهُ ثُم ارتَج أسْفَلُهُ ... وَضَاقَ ذَرْعاً بحَمْل الماء مُنْصَاح

كَأنّ ما بَيْنَ أعْلاهُ وَأسْفَلِهِ ... رَيْطٌ مُنَشَّرَةٌ أوْ ضَوْءُ مِصْبَاح

كَأن فيهِ عِشاراً جِلّةً شُرُفا ... شُعْثاً لَهَا مِيمَ قَدْ هَمّتْ بإرْشَاح

بُحّاً حَنَا جرُها هُدْلاً مَشَافِرُها ... تُسِيمُ أوْلادَها في قَرْقَرٍ ضَاحي

هَبّتْ جَنُوبٌ بأُولاهُ ومالَ بِهِ ... أعْجَازُ مُزْن يَسُح الماءَ دَلاّحِ

فَمَنْ بنَجْوَتِهِ كَمَنْ بمَحْفِلِهِ ... والمُسْتَكَنُ كَمَنْ يَمشي بقِرْوَاح

فأصْبَحَ الرَوْضُ والقِيْعَانُ مُمْرِعَةً ... مِنْ بَيْن مُرتَفِق فيهِ وَمِنْ طاحي

فهو يتابع حركة السحاب والبرق طوال الليل وهو يعترض الأفق وكان قريباًمن

---

[27] ـ انظر مواطن القبيلة في هذا البحث ومصور هذه المواطن.

[28] ـ انظر ديوانه ص٣٤.

الأرض شديد الدنو منها حتى ليخيل للقائم بأنه يستطيع رفعه بيده وأخيراً نزل المطر الشديد وأخذ يضرب بقطراته الأرض والحصى وكأنه صبي يلعب بالمدحاة وهي لعبة بالعصا لاتزال إلى يومنا هذا وهذاالمطر فعل بالأرض كما تفعل المدحاة بما أمامها. إنها تجتاح كل شيء.

وهو في نزول قطراته ولمع برقه الأبيض شبيه بتكشف الفرس الأبلق وقت عدوه وسبقه لأقرانه.

وعندما لم يطق السحاب حمل الماء وتشقق وتدفق الماء من خلاله ويندفع إلى الأرض مسرعاً ولشدة غزارة المطر فقد حجب ضوء البرق وأراد أن يصور لنا عظم قطرات المطر فشبهها بالنوق العشار التامة الحمل وهي غليظة الصوت خشنة ترعى بأطفالها في أرض لينة.

ويحدد الشعر الجهة التي جاءت بذلك السحاب والمطر فقد كان قادماً من الجنوب في أول الأمر "جهة المحيط" ثم مالت به الرياح فنزل في نهاية المطاف يتدفق بكثرة.

ويأتي على وصف الأثر الذي خلفه ذلك المطر الغزير ويتحدث عن النتائج السارة التي تمخض عنها فهو من الغزارة بحيث لم ينج منه الذي وقر في بيته وأراد حماية نفسه منه ولا ذلك الذي يسير تحته فقد عم المرتفعات والمنخفضات فكانت النتيجة أن أزهرت الأرض وأخصبت.

ونرى شاعرنا يرسم صورة دقيقة أخرى لعاصة هبت ذات يوم حيث يقول والقصيدة من الكامل[٢٩] :

سَقَى الرّبابَ مُجَلْجِلُ الـ	أَكْتَافِ لَمّاحُ بُرُوقُهْ
جَوْنٌ تُكَرْكِرُهُ الصبَا	وَهْناً وَتُمْرِيهِ خَرِيقُهْ
مَرْيَ العَسِيفِ عِشَارُهُ	حتى إذَا دَرتْ عُرُوقُهْ
وَدَنَا يُضِيءُ رَبَابُهُ	غَاباً يُضَرّمُهُ حَرِيقُهْ
حتى إذا ماذَرْعُهُ	بالماءِ ضَاقَ فَمَا يُطِيقُهْ
هَبتْ لَهُ مِنْ خَلْفِهِ	ريحٌ يَمَانِيَةٌ تَسُوقُهْ
حَلّتْ عَزَالَيْهِ الجَنُو	بُ فَثَج واهِيَةً خُرُوْقُه

فالشاعر يحدد منطقة الرباب قرب المدينة بأنها قد غصت بالمطر وهي منطقة بني أسد

---

٢٩ ـ انظر ديوانه، ص ٩٠.

بن خزيمة فقد أرعدت ثم أمطرت من جراء سحابٍ أسود مثقل بالماء كان يعلو في الجو.

وكلما كان السحاب أسود كان مطره غزيراً وذلك السحاب كانت الصبا ترد رده في الليل ثم اشتدت عليه الرياح فانساح على الأرض دفقاً كما يتدفق الحليب من النوق العشار.

ولمع البرق فأدنى ذلك السحاب الذي يشبه الآجام وكأنه غابة اشتد بها حريق هائل فتكاثفت تلك السحب وضاقت ذرعاً بحمل الماء فلعبت فيها الرياح اليمانية الجنوبية فأضعفت تماسكها وأسالت ماءها من مصابه.

وهذا هو عبيد يصف لنا برقاً خلبياً إن صح التعبير فقد كان برقاً بلا مطر حيث يقول والأبيات من البسيط المجزوء[٣٠] :

مَــــارَعَدَتْ رَعْــــدةً وَلَــــــابَرَقَتْ   لَكِنهَــــا أُنْشِــــئَتْ لَنَــــا خَلِقَــــةْ

المَــــاءُ يَجــري عَلَـــى نِظَــــام لَــــهُ   لَــــوْ يَجِــدُ المَــــاءُ مَخْرُقــاً خَرَقَــــهْ

بتْنَــــا وبَـــــاتَتْ عَلَــــى نَمارقِهَـــــا   حتـــى بَــــدَا الصّبْــــحُ عَيْنُهــا أَرِقَــــةْ

ويصف لنا أيضاً برقاً ظل يرقبه طوال الليل وظاهرة الترقب للبرق واضحة عند عبيد بن الأبرص ويلازمها الأرق والقلق مما يدل على شدة التلهف والشوق. ويقول المنسرح[٣١] :

صَــاح تَــرَى بَرْقَــاً بــــت أَرْقُبُــــهُ   ذاتَ العِشَـــــاء ِ في غَمَـــائِمَ غُــــر

فَحَـــــل بَرْكُـــــهُ بأَسْـــــفَل ذِي   رَيْــــدٍ فَشَـــــن في ذِي العِشْـــــيَر

فَعَنْـــــسَ فالعُنّـــــابِ فَجَنْبَـــــيْ   عَــــرْدَةَ فَبَطْـــــن ذي الأجْفُـــــر

فنلاحظ تعلق نظر الشاعر بذلك البرق أينما لمع وبتلك السحب أنى تحولت ويفصح لنا عبيدٌ أخيراًعن هذه التساؤلات حول اهتمامه بوصف البروق والسحائب والسيول والأمطار ويضع الإجابة التي تقطع الشك باليقين قائلاًوالأبيات من البسيط[٣٢] :

يَــامَنْ لِــبَرْق أبيــتُ اللّيْـــلَ أَرْقُبُــــهُ   في مُكْفَهِّـــــر وفي سَـــــوْدَاءَ مركُومَــــــةْ

فَبَرْقُهَــــا حَـــرْقٌ وماؤُهَــــا دَفِـــقٌ   وَتَحْتَهـــا رتيـــقٌ وَفَوْقَهَــــا دِيمَـــــةْ

فَذَلِـكَ المَــاءُ لَـوْ أَنــي شَــربْتُ بِـــهِ   إذَنْ شَــفَى كَبِــداً شــكاء مَكْلُومَـــــةْ

إذن فهو المحل والجدب والقحط، وهو شوق البدوي إلى ماء السماء الذي يلذ لشربه

---

[٣٠] ـ انظر ديوانه، ص ٩٠.

[٣١] ـ انظر ديوان ص٦٣, ٦٤, ١٣٩, ٧٦, ١٦.

[٣٢] ـ انظر ديوانه، ص ١٢٩.

ويسعد، وبه تعيش سوائمه وعمدة حياته في تلك الصحراء الجرداء إنه يرى في البرق والسحاب تجدد الحياة وانبعاث الأمل لهذا رأينا القلق والأرق يبدوان على الشاعر وهو يصف لنا البروق والسحائب ويتابع بنظره وبكل جوارحه المكان الذي تأتي منه السحب والمكان الذي تذهب إليه وتمطر عليه ويظل الليل ساهراً ليقف بنفسه على النتيجة.

لقد كان هذا النوع من الوصف قطعة من حياة البدو الجاهليين متصلة بحياتهم أوثق اتصال ومعبرة عن شوقهم إلى الارتواء والخصب والتمام ونحن نرى في شاعرنا عبيد بن الأبرص رائد هذا النوع من الوصف ممن وصلنا شعرهم ولقد تأثر به الشعراء من بعده، ومنهم امرؤ القيس بن حجر في بعض ما جاء به من وصف للبرق والسحاب والسيل وسوف نتعرض لذلك التأثير في الدراسة الفنية في الفصل الأخير من هذاالبحث.

وصف السلاح:

السيف والرمح والقوس والسهم والخوذات والدروع أسلحة عرفها الإنسان العربي الجاهلي واستخدمها في حروبه وغاراته، وبمعنى آخر فقد كانت تلك الأسلحة وسيلته في القتال وهي ملازمة له لاتفارقه في حربه وغدوه وصيده وحله وترحاله، بها يدفع الشر والأذى عن نفسه وبواسطتها يصون كرامته وكرامة قبيلته وكلما كان أمهر في استخدامها في ساحة الوغى كان النصر إليه أقرب.

ومن الطبيعي أن نجد عند عبيد بن الأبرص الشاعر الفارس مثل ذلك الوصف للأسلحة التقليدية التي كانت سائدة منتشرة في ذلك الحين فقد كان شاعرنا فارساً مقداماً كما رأينا وهو من قبيلة بدوية محاربة كانت تعيش في ظروف قاسية، تحف بها المخاطر من كل جانب شأنها في ذلك شأن أغلب القبائل العربية البدوية فهي والحرب على عهد ومن كان هذا ديدن حياته لابد له من العناية الشديدة بأسلحته، وقد عني عبيد بسلاحه ووصفه وصفاً بارعاً، وقد رأينا من قبل احتفاءه بالفرس والناقة وهما من عدة الحرب وسنرى الآن نماذج من وصفه لبقية أنواع السلاح التي استخدمها هو وقومه في معاركهم.

فالسيف الذي يمتشقه عبيد أبيض ماض حده قاطع لامع الصفحة إلى جانب رمح تعلوه قناة لينة لدنة يبلغ من الطول خمسة أذرع، وهو مثقف مقوم أملس ركبت في رأسه السنان والشاعر ينسبه إلى الهند فيقول "من الكامل"[٣٣] :

---

[٣٣] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٧٠ ـ ٧١.

هـــاتِيكَ تَحْمِلُــني وأبيــضَ صارمــاً ۝ وَمُحَـــرَّ بـــاً في مَـــارن مَخْمُـــوس
صَـدْق مِـنَ الهنْــدِيّ أُلْبــس جُبّــةً ۝ لَحِقَــتْ بكَعْــبٍ كــالنّواةِ مَليـــس

ولقد كثرت أوصاف السيف عند العرب الجاهليين، فهو رمز القوة ولذا فقد أطلقوا عليه صفات مختلفة أضحت هذه الصفات فيما بعد أسماء له، وقد ذكر النويري في نهاية الأرب تلك الصفات وفصل فيها[٣٤]

والسيف الذي استخدمه عبيد في أحد أيام القبيلة كان أبلح وضاء مشرقاًمحزز الأوساط جداً، ويردفه في ذلك رمح طويل معتدل مقوم وكأنه حبل ليف أحكم ضفره يقول عبيد من البسيط[٣٥] :

لَمــا رَأَوْكَ وَبُلْــجُ البيــض وَسْــطُهُمُ ۝ وكُــل مُطــــردِ الأُنْبُــوبِ كَالمَسَـــدِ

وإذا كان رمح عبيد أسمر اللون ينصبه ويستقبل به الأشراف والسادات من الناس ذوي المكانة والرفعة وهو بتلك الصفات التي مرت معنا فمن الطبيعي أن تكون طعنته نافذة نجلاء قاتلة، وهي لابد ستثنى لحمه وتفري مهجته يقول من الوافر[٣٦] :

وأَسْـمَرَ قَــدْ نَصَبْــتُ لِــذي سَـناء ۝ يَـــرَى مِنّـــي مُخَالَطَـــةَ اليَقِيْـــن
يُحَـــاولُ أَنْ يَقُـــومَ وَقَـــدْ مَضَتْـــهُ ۝ مُغَابنَـــةٌ بـــذِي خُـــرُص قَتـــين
إذا ماعـــادَهُ مِنْهـــا نِســـاءٌ ۝ سَـفَحْنَ الـد مْعَ مِـــنْ بَعْــدِ الرَّنـــين

لقد نفذت فيه الطعنة فخارت قواه،وانكب على الأرض و لم يعد بقادر على القيام، والشاعر ينظر إليه ويعاينه وقد علته نشوة الانتصار وكان أن اجتمعت عليه نساء قومه يندبن ويسفحن الدمع على ماأصابه.

وصف لنا عبيد طعنة أخرى من طعناته الماضيات، وهذا يجعلنا نؤكد ونجزم بفروسيته وسيادته في قومه في شبابه ونسلم لما كانت له من منزلة رفيعة يقول في وصف طعنة سددها لأحد الأبطال الكماة "من الطويل"[٣٧] :

وَقَــدْ أَتْــرُكُ القَــرْنَ الكَمِـــي بصَــدْرِهِ ۝ مُشَلْشَـــلَةً فَـــوْقَ النِطَـــاق نَفُـــوحُ

---

[٣٤] ـ انظر نهاية الأرب للنويري الجزء السادس ص٢٠٢-٢٠٣ نسخة مصورة من دار الكتب طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف.
[٣٥] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٦٠.
[٣٦] ـ انظر المرجع السابق، ص ٤ . ١.
[٣٧] ـ انظر ديوان عبيد ص٣٢.

دَفُـــوعٌ لأَطْـرَافِ الأَنَـــامِلِ ثَـــرةٌ لَهَـا بَعْـدَ إنْـزَافِ العَبِيْــطِ نَسِــيْحُ

السيد نظيره السيد، والسيد لايطعن إلا في الصدر، وقد كان عبيد كذلك، وطعنة الشجاع قوية نافذة ينبثق منها الدمع انبثاقاً وينتشر انتشاراً، وهي لقوتها تدفع الأيدي لقوة انفجار الدم منها، وقد كانت طعنة عبيد كذلك،وطعنته للأبطال لابد أن يتبعها نواح، وصياح من أهل المطعون ذلك أنها ستورده حوض المنية يقول من الطويل[38] :

إذَا جَـاءَ سِـرْبٌ مِـنْ نِسَـاء يَعُدْنَــهُ تَبَــادَرْنَ شَــتى كُلُهُـــن تَنُـــوحُ

ومن خلال تلك الطعنات نستطيع أن نتعرف على رمح عبيد، فهو رمح لين مرن مقوم طعنته قاتلة لاتخيب ذلك لأنه محكم الصنع متقنه هكذا رماح بني أسد فهي صلبة وغالباًماتكون مصنوعة من شجر الوشيج ترى الدماء تسيل من العروق بعد طعناتهم النافذة يقول من الكامل[39] :

وَتَجَــاوَزُوا ذَاكُمْإلَيْنَــا كُلُـــهُ عَــدْواً وَقَرْطَبَــةً فَلمــا قَرِبُــوا
طُعِنُـوا بمُـران الوَشِــيْجِ فَمَـا تَـرَى خَلْـفَ الأَسِـنَّةِ غَـيْرَ عِـرق يَشْـخَبُ

وكما وصف عبيد السيف والرمح والطعنة فقد وصف لنا الجيش وقد صوره لنا جيشاً كثير العدد والجلبة والضوضاء، فهو يغطي كل شيء لكثرته كما يغطي سواد الليل سائر الأشياء وهو لهام يلتهم مايصادفه من الأعداء فلاشيء يقف في طريقه، وفيه كل كريمة النسب من الخيل، وكل شديدة وقد بدت أسنانها على اللجام وهي تعارض وتسابق غيرها من الخيل في عناد يقول في وصف ذلك الجيش "من البسيط"[40] :

أو لا أتَــوْكَ بجَمْــعِ لاكِفَــاءَ لَـــهُ قَـوْمٌ هُـمُ القَـوْمُ في الأَنْـأَى وفي البُعْـدِ
بجَحْفَــلِ كَبَهيــمِ الليْــلِ مُنْتَجِـــعِ أرضَ العَــدو لُهَـــام وافـــرِ العَـــدَدِ
مِــنْ كُــل عِلْجِــزَةٍ بــادٍ نَوَاجذُهــا عَلَـى اللّجَـام تُبـاري الرَكْـبَ في عَنَـدِ

ويحدد الشاعر ذلك الجيش بصورة أوضح حين يحدد لنا سلاحه وعدته، فالخوذات الحديدية التي يلبسها الفرسان لها بريق كبريق النار الملتهبة في أعالي المرتفعات يقول من

---

[38] ـ انظر المرجع السابق ص٣٣.
[39] ـ انظر المرجع السابق، ص ٣
[40] ـ انظر ديوان عبيد ص٥٨-٥٩.

الكامل[41] :

بَــلْ لامَحالَــةَ مِــنْ لِقَــاء فَــوَارِس	كُــرُم متــى يُدْعَــوْا لِــرَوْعِ يَرْكَبُــوا
شُــمٌ كــأَن سَــنا القَوانِــس ِفَوْقَهُــمْ	نــارٌ علــى شَــرَفِ اليَفــاع تَلَهــبُ
تَمْشِــي بِهِــمْ أَدْمٌ تَئِــط نُسُــوعُها	خُــوصٌ كَمَــا يَمشــي الهِجَــانُ الرَبْــرَبُ
وَهُــمُ قَــدْ اتخَــذُوا الحَدِيــدَ حَقائِبــاً	وَخِلالَهُــمْ أُدْمُ المَراكِــلِ تُجْنِــبُ
مِــنْ كُــلِ مَمْسُــودِ السَــرَاةِ مُقَلِّــص	قَــدْ شَــفهُ طُــولُ القِيــادِ وَأَلْغَبُــوا
وَطِمِــرةٍ كالسِــيدِ يَعْلُــو فَوْقَهَــا	ضِرْغامَــةٌ عَبْــلُ المَنــاكِبِ أَغْلَــبُ

فالخوذات حديدية ولها بريق لامع، وهذا شيء جديد عند شاعرنا فمن أين تلك الخوذات؟ هل جلبت من أرض الفرس؟ أو من أرض الروم؟ أو أن لها مصدراً آخر؟ والدروع الحديدية التي جعلوها من خلفهم من أين جلبوها؟ ومن الملاحظ أن هذا الجيش قد استخدم كل نجيبة من الخيل وكريمة من الإبل البيض، وتتكرر صورة الجيش عند عبيد ثلاث مرات لكنه لايخرج فيه عن إطار اللوحة السابقة في وصفه.

كما لم يفت شاعرنا أن يصف لنا راية الحرب، مما يجعلنا نستنتج أنه كان لكل قبيلة راية محددة في الحرب تكون على صورة عقاب أو أسد أو غير ذلك مما يتعارف عليه أبناء القبيلة يقول من الكامل المرفل[42] :

وَلَــرُبَّ سَــيِّدِ مَعْشَــر	ضَخْــم الدَّسِــيعَةِ قَــدْ رَمَيْنَــا
عِقْبانُــهُ بِظِــلالِ عِقْبــا	نِ تَيَمُــمُ مَــنْ نَوَيْنَــا

ونرى شاعرنا يذكر الراية في موقع آخر فيقول من الكامل[43] :

بِمُعَضَــلٍ لَجِــبٍ كــأَن عُقَابَــهُ	في رأس خُــرص طــائِرٌ يَتَقَلَّــبُ

وهكذا نجد عبيداً في وصفه للجيش والمعارك والسلاح من سيف ورمح، وطعنة ودرع،وخوذة وراية، منسجماًومتلائمامع متطلبات البيئة الجاهلية القبلية، كما نعرف من خلال ذلك أن قبيلة بني أسد كانت تعنى بالقوة العسكرية المدربة، وبزيادة عدد الفرسان وتسليحهم بالسلاح الذي جلب من خارج أرض الجزيرة على ما نظن، ذلك

---

[41] ـ انظر المرجع السابق ص٤٠- ٤١- ٦- ١٢٣.

[42] ـ انظر ديوان عبيد ص٣٨ والعقبان هي الرايات. ٢-انظر المرجع السابق ص٦.

[43] ـ انظر ديوان عبيد ص١٨-٢٠.

أن العرب لم يكونوا عارفين بعض تلك العدد الحربية، ويقال بأنهم قد عرفوا صناعة الرماح والسيوف فقط كما في منطقة الخطى في البحرين وإليها تنسب الرماح الخطية الجيدة، ولذا فقد كان وصف السلاح نابعامن صميم البيئة التي عاشها الشاعر، وهوتعبير عن شكل الحياة العربية الجاهلية، وماكان يدور فيها من نزاعات بين القبائل، ومايستتبع ذلك من وجوب تعلم فنون الحرب واستخدام مثل تلك الأسلحة.

كما تعرض عبيد بن الأبرص لوصف كثير من مظاهر الطبيعة مما يدور حوله، ويحيط به من طير وحيوان وغير ذلك وهاهو يصف لنا العقاب، والعقاب طائر جارح معروف في الحياة العربية منذ القديم يقول في معرض الحديث عن ناقته وتشبيهها بالعقاب "من مخلع البسيط"[٤٤] :

كَأَنها لِقْوَةٌ طَلُوبُ	تَحِنُّ في وَكْرِهَا القُلُوبُ
باتَتْ عَلَى إرَمٍ رابِئَةً	كَأَنَّها شَيْخَةٌ رَقُوبُ
فأصْبَحَتْ في غَداةِ قِرَّةٍ	يَسْقُطُ عَنْ رِيشِها الضرِيبُ
فَنَهَضَتْ نَحْوَهُ حَثِيثَةً	وحَرَدَتْ حَرْدَةً تُسيبُ
فَأَدْرَكَتْهُ فَضَرجَتْهُ	وَالصَّيْدُ مِنْ تَحْتِهَا مَكْرُوبُ
يَضغُو وَمِخْلَبُها في دَفِّهِ	لا بُدَّ حَيْزُومُهُ مَقْلُوبُ

ومثل هذا المنظر الذي وصفه عبيد كثير الوقوع في الصحراء، فهو مألوف من الحياة اليومية فيها والنصر فيها للأقوى كما أن الصيد بالكلاب معروف ومألوف عند العرب، وقد ذكره الشعراء كثيراًفي معرض حديثهم عن الثور الوحشي، وحمار الوحش، وبخاصة عند الجاهليين، ولقد أدلى عبيد بدلوه في هذا المضمار يقول من الطويل[٤٥] :

مَرَابِضُهُ القيعانُ فَرْدٌ كَأَنَّهُ	إذا ما تُماشيهِ الظِّبَاءُ تَطيحُ
فَهَاجَ لَهُ حيي غَدَاةً فأَسْدُوا	كِلاباً فَكُلُّ الضارِياتِ شَحيحُ
إذا خافَ مِنْهُن اللحاقَ نَمَتْ بِهِ	قَوائِمُ حُمْشَاتِ الأسافِلِ رُوحُ

غير أن مثل هذا المنظر لايتكرر في شعر عبيد كثيراًكما نجده عند غيره من الشعراء

[٤٤] ـ انظر ديوان عبيد، ص ١٨ ـ ٢٠.
[٤٥] ـ انظر المرجع السابق ص١٢٩.

الجاهليين كالأعشى مثلا ولعل ذلك يعود إلى ضياع شعر شاعرنا خاصة وأنه يعد من أقدم شعراء الجاهلية.

ووصف عبيد الصحراء، وحرها، ولهيبها، واشتباه الطرق فيها وسعتها يقول من البسيط:[٤٦]

هذا وَدَوِيةٌ يَعْيَا الهُداةُ بهَا نَاء مسافَتُها كالبُرْدِ دَيْمُومَةْ

جاوزْتُ مَهْمَهَةَ يَهْماهَا بعَيْهَمَةٍ عَيْرَانَةٍ كَعَلاة القَيْنِ مَعْقُومَةْ

أرمي بِهَا عُرُضَ الدَّوي ضامِزةً في ساعةٍ تَبْعَثُ الحرباء مَسْمُومَةْ

وللعربي في وصف الصحراء مذاهب شتى فقد وصفها الشعراء وتفننوا في وصفها كالأعشى وامرئ القيس وذي الرمة بعد ذلك، وقد صورها هؤلاء بصور مخيفة، فهي مهلكة لايسطاع قطعها، وقد رأى بعضهم أن فيها عزيفاً للجن، وربما رآها الأعشى في استوائها وعريها وملاستها كظهر الترس ويتضح هذا من قوله "من البسيط"[٤٧] :

وَبَلْدَةٍ مِثْل ظَهْر التُرْس مُوْحِشَةٍ للجن بالليْل في هَافَاتِهَا زَجَلُ

ونحن نوافق الأستاذ عبد العظيم القناوي حين قال في كتابه "الوصف في الشعر الجاهلي" أن عبيداً يعد من أقدر وصافي الطبيعة، وشعره على قلته يزخر بوصفها، وهو يعتبر زعيم الوصافين الواقعيين، فتصويره دقيق صادق لاتكلف فيه ولامبالغة، وصوره واضحة بارزة، وبعد فعبيد شاعر معجب بالطبيعة فأولته آياتها، ومنحت شعره محاسنها، والواقع أن من يجيل النظر في وصف عبيد للطبيعة الساكنة أو المتحركة يجد أن وصف هذا الشاعر يدل على قدرة فائقة في الوصف واحتفاء كبير في موضوعات الطبيعة كوصفه للبرق والمطر والسحاب، وكوصفه للصحراء وحيوانها[٤٨] ولقد كان

---

[٤٦] ـ انظر المرجع السابق، ص ١٢٩

[٤٧] ـ انظر شرح ديوان الأعشى الكبير تحقيق وشرح الدكتور محمد محمد حسين ص١٠٩ القصيدة رقم٦ وكان ممن وصف الصحراء أيضاً بشر ابن أبي خازم الأسدي يقول بشر من الوافر:

وَخِرْقٍ تَعْزِفُ الجِنانُ فيهِ فَيَافِيهِ تَحِنُ بهَا السس هَامُ

نَعَسْرْتُ ظِباءَهَا مُتَغَوراتٍ إذا اد رَعَتْ لَوَامِعُها الأكَامُ

[٤٨] ـ انظر الوصف في الشعر الجاهلي للأستاذ عبد العظيم القناوي الجزء الأول ص٢٦٣ مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

شاعرنا كما نراه في وصفه للطبيعة يصدر عن صور مستقاة من واقع مايعيشه ومايراه.[49]

ولمجالس اللهو والطرب والشرب نصيب عند عبيد أيضاً يقول من الطويل[50] :

وَمُسْمِعَةٍ قَدْ أضْحَلَ الشرْبُ صَوْتَهـا ... تَـأوّى إلى أوتـار أَجْـوَفَ مَحْشُـوبِ

شَـهِدْتُ بفتيـانِ كِـرامٍ عَلَيْهِـمُ ... حِبـاءٌ لِمَـنْ يَنْتـابُهُمْ غـيرُ محجُـوبِ

وَخِـرْقٍ مِـنَ الفِتيـانِ أكْـرَمَ مَصْدَقـاً ... مِنَ السـيْفِ قَـدْ آخَيْـتُ ليسَ بِمَـذْرُوبِ

كما وصف عبيد الشيب أيضاً، وقد ذمه وعده أمراً مشيناً بل في غاية السوء يقول من البسيط[51] :

بَانَ الشـبابُ فـآلى لا يُلِـمّ بنَـا ... واحْتَلَ بـي مِـنْ مَشِـيبٍ أَي مِحْـلالِ

والشـيْبُ شَـيْنٌ لِمَـنْ أرسـى بسـاحَتِهِ ... للهِ دُر سَـوَادِ اللّمَـةِ الخـالي

إننا لنرى عبيداً محقاً في هذا، فهو في بيئة لايعيش فيها إلا القوي وهي لاتحترم ولاتقدر إلا القوة، غير أننا نرى كذلك أن موقف شاعرنا في ذمه للشيب، وتضجره منه يتسم بالعقلانية والتسليم بالواقع فهو يتخذ من الشيب رادعاً له يقول من البسيط[52] :

تَصْبُـو وَأنّـى لَـكَ التصَـابي ... أنّـى وَقَـدْ رَاعَـكَ المَشِـيْبُ

وعلى الرغم من شيوع الخمر في الجاهلية والتمدح في شراء المعتق منها وشربها واعتبار ذلك مظهراً من مظاهر السيادة والفروسية عندهم إلا أننا لانقع على وصف كثير لها في ديوان عبيد بن الأبرص، وهو الفارس المعلم والشاب اللاهي وابن السادة، ونديم الملوك، وقد ورد ذكر الخمر عرضاً في شعره مرتين[53] .

مما يجعلنا نشك في أن شعر عبيد الخمري لم يصل إلينا، وأن الكثير منه ضاع من أيدي الرواة لسبب ما أو لآخر.

---

[49] ـ انظر بيتا بشر بن أبي خازم في المفضليات ص٣٣٤ طبع دار المعارف بمصر تحقيق عبد السلام هارون.

[50] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٢٧.

[51] ـ انظر المرجع السابق، ص ١٠٤.

[52] ـ انظر المرجع السابق، ص ١٢.

[53] ـ انظر المرجع السابق، ص ٩٨ ـ١٣٨.

الغزل

يشغل الغزل حيزاً كبيراً من الإرث الشعري الذي خلفه لنا الجاهليون وقد امتاز الغزل عندهم دون بقية الفنون الشعرية بالكثرة والتنوع في المعاني، فكان منه الماجن والعفيف، ويتخلل ذلك الوقوف على الأطلال وبكاء الأحباب الظاعنين، ويذكر ارتحالهم وبينهم عنه، ويتجاوز ذلك إلى ذكر محاسن المحبوبة، وهو لايكاد يقف بالديار حتى تعود به نفسه إلى الماضي ذلك الماضي الجميل أيام كان يلهو مع أحبته، وينعم بقربهم، فإذا ماتجمعت لديه خيوط الذكرى نسجها لنا فكانت صورة المرأة التي أحبها قلبه وتعلق بها خياله.

ويحق لنا أن نسأل: مانصيب شاعرنا عبيد من ذلك كله؟ وهل كان عفيفاً أو ماجناً في غزله؟ وهل أطال الوقوف على الديار وبكاء الأطلال؟ أم تجاوز ذلك إلى مايشغله من أمور الحياة؟ وماهو موقف شاعرنا من المرأة وماهي أسباب هذا الموقف؟ لن نجيب نحن عن هذه الأسئلة، وسنفسح المجال لأشعار عبيد لتتولى بنفسها الإجابة عن كل مادار في أذهاننا حول غزل هذاالشاعر الجاهلي الكبير.

وكما مر، فإن الوقوف بالديار هو العنصر الأول في الغزل، ويتلوه تعبير الشاعر عن عواطفه ومشاعره، وهذا عبيد يقف على ديار هند ليتبين آثارها ويتذكر حبه المندثر، وليسوق لنا محاسن هند وما كانت تتمتع به من سجايا وخصال، فقد كانت تعرض له فيما سبق من الأيام، وتبادله الحب والشوق يقول الشاعر متتبعاً موكب ظعائن الحبيب "من البسيط"[٥٤] :

لِمَنْ جِمَالٌ قُبَيْلَ الصبْحِ مَزْمومَةْ ... مُيَمِّمَاتٍ بِلاداً غَيْرَ مَعْلُوْمَةْ

عَالِيْنَ رَقْماً وَأَنْمَاطاً مُظَاهَرَةً ... وكِلَّةً بعتيقِ العَقْلِ مَقْرُومَةْ

مَا العَبْقَرِي عَلَيْهَا إذْ غَدَوْا صَبَحٌ ... كأَنها مِنْ نَجيعِ الجَوْفِ مَدْمُومَةْ

كَأَنَّ أَظْعَانَهُن نَخْلٌ مُوَسَّقَةٌ ... سُودٌ ذَوائِبُهَا بِالحِمْلِ مَكْمُومَةْ

فِيهِن هِنْدٌ وَقَدْ هَامَ الفُؤادُ بهَا ... بيضاءُ آنسةٌ بالحُسْنِ مَوْسُومَةْ

فإنها كَمَهَاةِ الجَوِّ ناعِمَةٌ ... تُدْنِي النَّصِيفَ بكَفٍّ غيرِ مَوْشُومَةْ

كَأَن رِيْقَتَهَا بَعْدَ الكَرَى اغْتَبَقَتْ ... صَهْبَاءَ صَافِيَةً بالِمسْكِ مَخْتُومَةْ

مِمَّا يُغَالِي بهَا البَيَّاعُ عَتَّقَهَا ... ذُو شَارِبٍ أَصْهَبٌ يُغْلِي بهَا السِيْمَةْ

لقد رحلت هند كالعادة، وخلفت الشاعر في آلامه وشوقه الممض وقد كان الرحيل

---

[٥٤] ـ انظر ديوان عبيد، ص ١٢٧ ـ١٢٨.

قبيل الفجر، والناس نيام، وكان إلى جهة مجهولة، فيالها من رحلة على ظعائن وهوادج مزخرفة مزينة، ثم يصف لنا تلك الظعائن والهوادج، فيضفي عليها صفات النعمة،ويخلع عليها سيماء الثراء، ونحن نشعر بقيمة ونفاسة تلك الظعائن من خلال هذه البرود الموشاة المخططة ومن خلال تلك الضروب من البسط المزركشة التي ربما جلبت من بلاد الشام أو اليمن؟ ومن خلال ذلك الحرص عليها والعناية بها وتغطيتها مخافة أن يقترب منها طير أو سواه، ثم نرى الشاعر وحيداً هائماً يتذكر مافات من الأيام ويتجاوز ذلك إلى وصف الحبيبة وصفاً مادياً في أغلب الأحيان فيذكر أنها بيضاء البشرة، أنيسة الحديث، لطيفة المعشر،، جمالها مشهور وحسنها معلوم، ويذهب الشاعر إلى تشبيهها ببقرة وحشية لفرط حسنها وجمالها، وهي بالإضافة إلى ذلك فتاة محتشمة غير مبتذلة تتستر بخمارها وهي حرة كريمة المنبت غير موشومة الكف لأنه لايشم الكف إلا البغايا وكعادة أغلب الشعراء الجاهليين في تشبيه ريق المحبوبة بالخمرة الصافية الغالية الثمن يشبه عبيدٌ ريق محبوبته.

غير أننا لانرى شاعرنا مندفعاًخلف هذه الظعائن اندفاع العاشق الملهوف بل نلمحه عاشقاً متماسكاً جلداً صبوراً على ألم الفراق وحرقته ويقول الدكتور شكري فيصل حول وصف الظعائن واتفاق الشعراء فيه "وتكاد خطى الشعراء تتلاقى في خمسة مواقف أساسية[٥٥].

ومما يلاحظ على غزل عبيد تعدد الرموز التي يخفي وراءها اسم الحبيبة الحقيقي فمرة سلمى ومرة هند، وثالثة سعدى، ورابعة مية[٥٦] إلا أنه من الملاحظ تكرار الشاعر لاسم سلمى أكثر من مرة مما يجعلنا نظن أن هذا الاسم الرمزي يخفي وراءه المرأة الحقيقية التي يعشقها الشاعر، أو بالأحرى هناك واحدة بعينها كانت تستحوذ لب شاعرنا.

وبالإضافة إلى الغزل التقليدي الذي يرد في أوائل القصائد، ويصور الشاعر فيه عاطفته إيزاء من يحب، نجد هناك لوناً آخر من الغزل الحسي الذي يتحدث فيه الشاعر عن بعض تجاربه مع بعض النساء في عصره من مثل قوله "من البسيط"[٥٧] :

---

[٥٥] ـ انظر تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام للدكتور شكري فيصل طبع دار العلم ببيروت –الطبعة الرابعة ص٩١ خلاصة رأي الدكتور شكري فيصل أن هذه المواقف هي: التساؤل ومسايرة الركب, والوقوف عند معالم الطريق وذكر الظعن والهوادج, وذكر النساء والتحدث عنهن, وموقف الشاعر من الظعائن المتحملة.

[٥٦] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٨٣،٨٤،٩٧،٩٨، ٦٧، ٥٢، ٣٢.

[٥٧] ـ انظر المرجع السابق ص٤٠ –وانظر الصفحات ١١٠, ١٠٣ حيث يتحدث الشاعر عن بعض مغامراته الفاضحة مع المرأة ومما قاله في هذا المظمار "من الخفيف":

وَلَقَدْ أَدْخُلُ الخِبَاءَ عَلَى مَهْضُومَةِ الكَشْحِ طَفْلَةٍ كَالغَزَالِ

وَقَـدْ تَبَطَّنْـتُ مِثْـلَ الريـم آنِسَـةً	رَوْدَ الشّـباب كَعَابـاً ذات أَوْضَـاح
تُـدْفي الضجيـعَ إذا يَشْـتُو وَتُخْصِـرُهُ	في الصَيْـفِ حِيـن يَطيـبُ الـبَرْدُ الصَاح

ويبقى تعبير عبيد بن الأبرص رغم هذه السقطات عن حبه وتغزله بالمرأة عفيفاً محتشماً في الأغلب الأعم وذلك إذا ماقيس بشاعر كامرئ القيس وإننا لنلمح الاتزان والتعقل فيه كما نلمح فيه سمة الواقعية والبعد عن المغالاة والتكلف.

لقد عبر عبيد عن عواطفه بكل صدق وواقعية تجاه المرأة وكان في ذلك يصدر عن نفس شفها الحزن، ولفتها الكآبة، فلم تجد أمامها غير لسان العقل والمنطق تخاطب بها المرأة.

كما تبدو لنا نظرة الشاعر كما يظهر من غزله فيها شيء من التقدير والاحترام تجاه المرأة، وهي في مجملها تعبر عن نظرة الإنسان العربي الجاهلي للمرأة الحرة، فهي تعطي وتمنع وعندها الوفاء والإخلاص والحب كما أن للغدر والهجر والقطيعة عندها مكان، وعبيد بوجه عام نراه غير لاهث وراءها لاسيما إذا لم تكن راغبة فيه وفي وصاله، وفي معاشرته، بل يتخذ منها موقفاً حازماً يتسم بالقوة والرجولة، ومما يوضح ذلك قوله "من الخفيف"[٥٨] :

إنْ يَكُـنْ طِبّـكِ الـدلالَ فَلَـوْ في	سَالِفِ الـدهْـر والليـالي الخَوَالِـي
أَوْ يَكُـنْ طِبّـكِ الفِـرَاقَ فَـلا أَحْـ	فِـلُ أَنْ تَعْطِفـي صُـدُور الجمَـال

إن هذا الموقف من شاعرنا ليذكرنا بموقف لبيد من نوار حين خاطبها قائلاً "من الكامل"[٥٩] :

أَوَلَـمْ تَكُـنْ تَـدْري نَـوَارُ بـأَنني	وَصـالُ عَقْـدِ حَبَـائِل جَـذّامُهَـا
تَـرّاكُ أَمكِنَـةٍ إذَا لَـمْ أَرْضَهَـا	أَوْ يَعْتَلِـقْ بَعْـضَ النُفُـوس حِمَامُهَـا

وشبيه بذلك موقف علقمة الفحل الذي يقول "من الطويل"[٦٠] :

فَتَعَـاطَيْتُ جِيْدَهَـا ثُـم مَـالَتْ	مَيَلَـانَ الكَثِيْـبِ بـينَ الرِمَـالِ

[٥٨] ، انظر ديوان عبيد، ص ١٠٨.

[٥٩] ، انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، طبع حلب ١٩٦٩، دار الكتاب العربي، معلقة لبيد.

[٦٠] ـ انظر ديوان علقة الفحل تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب طبع دار الكتاب العربي حلب سنة ١٩٦٩ ص٨٣.

فَقُلْتُ لَهَا فِيئي فَمَا تَسْتَفِزُنِي ذَواتُ العُيُونِ والبَنَانِ المُخَضَّبِ

إنه موقف الرجولة، والعنجهية الجاهلية البعيد كل البعد عن كافة أنواع الخضوع والتذلل، وهو موقف نابع من نفوس لم تعرف الخضوع في أي يومٍ من أيام تاريخها، وجملة القول أن غزل عبيد بن الأبرص كان في الأغلب والأعم بعيداعن الفحش يميل إلى العفة والرصانة في التعبير باستثناء بعض الحالات الخاصة التي تحدث فيها الشاعر عن بعض تجاربه الشخصية مع نساء عصره حيث نلمح جراءة الشاعر في التعبير عن بعض تلك المغامرات العاطفية التي نرجح أنها كانت في سن الشباب.

الحكمة

هل كانت الحياة العربية في الجاهلية تدعو إلى إرسال الحكم؟ وهل وجد من العرب الجاهليين من نظر ودقق النظر وتعمق في التفكير؟ وهل استطاع هؤلاء العرب البداة أن يستمدوا من تجاربهم ومن نظرهم في شؤون حياتهم مايبصرهم بحقيقة ماحولهم؟ بل بحقيقة وجودهم نفسه؟

لاشك في أن حياة العرب الجاهليين كانت تدعو إلى النظر، والتفكر والتأمل، فقد عاشوا قبائل متعادية متناحرة تغير القبيلة منهم على الأخرى فتسلبها مالها، وتنزع منها مرعاها،ويغار عليها بعد إذ كانت مغيرة فتغدوا مسلوبة بعد أن كانت سالبة، ويصيبهاماأصاب غيرها، وتنشب الحروب، وتتأصل العداوات، ويكثر عدد القتلى والجرحى، ويساق الأسرى مكبلين في الأغلال، وهكذا كانت تدور الحياة القبلية الجاهلية، وكانت تنتشر بين صفوفهم ديانات سماوية مختلفةمن يهودية ونصرانية على أطراف شبه جزيرتهم، وكانت حياتهم محكومة ومسودة بطائفة من العادات والتقاليد والأعراف، وكان ذلك دافعاً كافياً للجاهليين، وبخاصة العقلاء منهم إلى التفكير بعمق في لغز الحياة، وكان لابد من وضع الحلول المناسبة للمشاكل والقضايا التي يصادفونها في حياتهم، فأرسلوا حكمهم ونظراتهم الشخصية وألفوا الأمثال التي تعبر عن عصارة تجاربهم في الحياة، وإذا حاولنا التماس مظاهر هذه الحياة الروحية في الشعر الجاهلي بعامة وجدناها تتراوح بين السذاجة مرة والعمق والقوة مرة أخرى، فقد شك بعضهم في حقيقة الوجود ومابعد الموت فأوصله شكه إلى اليقين كزهير وأمية بن أبي الصلت، ومنهم من ظل يتخبط في لجج الحيرة والقلق غير أن ذلك لايعنينا في شيء فنحن بصدد دراسة شاعر بعينه وهو عبيد بن الأبرص هذا الشاعر الذي نصادف في ديوان شعره بعض الحكم والنظرات الشخصية التي تدل على عمق فكر، ودقة نظر منه، والتي تعبر في مجملها عن خلاصة تجارب الشاعر وتفصح عن أفكاره حول عدد من القضايا كقضية الحياة والموت، والبعث والحساب،

والدارس لهذه الحكم والنظرات الشخصية يجدها مستمدة من بيئة الشاعر نفسها، ومن خبرته للأشياء وطول معاشرته لها، فقد عاش شاعرنا كما تقول الروايات عمراً مديداً، وهناك إشارات في القرآن الكريم تشير إلى أن هؤلاء العرب الجاهليين الذين عبدوا الأوثان كانوا على علم ببعض الشعائر السماوية، وعقيدة التوحيد، ولو أننا لانجزم بوضوح ذلك العلم ومدى مبلغه في أذهانهم ونرجح أن تصورهم عنه كان غائماًوغامضاً، ويصعب على الباحث أن يحدد مدى ذلك العلم عندهم.

يقول ا لله عز وجل في كتابه العزيز "ومانعبدهم إلا ليقربونا إلى ا لله زلفى [61]".

ومن المعروف أن عقيدة التوحيد جاءت بها اليهودية أولاً، ثم تلتها النصرانية، ولكن في صورة مشوشة كما عرفنا الأحناف من العرب القدماء ممن كان على بقية من دين سيدنا إبراهيم عليه السلام، وعلى أية حال فقد فكر الشعراء ملياً في هذ الناحية ونظروا إلى حتمية الموت وفناء الدنيا واستقر بعضهم على شيء في هذا المجال، وشاعرنا عبيداً ربما كان من الرعيل الأول الذين ساورهم القلق واستبدت بهم الحيرة، فأدلى بدلوه بين الدلاء في هذا المضمار، وعبر عن نظرته تجاه هذه القضية أكثر من مرة في ثنايا ديوانه، وهاهو يخاطب الحارث، ولاندري أي حارث يكون ومن الراجح أن يكون الحارث هذا الحارث بن عمرو أبو حجر والد امرئ القيس الشاعر المعروف. يقول "من البسيط"[٦٢] :

يَاحَـار مَـارَاحَ مِـنْ قَـوْم وَلا ابْتَكَـرُوا	إلا وَلِلْمَـوْتِ في آثَـارِهِمْ حَـادي
يَاحَـار مَـاطَلَعَتْ شَـمْسٌ وَلا غَرَبَـتْ	إلا تُقَـرِّبُ آجَـالٌ لِميعَـادِ
هَـلْ نَحْـنُ إلا كَأَجْسَـادٍ تَمُـر بهَـا	تَحْـتَ الـتُرَابِ وَأَجْسَـادٌ كَأَجْسَـادِ

فالموت حقيقة مؤكدة، ومالدنيا إلا عرض زائل ودار فانية عند شاعرنا والمصير محتوم لابل هومحدد لايعدو أجله ولايتجاوز وقته ومما يوضح ذلك قوله "من الطويل"[٦٣] :

وَلِلْمَـرْءِ أَيـامُ تُعَـدّ وَقَـدْ رَعَـتْ	حِبَـالُ المَنَايَـا لِلْفَتَـى كُـل مَرْصَـدِ
مَنِيّتُـهُ تَجْـري لِوَقْـتٍ وقَصْـرُهُ	مُلا قَاتُهَـا يَوْمـاً عَلَـى غَـيْر مَوْعِـدِ
فَمَنْ لَـمْ يَمُـتْ في اليَـوْم لا بُـد أَنـهُ	سَـيَعْلَقَهُ حَبْـلُ المَنِيـةِ في غَـدِ

---

[٦١] ـ سورة الزمر، آية ٣.

[٦٢] ـ انظر ديوان عبيد، ص٤٢.

[٦٣] ـ انظر المرجع السابق ص٥٧, ١٤, ١٥ فهناك إشارات واضحة تدل على إيمان الشاعر بفكرة الوحدانية وتدل على وعي ديني متقدم عنده.

مادام الأمر كذلك فلماذا لايكرم والديه؟ ويعمل صالحاً، ويبسط ذات يده فلا يكون بخيلاً شحيحاً يقول عبيد من الوافر[٦٤] :

وَأُكْرِمُ وَالِدَي وَأَصُونُ عِرْضِي ... وَأَكْرَهُ أَنْ أُعَدّ مِنَ الحِرَاص

ولماذا القلق والحيرة من الإنسان؟ فما لاتعرفه اليوم ستعرفه غداً بكل تأكيد يقول شاعرنا "من الكامل"[٦٥] :

إن الحَوَادِثَ قَدْ يَجِيءُ بهَا الغَدُ ... والصّبْحُ والإمْسَاءُ مِنْهَا مَوْعِدُ

وإذا كان الأمر كذلك فما المانع بأن لايساعد الآخرين، ويحيا حياة ينتفع بها هو ومجتمعه الصغير "القبيلة" وانطلاقاًمن هذه النقطة كانت شجاعة شاعرنا في المعارك، وكان ذوده عن حياض قبيلته وعدم بخله في صرف المال، ونظنه قد اتخذ من تلك الأمور مذهباً خاصاً لحياته حيث يقول "من البسيط"[٦٦] :

إنّي وَجَدّ كَ لَوْ أَصْلَحْتُ مابيَدِيْ ... لَمْ يَحْمُدِ الناسُ بَعْدَ المَوْتِ إصْلاحِي

أَشْري التّلادَ بحَمْدِ الجَار أَبْذُلُهُ ... حتى أَصِيْرَ رَميماً تَحْتَأَلْوَاح

بَعْدَ انْتِقَال إذَا وُسّدْتُ حَثْحَثَةً ... في قَعْر مُظْلِمَةِ الأَرْجَاء مِكْلاح

أَوْ صِرْتُ ذَا بُوْمَةٍ في رَأْس رَابيَةٍ ... أَوْ فِي قَرَار ٍمِنَ الأَرْضِينَ قِرْوَاح

ويرسل الشاعر نظراته الشخصية التي استمدها من البيئة الاجتماعية وقد عبر فيها عن تجربته في الخيانة، والأمانة، وابتلاء الناس بعد طول معاشرة لهم ومما يوضح ذلك قوله من الطويل[٦٧] :

وَإنّي لَذُو رأْي يُعَاشُ بفَضْلِهِ ... وَمَا أَنَا مِنْ عِلْم الأُمُوْر بمُبْتَدِي

إذَا أَنْتَ حَمّلْتَ الخَؤُونَ أَمَانَةً ... فَإنّكَ قَدْ أَسْنَدْتَهَا شَر مُسْنَدِ

وَلا تُظْهِرَنْ وُد امرئ قَبْلَ خُبْرِهِ ... وَبَعْدَ بَلاء المَرْء فَاذْمُمْ أَوْ احْمُدِ

فالشاعر لايتسرع في الحكم على الآخرين فهو لايحكم إلا بعد بلاء وتجربة وهي وإن كانت نظرة شخصية لعبيد فإنها تصلح لأن تكون نظرة عامة تسري على عددٍ كبير من الناس.

لقد اتخذ عبيد بن الأبرص سبيل الشك حتى وصل إلى اليقين،وشرع في إرسال

---

[٦٤] ـ انظر ديوان عبيد، ص٧٨.

[٦٥] ـ انظر المرجع السابق، ص٤٢.

[٦٦] ـ انظر المرجع السابق، ص٤٠.

[٦٧] ، انظر المرجع السابق، ص ٥٤ ـ٥٦.

الحكم والنظرات الشخصية بعد طول تأمل وتفكير، فـالموتُ لايبقـي علـى أحـد، ولـن يبقى إلا وجه ا لله يقول "من الكامل"[٦٨] :

وَلْيُفْنَيْـــن هَـــذا وذَاك كِلاهُمَـــا إلا الإلـــهَ وَوَجْهَـــهُ المَحْمُـــودا

إننا لنرى عبيداً رجلاً عاقلاً حين يقرر مثل هذه الحقائق التي تنم عن حكمة ووعي عميقين، ونراه عاقلاً كذلك في قوله "من مخلع البسيط"[٦٩] :

إنْ يَـــكُ حُـــوّلَ مِنْهَـــا أَهْلُهَـــا فَـــلا بَـــدِي وَلا عَجيْـــبُ

أوْ يَـكُ قَـدْ أقْفَـر َمِنْهَـا جَـو هَـا وَعَادَهـــا المَحْـــلُ والجُـــدُوبُ

فَكُـــل ذِي نِعْمَـــةٍ مَخْلُوسُـــهَا وكُـــل ذِي أَمَـــل مَكْـــذُوبُ

لاعجب مما أصاب الديار فهو أمر طبيعي جداً، بل أن ماأصابها لهو أمـر يصـح أن نعممه على سائر الأحياء والموجودات، فهذا ديدن الدهر مع أهله كما قرر شاعرنا،ثـم نراه يمضي في توضيح تجاربه ونقلها إلينا وجلها مستمد من الواقع الذي عاشه الشـاعر وتبصر في أحواله وتقلباته فيقول[٧٠] :

وَكُـــلّ ذِي إبـــل مَـــوْرُوثٌ وَكُـــلّ ذِي سَـــلَبٍ مَسْـــلُوبُ

وَكُـــل ذِي غَيْبَـــةٍ يَـــؤُوْبُ وَغَـــائِبُ المَـــوْتِ لا يَـــؤُوبُ

أَعـــاقِرٌ مِثْـــلُ ذاتِ رَحْـــمِ أَوْ غـــانِمٌ مِثْـــلُ مَـــنْ يَخِيْـــبُ

فصاحب المال موروث لامحالة، ومن سلب النـاس أموالهم فسيسـلب يومـاً ومـن غاب في سفر أو غيره فإن له عودة إن رزق السلامة، أما غائب الموت فلاعودة له.

ويرسل الشاعر حكمة رائعة ومعبرة عن واقع الحياة الجاهلية القبلية، والتي لاتعترف إلا بالقوة خير تعبير ألا وهي أن العاقر لاتسـتوي مـع الولـود، ولايسـتوي الفاشـل مـع الناجح في مسعاه، إن عبيدا ليتراءى لنا من خلال حكمته ونظرته الشخصية شيخا مجربا له حنكته وله رأيه ونظرته العميقة في كل مايحيط بـه مـن ظواهـر وحكمـة عبيـد علـى ضيقها شملت أغلب القضايا الـتي شغلت فكـر الإنسـان الجـاهلي في بيئتـه تلـك، وقـد صورت لنا كثيراً من العلاقا القبلية وغيرها مما كان سائداً في ذلك الوقت ولقـد كـانت نظرته وليدة تأمل طويل وتبصر في الأمور، فالحياة صائرة إلى الزوال، وفعل الخير أجـدر

---

[٦٨] ـ انظر ديوان عبيد، ص١٤ وما بعدها.

[٦٩] ـ انظر المرجع السابق، ص ٤ـ١٥.

[٧٠] ـ المرجع السابق، ص ١٥.

بالمرء يقول معبراًعن هذه النظرة "من البسيط"[٧١] :

الخَـيْرُ يَبْقَـى وإنْ طَـالَ الزَمَـانُ بـِـهِ والشَـر أَخْبَـتْ مَـأ أَوْعَيْـتَ مِـنْ زَادِ

ويمكننا أن نزعم أن حكمة عبيد وعمق نظراته الشخصية راجعة إلى مصادر ثلاثة وهي البيئة الجاهلية بكل ماكان فيها من حوادث عايشها الشاعر وعلاقات تربط بين أبناء تلك البيئة القبلية، وتجارب الشاعر الخاصة مع الأخذ بعين الاعتبار أن عبيداً عاش عمراً مديداً، وعاصر كثيراً من الحوادث وأخيراً نستطيع أن نزعم أن أفكار الوحدانية والشعور بالمصير المحتوم كان لها بعض الأثر في حكمة هذا الشاعر، ولعلها قد أتته من جراء اتصاله بالبيئات الدينية المجاورة كبيئة الحيرة وغيرها.

المدح في شعر عبيد بن الأبرص:

المدح فن من الفنون الشعرية القديمة، وهو كثير الورود في الشعر الجاهلي إلا أنه قد جاء بصورة فردية لابسة ثوب الفخر في كثير من الأحيان فكثيراًماتحدث الشعراء عن خلالهم وسجاياهم الفردية، وكذلك ذكروا مآثر ومحامد قبائلهم من كرم وشجاعة وقوة،وشاعرنا من أول هؤلاء الشعراء و لم يصبح المدح أداة للتكسب والارتزاق إلا في أواخر العصر الجاهلي حيث وجدنا الرواة ينقلون مامفاده أن بعض الشعراء قد أخذ يتكسب بشعره كالأعشى.

لقد مدح عبيد بن الأبرص لكن مدحه لم يكن رخيصاً مبنياً على الرياء والنفاق، إذ كيف يكون ذلك وهو سيد من سادات بني أسد؟! وشريف من أشرافها وفارس من فرسانها يشار إليه بالبنان، نعم لقد كان نديماً للملوك،ولكنها منادمة الند للند لامنادمة الضعيف للقوي ولا العبد للسيد، ويكفي أن نورد خبر مقتله على يد المنذر بن ماء السماء كي نقف على مدى الأنفة والعزة والكبرياء التي كانت مستقرة بين جوانح هذا الشاعر وهو في موقف لايحسد عليه،إنه الموت المحقق على يد المنذر الذي طلب منه المدح وعرض عليه العقد، فأبت نفسه بكل شموخ وإباء وارتضى الحمام على أن يمدح في موقف ضعف، فكيف يمكن لهذا الشاعر أن يمدح الإنسان بما ليس فيه؟ ولهذا فقد رأينا نصيب هذا الشاعر من المدح ضئيلاً، وقد وقعنا في ديوانه على قصيدة واحدة يخاطب في مطلعها شراحيل بن عمرو بن معاوية الجون بن حجر آكل المرار ويمدحه في البيتين الآخرين منها، وقد يكون آخر القصيدة قد ضاع ويستهل القصيدة بوصف حوادث الغد ثم ينتقل إلى ذكر الأحبة

---

[٧١] ـ انظر ديوان عبيد بن الابرص، ص ٤٩.

المفارقين فإلى الناقة، ومن ثم يلتفت إلى شراحيل قائلاً له "من الكامل"[٧٢] :

وَإِلَى شُرَاحِيلَ الهُمَامَ بِنَصْرِهِ نَصْرَ الأَشَاءِ سَرِيَّةُ مُسْتَرْغَدُ
مَنْ سَيْبُهُ سَحُّ الفُرَاتِ وَحَمْلُهُ مُزْنُ الجِبَالِ وَنَيْلُهُ لا يَنْفَذُ

صورة رائعة لرجل كريم جواد، فهو معطاء كالنخل ولاأكرم من النخل في مثل تلك البيئة الصحراوية وعطاؤه كعطاء نهر الفرات بل كعطاء السحاب المكفهر، فهو عطاء لاحد له.

كما وقعنا له على قصيدة أخرى يخاطب فيها حجر بن الحارث عندما أمر بتهجير بني أسد لامتناعهم عن دفع الأتاوة وهي إلى الاعتذار أقرب من المدح حيث يقول والأبيات من الكامل المرفل[٧٣] :

حَلاَّ أَبَيْتَ اللعْنَ حَلاَّ إنّ فيمَا قُلْتَ آمَةْ
وَمَنَعْتَهُمْ جَداً فَقَدْ حَلُّوا عَلَى وَجَلٍ تِهَامَةْ
إمَّا تَرَكْتَ تَرَكْتَ عَفْواً أَوْ قَتَلْتَ فَلا مَلامَةْ
أَنْتَ المَلِيكُ عَلَيْهِمُ وَهُمُ العَبِيْدُ إلَى القِيَامَةْ

الهجاء عند عبيد بن الأبرص:

يقول الدكتور شوقي ضيف "فالهجاء في الجاهلية كان لايزال يقرن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه، مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا. فاللسان كان ينكأ بهجائه نكأ السيوف والرماح، وقد دار هجاؤهم على كل مايناقض مثلهم، ولم يكن هجاؤهم يفرد في قصائد بل كانوا يسوقونه غالباً في تضاعيف حماستهم وإشادتهم بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية[٧٤] .

ومن خلال اطلاعنا على ديوان عبيد بن الأبرص وجدنا أن حظ هذا الشاعر من الهجاء كان ضئيلاً غير أن ذلك القدر الضئيل كان هجاءاً مراً لاذعاً فيه سخرية بعيدة. من ذلك مثلاً قوله يهجو بني جديلة حين تجهزوا لغزو بني أسد والأبيات من الكامل[٧٥] :

---

[٧٢] ـ انظر ديوانه، ص٤٦.
[٧٣] ـ تاريخ الأدب العربي، د. شوقي ضيف -العصر الجاهلي،ص١٩٨- ٢٠٢،ط. دار المعارف، ط. الثامنة.
[٧٤] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٣ -٤.
[٧٥] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٣-٤.

أُنْبئْــتُ أَن بَــني جَدِيْلَــةَ أَوْعَبُــوا نُفَــرَاءَ مِــنْ سَــلْمَى لَنَـــا تَكَتَّبُــوا
وَلَقَــدْ جَــرَى لَهُــمُ فَلَــمْ يَتَعَيفُــوا تَيْـــــسٌ قَعِيْـــــدٌ كالوَلِيْـــــــةِأَعْضَبُ
وَأَبُــو الفِــرَاخِ عَلَــى خَشَــاشِ هَشِــيْمَةٍ مُتَنَكِبَـــاً إبْــــطَ الشَــمَائِلِ يَنْعَـــبُ
وَتَجَـــاوَزُوا ذَاكُـــمْ إلَيْنَـــا كُلَّـــهُ عَـــدْواً وَقَرْطَبَـــةً فَلَمَّـــا قَــرِ بُــوا
طُعِنُــوا بِمُــرانِ الوَشِــيْجِ فَمَــا تَــرَى خَلْــفَ الأَسِـنَّةِ غَــيْرَ عِــرْقٍ يَشْــخَبُ
وَتَبَــدَّ لُــوا اليَعْبُــوبَ بَعْــدَ إلَهِهِــمْ صَنَمَـــاً فَقَـــرِ وا يَـــاجَدِيْلَ وأَعذِبُـــوا

لاشك في أنه هجاء مر لبني جديلة فهم قد تبدلوا بصنمهم اليعبوب صنماً آخر ويكفيهم هذا عاراًثم يهجوهم بقلة العقل وعدم الحكمة إذ كيف لم يرتدعوا عندما رأو التيس الأعضب والغراب والجيفة التي كان عليها تهكم واضح بل وأكثر من هـذا فهو يمزج هذاالأسلوب الساخر بالتهكم والهجاء فيقول والبيت من الكامل أيضاً[٧٦] :

فَلتَعْــزِفِ القَيْنَــاتُ فَــوْقَ رُؤُوسِــهِمْ وَشَـــرَابُهُمْ ذَو فَضْلَـــةٍ وَمُحَنَـــــبُ

ويتكرر هذاالأسلوب فيما جـاء مـن شـعره في هـذا الغـرض الـذي لم يقصـد إليـه الشاعر وإنما ساقه ضمن الإشادة ببطولة قومه من بني أسد فالشـاعر علـى سـليل المثـال يكـني عـن المـوت بالكـأس المرة لكنـه إمعانـاً في التهكـم والسـخرية اللاذعـة قـال مخاطباالأعداء من الكامل[٧٧] :

حتـــى سَـــقَيْنَاهُمْ بكَـــأس مُـــرةٍ فِيْهَـــا المُثَمَّـــلُ نَاقِعَـــاَ فَلْيَشْـــرَبُوا

ونراه يلجأ إلى أسلوب آخر من أساليب الهجاء، وهو نسب الرجل إلى أمه كنـوع من أنواع السخرية والاستهزاء، ومن المعروف أن هذا الأمر يعد منقصة في الرجل عنـد العرب يقول مخاطباً امرأ القيس من الكامل[٧٨] :

لَوْمَـــا عَلَــــى حُجْــــرِ بــــن أُ مٍّ قَطَــــامَ تَبكِــــي لا عَلَيْنَـــــا

وهاهو يسخر من امرئ القيس مرة أخرى، ويصفه بعدم الاقتدار علـى طلـب ثـأر أبيه ويقترح عليه أن يلهو لينسى ماحل به فيقول من الطويل[٧٩] :

سَقَيْنَا امرأَ القَيْس بن حُجْر بن حَـارِثٍ كُـؤُوسَ الشجَا حتى تَعَـو دَ بـالقَهْر

---

[٧٦] ـ انظر المرجع السابق، ص ٦.
[٧٧] ـ انظر المرجع السابق، ص ١٣٨.
[٧٨] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٦٤.
[٧٩] ، انظر المرجع السابق، ص ٢٥-٢٦.

وأَلْهَاهُ شُرْبٌ نَاعِمٌ وَقَرَاقِرُ   وأَعْيَاهُ ثَأْرٌ كَانَ يُطْلَبُ في حُجْر
وَذَاكَ لَعَمْري كَانَ أَسْهَلَ مَشْرَعَاً   عَلَيْهِ مِنَ البيض الصَوَارِم والسُمْر

ذاك هجاء عبيد بن الأبرص إنه هجاء الفارس والسيد لاالشاعر الهين الشأن الذي يحاول أن يستفز الآخرين ليتعلق بطرف من عباءة شهرتهم وليمسك بخيط من خباء مجدهم، ولا أن يستفز لأدنى سبب إلى حلبة الهجاء.

أما الرثاء في شعر عبيد فإن الناظر في ديوانه ليلحظ أن نصيب هذا الفن يعد ضئيلاً بالقياس إلى بعض الفنون الأخرى، فباستثناء بعض المقدمات الطللية التي يبكي فيها ديار الأحبة لانجد له إلا بعض الأبيات القليلة في رثاء بعض قومه من مثل قومه من الطويل[١٨٨]:

تَذَكَّرْتُ أَهْلِي الصَالِحينَ بمَلْحُوبِ   فقَلْبي عَلَيْهِمْ هَالِكٌ جِدّ مَغْلُوبِ
تَذَكَّرْتُ أَهْلَ الخَيْرِ والبَاع والندى   وَأَهْلَ عِتَاق الجَرْدِ والبر والطِيبِ
تَذَكَّرتَهُمْ ماإنْ تَجف مَدَامِعِي كَأَنْ   جَدْوَلٌ يَسقِي مَزَارِعَ مَحْرُوبِ

والواقع أن رثاء الشاعر لأهله يعد رثاءاً عاماً وليس لشخص بعينه، وهو مجرد إشارة إلى موت هؤلاء الناس إلا أننا نرى فيه مسحة من الحزن الهادئ العميق الذي غلب على نفسية هذا الشاعر الكبير، وهكذا فقد رأينا الأغراض التقليدية في شعر عبيد وقد توزع شعره بين عدد من الموضوعات عظم حظ بعضها منه، وضؤل حظ بعضها الآخر، ولعل مرد ذلك إلى كون هذاالشاعر فارس من فرسان بني أسد المشهورين، وسيد من ساداتها وأشرافها الذين يشار إليهم بالبنان، والذين قادوا معارك القبيلة أو كانت لهم مشاركة فعالة فيها، ولهذا فقد غلبت نغمة الفخر على شاعرنا بطرفيه الذاتي والقبلي ثم تلاه الوصف فالغزل فالحكمة فالهجاء فالمدح فالرثاء وبهذا نقف على نهاية حديثنا عن أغراضه التقليدية آملين أن نكون قد أصبنا بعض الصواب لاكله في عرضها.

---

[١٨٨] ـ انظر المرجع السابق ص٢٥-٢٦.

الفصل الثاني

دلالة شعره

يتضمن شعر عبيد إشارات كثيرة عن عصر ذلك الشاعر القديم، وأول تلك الإشارات مقتل حجر بن الحارث آخر ملوك كندة، كما يبين لنا كذلك بعض جوانب تلك الفترة المتقدمة من الجاهلية والتي لانعرف عن أخبارها إلا القليل كما يفصح لنا عن مرحلة من مراحل تطور اللغة الشعرية عند عرب الجاهلية ونستطيع أن نعرف من خلاله أخبار بعض أيام العرب كيومي الحفار والنسار "النعف".

كما يكشف لنا هذا الشعر عن بعض جوانب الحياة الدينية عند بعض القبائل العربية الوثنية في الجاهلية، ويشير كذلك إلى بعض الصراعات التي نشبت بين بنو أسد والغساسنة في فترة من الفترات، وهذا الشعر على كل حال يعد صورة صادقة للحياة الاجتماعية والسياسية في عصر عبيد وانعكاس ذلك على شعور هذاالشاعر ونفسه.

ولعل من أهم الأحداث التي تضمنها هذا الشعر مقتل حجر بن الحارث وتهديد كندة بالأخذ بثأره، وعلى رأسها شاعرها امرؤ القيس بن حجر ويبدو أنه قد ترتب على ذلك نتائج خطيرة، حيث سقط سلطان كندة واستتب الأمر من جديد للمنذر الحيري، ونشأت تحالفات جديدة بين القبائل المضرية التي تحررت من حكم العرب الجنوبيين أو القحطانيين، ويلوح لنا أنه من المفيد أن تكون نقطة البداية في دراستنا مقتل حجر ذلك أن هذا الحدث الكبير قد استغرق النصيب الأوفر من شعر عبيد مما يدل على أهميته البالغة في حياة الشاعر وحياة قبيلته بل لقد امتدت آثاره إلى قبائل أخرى من عرب الشمال.

يقول عبيد هازئاًمن امرئ القيس الذي توعد بني أسد بالأخذ بثأر أبيه "من الوافر"[1] :

أَتُوعِدُ أُسْرَتِي وَتَركْتَ حُجْراً يَريغُ سَوَادَ عَيْنَيْهِ التّرَابُ

يلوذ الشاعر هنا بأسلوب الكناية في الإفصاح عن مقتل حجر على أيدي أسرة عبيد،، وقد عبر الشاعر عن كلمة القبيلة واستبدلها بكلمة أخرى نستطيع أن نستنتج منها شدة وقوة الانتماء القبلي الذي كان يشعر به الشاعر وهي كلمة "أسرة".

ومن أيام العرب التي جاء ذكرها في شعر عبيد يومي الحفار والنسار يقول "من الكامل"[2] :

وَلَقَدْ شَبَبْنَا بالجفَار لِدَارمٍ نَاراً بهَا طَيْرُ الأَشَائِم تَنْعَبُ

وَلَقَدْ تَطَأوَلَ بالنِسَار لِعَامِرٍ يَوْمٌ تَشِيْبُ لَهُ الرُؤوسُ عَصَبْصَبُ

وَلَقَدْ أَتَانِي عَنْ تَمِيمِ أَنّهُمْ ذَئِرُوا لِقَتْلَى عَامِرٍ وَتَغَضّبُوا

سَائِلْ بِنَا حُجْرَ بنَ أمِّ قَطَامَ إذْ ظَلَتْ بِهِ السُّمْرُ النَوَاهِلُ تَلْعَبُ

وإذا سلمنا بصحة نسبه هذه الأبيات لعبيد، فمعنى ذلك أن مقتل حجر كان قبل هذين اليومين بزمن لا ندريه، ذلك أن الشاعر يخاطب تميماً وعامراً مذكراً إياهم بمقتل الرجل، وقد جاء في شعر عبيد بيت يبدو أنه من قصيدة ضاعت يوحي بأن قاتل حجر هو علباء بن قيس يقول "من الوافر"[3] :

فَلَوْ أَدْرَكْتَ عِلْبَاءَ بنَ قَيْس قَنِعْتَ مِنَ الغَنِيْمَةِ بالإيَابِ

ومن الجدير بالذكر أن امرأ القيس أشار في شعره إلى هذا الرجل في قوله "من الوافر"[4] :

وَأَفْلَتَهُنَ عِلْبَاءٌ جَرِيضاً وَلَوْ أَدْرَكْتَهُ صَفِرَ الوِضَابِ

ولاندري على وجه الدقة إن كان علباء هذا هو القاتل، أوالمحرض على القتل كما

---

[1] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص، ص ١.

[2] ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص٥ – ٧.

[3] ـ انظر المرجع السابق ص٢٦.

[4] ـ انظر ديوان امرئ القيس ص ١٣٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٨.

تقول بعض الروايات[٥] .

ويشير عبيد إلى حروب بني أسد ضد الغساسنة وانتصارهم عليهم في يوم النعث والذي لم أجد له ذكراً في أيام العرب، والمظنون أنه يوم قديم وعظيم، حيث يقول مشيراً إلى هذا اليوم ومخاطباً أحد أحلاف بني أسد "من البسيط"[٦] :

لَوْ هُمْ حُمَاتُكَ بالمَحْمَى حَمَوْكَ وَلَمْ ... تُتْرَكْ لِيَوْم أَقَامَ النَاسَ في كَبَدِ

كَمَا حَمَيْنَاكَ يَوْمَ النّعثِ مِنْ شَطِبٍ ... والفَضْلُ لِلْقَوْمِ مِنْ رِيْح ومِنْ عَدَدِ

غَوَتْ بَنُو أَسَدٍ غَسّانَ أمْرَهُمُ ... وَقَلَّ مَاوَقَعَتْ غَسّانُ لِلْرَشَدِ

ويستدل من الأبيات السابقة أن بني أسد قد كانت لهم أيام مشهورات مع الغساسنة، ويبدو أن ذلك كان نتيجة لإغارة الأسديين على أطراف مملكة غسان في شمال شبه الجزيرة العربية، وربما كان الدافع وراء تلك الوقائع هو رغبة الغساسنة في فرض سيطرتهم على القبائل العربية المجاورة لهم في شمالي الحجاز.

ويظهر أن هذا الصراع قد طال أمده بين الأسديين والغساسنة كما يظهر أن تلك الحرب كانت سجال بين الطرفين يقول الشاعر مفتخراً بقتل أحد ملوك أو أمراء أو سرات الغساسنة في إحدى الوقائع بين الجانبين "من الطويل"[٧] :

وَنَحْنُ قَتَلْنَا مُرةَ الخَيْر مِنْكُمُ ... وَقُرْصاً قتَلْنَا كَانَ مِمنْ أُولئِكَا

وَنَحْنُ قَتَلْنَا جَنْدَلاً في جُمُوعِهِ ... وَنَحْنُ قَتَلْنَا شَيْخَهُ قَبْلَ ذَلِكَا

ويذكر عبيد أكثر من يوم لبني أسد مع الغساسنة، ومن ضمن هذه الأيام يوم مع الحارث الأعرج الملك الغساني المعروف يقول "من الرمل"[٨] :

نَحْنُ قُدْنَا مِنْأَهَاضِيبِ المَلا الْـ ... خَيْلَ في الأَرْسَانِ أَمْثَالَ السّعَالي

فَانْتَجَعْنَا الحَارثَ الأَعْرَجَ في ... جَحْفَلٍ كَاللّيْلِ خَطّارِ العَوَالي

ثُمَ غَادَرْنَا عَدِيّاً بالقَنَا الذ ... بلِ السُمْرِ صَرِيعَاً في المَجَالِ

---

[٥] ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص٤٤ هامش٤ تحقيق أحمد محمد شاكر وانظر الأغاني لأبي الفرج المجلد الثامن ص١٣٠-١٣١ منشورات دار الفكر مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٥.

[٦] ـ انظر ديوان عبيد ص٦٠.

[٧] ـ انظر المرجع السابق ص٩٤ -وقرص هذايبدو أنه ملك غساني قديم حارب بني أسد.

[٨] ـ انظر المرجع السابق ص١١٦-١١٧ وانظر الديوان ص٩٩-١٣٧ حيث يذكر عبيد بعض الوقائع بين بني أسد والغساسنة.

ومن المرجح أن يكون عدي هذا ملكاً أو أميراً غسانياً، وعلى أية حال فإن شعر عبيد الذي ذكر فيه حروب بني أسد مع الغساسنة يبين ويكشف أن هذه القبيلة كنت على درجة لايستهان بها من القوة والشكيمة إلى حد تمكنها من الوقوف في وجه أمراء غسان وملوكهم ردحاً من الزمن مع أن هذاالصراع قد حسم على مايبدو لصالح الغساسنة في نهاية المطاف وكان ذلك على مرأى ومسمع من شاعرنا الذي عبر عن ذلك بروح ملؤها الأسى والحزن يقول "من الطويل"[9] :

لِمَنْ طَلَلٌ لَمْ تَعْفُ مِنْهُ المَذَانِبُ ... فَجَنْبَا حِبّر قَدْ تَعَفّى فَوَاهِبُ

دِيَارُ بني سَعْدِ بْن ثَعْلَبَةَ الأُلَى ... أَذَاعَ بهمْ دَهْرٌ عَلَى الناس رائِبُ

فَأَذْهَبْنَهُمْ مَا أَذْهَبَ الناسَ قَبْلَهُمْ ... ضِرَاسُ الحُرُوبِ والمَنَايَا العَوَاقِبُ

ونستدل من الأبيات السابقة على أن رهط الشاعر وهم بنو سعد بن ثعلبة كانوا في المقدمة من بني أسد أثناء حروبهم مع الغساسنة ويبدو أن الغرم الأكبر في تلك الحروب كان يقع عليهم ولهذا فإننا نجد عبيداً يجهر بقوله ليسمع بني أسد كلهم وبصوت مرتفع ملؤه الفخر والزهو بالبطن الذي ينتمي إليها يقول "من الكامل"[10] :

وَبَنُو خُزَيْمَةَ يَعْلَمُونَ بأَنَّنَا ... مِنْ خَيْرِهِمْ في غِبطةٍ وَبَئِيسِ

نُنْكِي عَدَوَّهُمُ ويَنَصحُ جَيْبُنا ... لَهُمُ وليس النُّصْحُ بالمدموسِ

ومن الأيام التي يذكرها عبيد في معرض حديثه عن حروب الأسديين مع الغساسنة يوم المرارة وفيه انتصرت بنو أسد يقول "من البسيط"[11] :

حَتى تَعَاطَيْنَ غَسّاناً لِحَرْبِهِمُ ... يَوْمَ المُرَارِ وَلَمْ يُلْوُوا عَلَى أَحَدِ

ونستطيع أن نطمئن إلى الحكم من خلال ذكر الشاعر لهذه الأيام والوقائع بصحة تلك الأيام، وواقعيتها في حياة القبيلة، وانسجام ذلك مع الحياة السياسية للقبائل العربية بوجه عام وبنو أسد بوجه خاص، فقد كانت تلك الحياة تقوم على الغزو والحرب في غالب الأحيان، ونستشف مما ذكره الشاعر أن الغزو كان يتم بطريقتين أولهما على شكل غارات مفاجئة لاعلم للعدو بها، وثانيهما أنه كان يتم بعلم مسبق، كما حدث في يوم

---

[9] ـ انظر ديوان عبيد ص١٨.

[10] ـ انظر المرجع السابق ص٧١.

[11] ـ انظر المرجع السابق ص٦٠.

ساحوق بين بني أسد وبني جديلة، وقد جاء ذلك على لسان شاعرنا "من الكامل"[١٢] :

أُنْبِئْتُ أَن بَنِي جُدَيْلَةَ أَوْعَبُوا ... نُفَرَاءَ مِنْ سَلْمَى لَنَا وَتَكَتَّبُوا

إنْ تَقْتُلُوا مِنّا ثَلاثَةَ فِتْيَةٍ ... فَلِمَنْ بِسَاحُوقَ الرَعِيلُ المُطْنِبِ

وفي مثلٍ هذه الحالة نجد الشاعر يسهب في وصف الجيش والأسلحة والخيول، وذلك إرهاباً للعدو وإظهاراً لقوة القبيلة وكثرة عددها ومتانة عدتها يقول مثلاً:[١٣]

بَلْ لا مَحَالَةَ مِنْ لِقَاء فَوَارس ... كُرُم مَتى يُدْعَوْا لِرَوْع يَرْكَبُوا

شُمُ كَأَنّ سَنَا القَوَانِس فَوْقَهُمْ ... نَارٌ على شَرَفِ اليَفَاع تَلَهبُ

وَهُمُ قَدِ اتّخَذوا الحَدِيْدَ حَقَائِبَا ... وَخِلا لَهُمْ أُدْمُ المَراكِل تُجْنِبُ

مِنْ كُلِّ مَمْسُودِ السَرَاةِ مُقَلص ... قَدْ شَفّهُ طُولُ القِيَادِ وَالْغَبُوا

وشعر عبيد يصور لنا بجلاء بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية في عصره، وأثر ذلك على نفسه وشعوره، فقد كان شاعرنا في بيئة وثنية تسودها الخرافات والأساطير في كثير من جوانبها وبخاصة قبيلة الشاعر التي اشتهرت بالعيافة، والتطير من بعض الأشياء وبكثرة الكهان[١٤] .

وهاهوذا يجعل من صورة الحيوان مصدر شؤم، وبخاصة ماكان ضعيفاً مشوهاً منه إذ يقول "من الكامل"[١٥] :

وَلَقَدْ جَرَى لَهُمْ فَلَمْ يَتعَيّفُوا ... تَيْسُ قَعِيْدُ كالوَلّيَةِ أَعْضَبُ

وأبُو الفِرَاخ عَلَى خَشَاش هَشِيمَةٍ ... مُتَنَكِبَاً إبْطَ الشَمَائِل يَنْعَبُ

وَتَجَاوَزُوا ذَاكُمْ إلَيْنَا كُلَّهُ ... عَدْواً وَقَرْطَبَةً فَلَم ا قَر بُوا

طُعِنُوا بمُر ان الوَشِيْج فَمَا تَرَى ... خَلْفَ الأَسِنَّةِ غَيْرَ عِرْق يَشْخَبُ

فالتشاؤم هنا من الغراب والجيفة اليابسة، والظبي الأعضب والشجرة التي لاحياة فيها، وقد كانوا يحبون مظاهر القوة في كل شيء، ويتفاءلون بها، وربما رأيناهم يركزون

---

[١٢] ـ انظر ديوان عبيد ص٤.

[١٣] ـ انظر المرجع السابق ص٥.

[١٤] ـ انظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص٥٦ وانظر شوقي ضيف في العصر الجاهلي ص١٨٩-١٩٦.

[١٥] ـ انظر ديوان عبيد ص٣.

على صفات الامتلاء والنشاط، والحيوية، ومن ثم فلا غرو أن يصف أحد أساتذة البحث الأدبي العصر الحالي بأنه عصر القوة، وأن أدب الجاهليين أدب القوة، يقول "لم تكن الصحراء العربية سخية ولارحيمة بأهلها، ولم يكن أهلها رحماء بينهم، ولامتناصفين، فالحياة تقوم على التنافس الشديد والعنف الذي لاهوادة فيه، والقوة التي لاتلين، والقارئ لشعرهم وآثارهم يستطيع أن يرى بوضوح أن القوة في كل صورها هي المثل الأعلى الوحيد الذي آمنو به، وحرصوا عليه، فكل مانالته يد القوي فهو حق له[16] .

وعلى أية حال لاندري على وجه التحديد لماذا هذا التشاؤم؟ ويبدو أن شاعرنا كان يؤمن ببعض هذه العادات كالتفاؤل ببعض الأشياء مثل اللون الأبيض الذي يرد كثيراًفي شعره يقول "من الكامل"[17] :

تَمْشِي بهِمْ أُدْمٌ تَئِطُّ نُسُوعُهَا خُوصٌ كَمَا يَمْشِي الهجَانُ الرَبْرَبُ

ويقول في وصف الفرس معبراً عن تفاؤله بهذااللون الأبيض فيه من البسيط:[18]

وَلَا يُفَارِقُني مَا عِشْتُ ذُو حِقَبٍ نَهْدِ القَذَال جَوَادٍ غَيْر مِلْواح

ويبدو له هذا الون في المرأة كذلك يقول "من البسيط":[19]

وَقَدْ تَبَطّنْتُ مِثْلَ الريم آنِسَةً رَوْدَ الشَبابِ كِعَابَاً ذاتَ أوضَاح

كما يبدو له هذا اللون في إناء الخمر إذ يقول "من الطويل"[20] :

إذَا ذُقْتُ فَاهَا قُلْتُ طَعْمُ مُدَامَةٍ مُشَعْشَعةٍ تُرخِي الإزَار قَدِيحُ

بمَاء سَحَابٍ مِنْ أباريق فِضةٍ لَهَا ثَمَنٌ في البائعينَ رَبيحُ

فاللون الأبيض على ما يبدو من دواعي التفاؤل عنده، وربما عند أهل عصره؟ ولعل ذلك اللون كان مدعاة للانفراج مايشعرون به من هموم وكروب؟ ونجد الشاعر يرتفع بقيمة هذا اللون حتى يخلعه على الفرسان والأبطال ويقرنه بالصفات المعنوية التي ينبغي أن يتحلى بها سرات الناس ومما يوضح ذلك قوله من البسيط:[21]

---

[16] ـ انظر الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ، د. محمد محمد حسين، ص٧٦، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠.

[17] ـ انظر ديوان عبيد ص٣.

[18] ـ انظر المرجع السابق ص٢٦.

[19] ـ انظر المرجع السابق ص٤٠.

[20] ـ انظر المرجع السابق ص٣٠.

[21] ـ انظر ديوان عبيد ص٨٦.

وَقِتْيَـةٍ كَلُيُـوثِ الغَـابِ مِـنْ أَسَـدٍ ... مـا لِلْنَـدَى عَنْهُـمُ نَـزْحٌ ولا شَـحَطُ
بيضٌ بَهَـالِيلُ يَنْفِي الجَهْـلَ حِلْمُهُـمُ ... وَتَفْزَعُ الأَرضُ مِنهُمْ إنْ هُـمُ سَـخَطُوا

ومن الملاحظ على شاعرنا أنه كان يفضل المكان العالي، ويستبشر به فهو يفتخر بكون ناقته تشبه الحصن العالي المشيد وكأني به ينظر إلى العلاء على أنه موئل الأمان والطمأنينة حيث يستشرف الأشياء من عل ولاتصل إليه يد بسهولة، أو لعل هذا الشعور والميل إلى المكان العالي كان وليد فكرة حمايته من خوائل الطبيعة من سيول وعواصف وغير ذلك يقول "من الكامل"[٢٢] :

أَفَلَـد تَناسَـى حُبّهَـا بجُلَالَـةٍ ... وَجْنَـاءَ كـالأَجَم المَطِـين وَلُـوس

وتراود شاعرنا فكرة العلاء هذه بل تلح عليه حتى تفرض نفسها على فخره كما في قوله من الكامل:[٢٣]

لا يَبْلُـغُ البَـانِي وَلَـوْ ... رَفَـعَ الدَّعَـائِمَ مَـا بَنَيْنَـا
وَلَـرُب سَـيدِ مَعْشَـر ... ضَخْـم الدّسـيعَةِ قَـدْ رَمَيْنَـا

فالعلاء والضخامة، والامتلاء والتفاؤل باللون الأبيض علامات مميزة عند عبيد، وكما هو معروف عند كل شاعر عربي وبخاصة الشعراء الجاهليين من حب للظهور وإشعار الآخرين بعلو قدره وسمو مكانته فإننا نجد عبيداً لايشذ عن الآخرين، ونلمس هذا منه في سائر أغراضه الشعرية، وبخاصة فخره.

فعبيد لايتغزل إلا بالفتيات الحرائر المنعمات من اللواتي تبدو عليهن سماء الثراء ومظاهر الجاه ومما يوضح ذلك قوله "من البسيط"[٢٤] :

بَانَ الخَلِيطُ الأُلَـى شَـاقُوكَ إذْ شَحَطُوا ... وفي الحُـدُوجِ مَهـا أعناقُهـا عُيُـطُ
نَـاطُوا الـر عـاث لِمهْوىً لَوْ يَـزل بـهِ ... لانْـدَق دُونَ تَلاقِـي اللّبـةِالقُرُطُ

فالمحبوبة على قدر كبير من الجمال، وطول العنق تزينها أقراط من الأحجار الكريمة، ومثل تلك تليق به، وهي أهل لنيل مودته، وحبه، والواقع أن هذه الظاهرة تتكرر أكثر من مرة في شعر عبيد مما يؤكد لنا أن الشاعر كان يتحلى بنفسية الفارس

---

[٢٢] ـ انظر المرجع السابق ص٦٨.
[٢٣] ـ انظر المرجع السابق ص١٣٨.
[٢٤] ـ انظر المرجع السابق ص٨٣.

العالية، والسيد المرموق المكانة في قومه والمترفع عن سفاسف الأمور ومما يوضح ذلك قوله مؤكداًعلى صفات محبوبته من جمال في مظهرها ومخبرها "من البسيط"[٢٥] :

لِمَنْ جمَالٌ قُبَيْلَ الصّبْحِ مَزْمُومَهْ ... مُيَمّماتٍ بلاداً غَيْرَ مَعْلُومَةْ

عَالِيْنَ رَقماً وَأَنْماطاً مُظَاهَرَةً ... وَكِلَّةً بعتيقِ العَقْلِ مَقْرُومَةْ

فِيهن هِنْدٌ وَقَدْ هَامَ الفُؤادُ بهَا ... بَيْضاءُ آنِسَةٌ بالحُسْنِ مَوْسُومَةْ

فَإن هَا كَمَاةِ الجَو ناعِمَةٌ ... تُدْنِي النصِيفَ بكَفٍّ غير مَوْشُومَةْ

وعبيد كأي شاعر جاهلي يتخذ من وصف الناقة سبيلاً للإفصاح عما يتحلى به من قوة وعزيمة وإصرار على بلوغ الهدف، كما يتخذ من وصفه للثور الوحشي مطية للتعبير عما في نفسه من جرأة، وتقحم للمخاطر وانتصار وتألق، وارتفاع على الأحداث، وشعره يفصح عن أيمانه بأن الموت نهاية كل حي يقول "من البسيط"[٢٦] :

يَاعَمْرُو مَاراحَ مِنْ قَوْم ولا ابْتَكَرُوا ... إلا وَلَلْمَوْتُ فِي آثارِهِمْ حَادِي

يَاعَمْرُو ما طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلا غَرُبَتْ ... إلا تَقَربُ آجَالٌ لِميعَادِ

فسهام المنايا لاتطيش، ومن لم يمت اليوم فسيموت غدا، لقد تأمل عبيد طويلاً فأيقن أنه لايملك شيئاً ومعه معظم شعراء عصره فالجميع صرعى الأيام وانطلاقاً من هذه النقطة بل الحقيقة العارية نسبح الشاعر تجربته وضمنها خلجات نفسه في قصته مع الزمن المرير وحول هذه النقطة يقول الدكتور محمد النويهي "إن الجاهليين قد أحسوا بالموت إحساساً قوياً ويحتم وقوعه رأى رأْيَ العين تلاعب القدر بهم وتقلب صروفه عليهم في هذه الحياة المحدودة الفانية وأن غيرهم من الشعوب في مختلف الأزمان والبيئات أدركوا هاتين الحقيقتين، فأثرتا فيهم لكن إحساس الجاهليين بهما كان زائد الحدة، ويبلغ درجة العنف وأنه لم تكن عندهم عقيدة دينية تخفف عنهم مرارة فكرة الموت، وتؤهلهم لحياة أخرى تلهمهم العزاء والتفاؤل لذلك اعتمدوا اعتماداً كلياً على الإنسان نفسه وذلك أيضاً بدون شعورهم على الإنسان في علاقته بعضه ببعض، وفي تقلبه في أركان الطبيعة القاسية الكنود وفي علاقته بالحيوان وفي صموده لآخر لحظة

---

[٢٥] ـ انظر ديوان عبيد ص١٢٧-١٢٨.

[٢٦] ـ انظر المرجع السابق ص٤٨.

ممكنة أمام القدر والشيخوخة والفناء والموت[27] ومن هنا فإن اللحظة الطللية تعتبر لحظة تأمل أمام العقل. يقول الدكتور محمد زكي العشماوي حول هذه الفكرة "إن صورة العدم هذه التي يرمز لها الطلل تقف جنباً إلى جنب مع صورة الحياة النامية المزدهرة التي تتراءى من خلال حركة الرياح، ونزول المطر، وعودة النبات من جديد، فهاهي العين والأرام والنعامة تملأ المكان، وهاهي ذي صغارها الرامزة إلى الولائد والولادة والتجدد تنعم بالحياة[28] .

فالموت والحياة يتصارعان ويتنازعان في نفس الشاعر في هذا الموقف غير أننا رأيناه لايستسلم بهذه السهولة لقد كانت نفسه أصلب وأقوى على تحمل صروف الدهر ولذلك تجده يفيق من ذهوله بعد الوقفة الطللية قائلاً "من الرمل"[29] :

فَانْصَرِفْ عَنْهُمْ بعَنْس كَالوأى الـ ... جَأْبِ ذي العَانَةِ أَوْ شَاةِ الرِمَال

وينطلق إلى الصحراء الساكنة الموحشة ليجعلها مصدر حركة ونشاط وحيوية وكأنه يريد أن يقول لنا أن الحياة زاخرة متدفقة في كل حبة رمل، وأن لايأس ولاقنوط.

لقد كان وصف الرياض والمراعي والغيث عند عبيد وعند غيره من الشعراء الجاهليين دليلاًعلى تعشقهم للجمال، وعلى هيامهم بالطبيعة ولذلك كان يفرح وينتشي لمشاهد الخصب والنماء ومما يوضح ذلك قوله في وصف البرق والغيث وتصويره لأثر ذلك على الحياة والناس في تلك البيئة والأبيات من البسيط:[30]

يَا مَنْ لِبَرْق أَبِيْتُ اللَيْلَ أَرْقُبُهُ ... من، عارض كَبَياض الصبْح لَماح

كَأَن مَا بَيْنَ أعْلا هُ وَأَسْفَلِهِ ... رَيْطٌ مُنَشَّرَةٌ أو ضَوْءُ مِصْبَاحَ

فَمَنْ بنَجْوَتِهِ كَمَنْ بمَحْفَلِهِ ... والمُسْتَكِن كَمَنْ يَمْشِي بقِرْوَاح

فَأَصْبَحُ الرَوْضُ والقِيعَانُ مُمْرعَةً ... مِنْ بَيْن مُرْتَفِق فيهِ ومِنْ طاحِي

وحتى في الفخر فإننا نرى ذلك البعد النفسي عند عبيد حيث سيادة النظام القبلي، ودمج الفرد بالجماعة، وإعلاء القيم الجماعية على حساب قيم الفرد في كثير من الأحيان،

---

[27] ـ انظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه،د. محمد النويهي، الدار القومية، القاهرة، ص ٤١٩ ـ ٤٢٧.

[28] ـ انظر قضايا النقد الأدبي المعاصر ص١٥١ للدكتور محمد زكي العشماوي.

[29] ـ انظر ديوان عبيد ص١١٦.

[30] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٣٧.

حتى أنه ليصعب علينا في كثير من المواقف أن نميز بين شخصية الشاعر الذاتية وبين شخصيته القبلية، فالفخر بالذات أمسى متحداًبالفخر بالقبيلة، وماذاك إلا لحاجة الفرد إلى ملاذ أمين، وموئل مستقر يشعر فيه بالطمأنينة والأمن ولنا في فخر شاعرنا مثال حي على مانذهب إليه من كونه يتضمن كثيراًمن الأبعاد النفسية، وأنه ليس بالفخر الصادر عن طبول الحرب وصهيل الخيل، وصليل السيوف، فعبيد عندما يفتخر بقومه فإنه يتعدى بهم صفات القوة والبطش، إلى المعاني الإنسانية الكبرى من ذلك قوله "من البسيط"[٣١] :

وَفِتْيَةٍ كَلُيُوثِ الغَابِ مِنْ أَسَدٍ ... ما لِلْنَّدى عَنْهُمُ نَـزْحٌ وَلَاشَحَطُ

بيضٌ بَها لِيلُ يَنْفِي الجَهْلَ حِلْمُهُمُ ... وَتَفْزَعُ الأَرْضُ مِنْهُمْ إنْ هُمُ سَخِطُوا

إذَا تَخَمَّطَ جَبَّارٌ تَنَوْهُ إلى ... مايَشْتَهُونَ وَلا يُثْنَوْنَ إنْ خَمِطُوا

والفَارِجُو الكَرْبَ والغُمَّى برأْيهمُ ... إذَا تَشَابَهَتِ الأَهْوَاءُ والصَّرُطُ

والخَالِطُو مُعْسِراً مِنْهُمْ بمُوسِرِهِمْ ... وَأَكْرَمُ النَّاس مَطْرُوقاً إذا اخْتُبِطُوا

لا يَحْسِبُونَ غِنىً يَبْقَى وَلا عَدَماً ... إذَا رَأى ذَاكَ مِنْهُمْ مَعْشَرٌ فَرَطُ

وتتجلى لنا في حكمة عبيد الأبعاد النفسية، والقيم الاجتماعية والأخلاقية والتاريخية، فهي أيضاً تطلعنا على بعض عادات العرب ونظراتهم إلى الحياة من فلسفة أنانية قبلية، ومن حسن التصرف بعقل وروية في تلك البيداء القاسية، وتبين لنا مدى التنازع على البقاء، والحفاظ على الحياة علاوة على بعض الأخلاق العربية الأصيلة من بر للآباء ووفاء وحسن معاشرة للآخرين، ويبدو لنا أن شاعرنا من وراء ذلك كله شيخاً كبيراً، وحكيماً بصيراً أدرك معاني الحياة ونفذ إلى أعماقها غير منساق وراء عواطفه وأهوائه الشخصية ويلوح لنا هادئ النفس نافذ البصيرة يختط لنفسه طريقاً سليمة في الحياة وهو يدعو الآخرين لتمثل هذه الطريق والسير فيها، ويسوق لنا حنكته في أسلوب تقريري لانهي فيه ولا أمر فالشاعر يقرر الحقيقة ويضعها أمامنا عارية دون تحوير، وقد عالج شاعرنا كثيراً من قضايا مجتمعه الجاهلي بكل تأمل وتؤدة في التفكير، وكان من أهم تلك القضايا وقوفه عند قضية الموت والحياة ورؤيته للمصير المحتوم الذي ينتظر الإنسان، والخير والشر وصراعهما الأبدي يقول "من البسيط"[٣٢] :

---

[٣١] ـ انظر المرجع السابق ص٨٦-٨٧.

[٣٢] ـ انظر ديوان عبيد ص١٤.

سَـاعِدْ بـأَرْض إذَا كُنْـت فِيْهَـا   ولا تَقُـلْ إنَّـني غَرِيْـبُ

ولعل دعوة عبيد هذه تذكرنا بدعوة زهير فيما بعد إذ يقول "من الطويل"[٣٣] :

وَمَـنْ لا يُصَـانِعْ في أُمُـور كَثِـيْرَةٍ   يُضَـرس بأَنْيَـابٍ وَيُوطَـأْ بِمَنْسِـم

يقول حنا الفاخوري عن حكمة عبيد "وربما وجدنا حكمة عبيد ذات صبغة كئيبة هي نتيجة لنظرة جريئة وصادقة إلى الحياة، وأنك وأنت تقرأ الأبيات تشعر بجو من الوجوم ورهبة الموت، ونشعر بأن الشاعر يستخف بالحياة مهما طالت[٣٤] .

ومما يوضح لنا ذلك قوله "من البسيط"[٣٥] :

وَالمَـرْءُ مَـا عَـاشَ في تَكْذِيْـبٍ   طُـولُ الحَيَـاةِ لَـهُ تَعْذِيْـب

ويكرر عبيد فكرة التشاؤمية من غير ملل رغبة منه في التقرير للحقيقة وربما رأيناه لايؤمن بكثيرٍ من خرافات الجاهليين من زجر للطير وما إلى ذلك بالرغم من إيراده لها في شعره اعتقاداً منه أن ماصنع ا لله لايعرفه البشر، وتتراءى لنا حكمة عبيد قريبة من نفسه وواقعية فهي ليست آراء عامة موجهة إلى الناسِ ذلك أن الشاعر يجعل لنفسه نصيب غيره منها، وهو يشعر بنكبات الحياة شعوراً قوياً لانملك إلا أن نشعر معه ونشاركه ذلك الإحساس، وطبيعي أن يتسم شعر عبيد بالواقعية بعد أن بلغ من العمر عتياً، وجرب وشاهد وعاصر من الأحداث مما يعظ الإنسان العاقل على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي.

والناظر في شعره بعامة فإنه سيجد اختفاء الفردية إلى حد بعيد فيه، فهو في معلقته مثلاً يبدو لنا سلبياًخائفاً مذعوراً، مستسلماًمهزوماً أمام فعل الزمان يقول[٣٦] :

وَرُب مَـاء وَرَدْتُ آجِـق   سَـبِيْلُهُ خَـائِفٌ جَدِيْـبُ

رِيْـشُ الحَمَـام عَلَـى أَرْجَائِـهِ   لِلْقَلْـبِ مِـنْ خَوْفِـهِ وَجِيْـبُ

إن الشاعر لايريد أن يظهر نفسه هنا في موضع المقتحم المخاطر كما تعودنا منه ذلك وقد استطاع أن يمزح إحساسه بالخوف بأحاسيس أخرى وأن يؤلف بينها جميعاً فالطلل والطبيعة، والمجتمع،تمثل في رأي الشاعر مصادر موت وفناء يقول "من البسيط أيضاً"[٣٧] :

---

[٣٣] ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي تحقيق د.فخر الدين قباوة طبع دار الكتاب العربي ١٩٦٩.

[٣٤] ـ انظر الحكم والأمثال حنا الفاخوري طبع دار المعارف سلسلة فنون الأدب.

[٣٥] ـ انظر ديوان عبيد، ص ١٥.

[٣٦] ـ انظر ديوان عبيد، ص ١٣.

[٣٧] ـ انظر المرجع السابق، ص ١٣.

أَرْضٌ تَوَارَثَهـــــــا شَـــــــعُوبُ فَكُـــل مَــــنْ حَلّهَــــا مَحْــــرُوبُ
إمّــــا قَتيـــــلاً وإمـــــا هَالِكَـــــاً والشَــيْبُ شَــيْنٌ لِمَـــنْ يَشِـــيْبُ

إن لعامل السن هنا برأينا دور لايستهان بـه في مثـل هـذا الخنـوع والاستسـلام، والتشاؤم من عبيد الفارس المعلم، والسيد الماجد الذي ملأ الدنيا لهواً وعبثاً في شبابه، وشهدت له جنبات الصحراء بطولاته المظفرة، وهو على ظهـر جـواده الكريـم لكنـه الشعور النفسي بالضعف والانحطاط والوهن، ومن الغريب أن معلقته تكاد تخلـو مـن ذكر المرأة، وهذا موقف يثير الدهشة والتساؤل؟ فاللحظة الطللية عند الجاهليين غالبـاً ما تكرس للمرأة لكننا لانقع على ذلك في معلقة عبيد، ويبدو أن الشـاعر قـد غطـت عليه فكرة الفناء وسيطرت علىماسواها مـن أفكـاره وأحاسيسـه بمـا في ذلـك غـزل الشاعر، أو أن مطلع القصيدة لم ينج من الضياع فوصلت إلينا علـى هـذه الصـورة، فالشيب عند عبيد يبدو مروعاً فظيعاً، ويحمل أبعـاداً نفسـية كثـيرة، فبينمـا رأينـاه في البيت السابق حالته شائنة للمرء قد أصبح الآن في حالـة مروعـة ومخيفـة يفـزع منهـا الشاعر ويقول:[٣٨]

تَصْبُـــو وَأَنّـــى لَـــكَ التّصَــابي أَنّـــى وَقَـــدْ رَاعَـــكَ المَشِـــيْبُ

إن الشاعر ليعبر عن مخاوفه ومشاعره اليائسة هنا بكل صراحـة ومباشـرة وبكـل تعقـل وتأمل مدركاً أبعاد الصراع ونتائجه، ولعل في مصير الثعلب المغلوب على أمره أمام العقـاب الجائعة وهذه السلسلة من الأفعال الدالة كلها على الفناء والتي ساقها الشاعر مثل فـأبصرت فاشتال فأدركته فطرحته فجدلته فعاودته يضغوا منقوب حملاقه مقلوب دليلاً علـى تهـاوي نفسية الشاعر ووهمها واستسلامها، وتداعيها، وكأن عبيـداً يقـول بـأعلى صوتـه أن القـوة هي الحق وهو بذلك يخالف مارأينـاه مـن الشـعراء الجـاهليين بـل ومنـه هـو شـخصياً فمـن المألوف أن الشـعراء يجعلـون النصـر مـن نصيـب الحيـوان المعتـدى عليـه، وربمـا زال سـبب استغرابنا هذا إذا ما عرفنا العوامل النفسية للشاعر في هذه الفترة وتفتتها أمام ضربات الواقـع المؤلم، والماضي الذاهب من فقد للأهل والأحبة، والأصحاب، بل إننـا نـرى مصـير الثعلـب منسجماً مع ماكان يشعر به عبيد ومايعيشه من مواقف، وهكذا فإننا نجد شعر عبيد زاخـراً بالأبعاد النفسية التي تفصح لنا عن تصدع شخصية الشاعر في بعض الأحيان وقد جاء شعره

---

[٣٨] ـ انظر ديوان عبيد، ص ١٣ـ ١٤.

متضمناً كثيراً من القيم الاجتماعية الدينية، والتاريخية سواء أكان ذلك في شباب الشاعر أم في شيخوخته حيث نرى الكآبة والحزن والإحساس بالمصير تسيطر على نفسية الشاعر مما عكس ذلك على صوره الشعرية وعلى بعض المفاهيم المتعارف عليها عند الجاهليين.

وعلى أية حال فمن أهم القيم الخلقية التي تضمنها شعر شاعرنا الكرم والشجاعة، والبخل والحلم والحرية والإباء، والعفاف والطهر، وهذه هي أهم القيم الاجتماعية والخلقية عند العرب[٣٩] .

والواقع أن عبيداً في إشادته بتلك القيم وفي تعبيره عنها في شعره يعد كأي شاعر جاهلي فهو صورة أمينة لواقعه، وبيئته لايتعدى حدودها ولايخرج عن نطاق مفاهيمها، فالشاعر حين يصور مثلاً لنا لوم الزوجة وعتابها فإنه بذلك يعطينا صورة من الممكن أن تحدث داخل أية أسرة وفي أي زمان ومكان. يقول "من الخفيف"[٤٠] :

تِلْكَ عِرْسِي غَضْبَى تُرِيْدُ زِيَالِي ... أَلِبَيْن تُرِيْدُ أَمْ لِدَلال
إنْ يَكُنْ طِبَّكِ الفِرَاقَ فَلا أَحْـ ... ـفَلُ أنْ تَعْطِفِي صُدُورَ الجِمَال
أوْ يَكُنْ طِبَّكِ الدَّلالَ فَلَوْ في ... سَالِفِ الدَّهْرِ وَاللَيَالي الخَوَالِي
ذَاكَ إذْ أَنْتِ كَالْمَهَاةِ وإذْ آ.... ... تِيْكِ نَشْوانَ مُرْخِياً أَذْيَالِي
فَدَعِي مَطَّ حَاجِبَيْكِ وَعِيْشِي ... مَعَنَا بالرَجَاءِ والتَّأْمَال
زَعَمَتْ أَنَّنِي كَبِيْرتُ وأَنِّي ... قَلَّ مَالِي وَضَنَّ عَنِي المَوَالِي
فَارْفُضِي العَاذِلِيْنَ واقْنَي حَيَاءً ... لا يَكُونُوا عَلَيْكِ خَطَّ مِثَال
وَبحَظ مِمَّا نَعِيْشُ فَلا تَذْ... ... هَبْ بِكِ التُرَّهَاتُ في الأَهْوَال
منهُمُ مُمْسِكٌ وَمِنْهُمْ عَدِيمٌ ... وَبَخِيْلٌ عَلَيْكِ في بُخَال

إن الشاعر يطرح قضية فردية في إطار شمولي جامع نستطيع أن نعممه على المجتمع كله، وهو يبدو لنا من خلال هذه القضية زوجاً متفهماً للأمور خبيراً بسجايا المرأة، ولعل تساؤله في البيت الأول وإيراد الجواب في البيت الثاني دليل على خبرته الواسعة في هذا المجال فاللوم والعتاب إن كانا صادرين حقاً عن دلال من تلك المرأة فإن الأمر يهون،

---

[٣٩] ـ انظر الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، د. محمد محمد حسين، ص ٧٦ـ ١٠١.

[٤٠] ـ انظر ديوان عبيد، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

ولكنهما إن كانا صادرين عن حب للفراق والهجران فإن الأمر يختلف وكذلك الحل.

إننا نلمح عبيداً هنا يقف وقفة الرجل الحازم العاقل المدرك تماماً لأسباب الحفاظ على الأسرة، فلا أسرة بدون حب، وانطلاقاً من هذا يطلق عبيد حكمه السديد بإعطاء تلك المرأة حريتها، ويحجم عاطفته ويكبت مشاعره ذلك أنه لايرضى ولايقبل أن يعيش مع امرأة لا تضمر له الحب والوفاء، ولا أظن عبيداً هنا يخرج عن سنة معظم الشعراء الجاهليين ذاك هو الحل عند عبيد لمثل تلك المشكلة ساقه لنا بكل صراحة وجرأة أما إذاكان موقف هذه المرأة ينطلق من الدلال على الزوج كما أشرنا ومداعبته، وتذكيرها له بأيامهما الخالية فإن عبيداً الحازم القوي يتحول إلى محاور ومفاوض ناجح يلبس ثوب النصح والإرشاد، ونستشف نظرة الشاعر للمرأة الزوجة حتى أنه ليمكننا أن نقول عنها بأنها نظرة تتسم بالعقل والحكمة، وهي تفصح في الوقت نفسه عن مدى احترام الرجل في الجاهلية بعامة لزوجته وتقديره لها، كما تكشف لنا عن تمسك الشاعر الشديد بالروابط الأسرية ورغبته الملحة في الحفاظ عليها، ونلاحظ أن غزل الشاعر يقترب هنا من شاطئ العفاف، ويترفع عن الخوض في فاضح القول فلا يتعرض للجسد ومفاتنه كما هو الحال في تغزله للمرأة العشيقة وهذا يفسر لنا من جانب عنصر الغيرة التي اتسم بها العربي تجاه عرضه ومن القيم الاجتماعية التي تضمنها شعره قيمته التحالف وحقوق الحليف بالانتصار له، وحمايته، وهذه قيمة اجتماعية عرف بها العربي ومما يوضح ذلك قوله "من الكامل"[41]

إنّـــا لَعَمْـــرُكَ لا يُضَـــا..... حَلِيْفُنَــا أَبَــداً لَدَيْنَــا

وأحياناً يلوم الشاعر حليفه لأنه لم يستنجد ببني أسد على عدوه فكان أن هزم وهذه إشارة لماحة من الشاعر عن قوة بني أسد يقول "من البسيط"[42] :

دَعَـا مَعَاشِـرَ فاسْـتَكتْ مَسَـامِعُهُمْ   يَالَهْفَـةَ نَفْسِـي لَـوْ تَدْعُـو بَنِـي أَسَـدِ

تَدْعُـو إذَنْ حَـامِي الكُمَـاةَ لا كَسِـلاً   إذا السُيُوفُ بِـأَيْدي القَـوْم كَـالوَقَدِ

لَـوْ هُـمْ حُمَـأتُكَ بـالمَحْمَى حَمَـوْكَ وَلَـمْ   تُـتْرَكْ لِيَـوْمِ أَقَـامَ النَـاسَ في كَبَـدِ

إن هذا لمنتهى الوفاء بالعهد للحليف ونصرته من قبل الشاعر وقومه، ويبدو أن التحالف بين القبائل كانت ترافقه مراسيم معينة ينبغي القيام بها حتى يتم الحلف بين

---

[41] ـ انظر ديوان عبيد ص١٣٨.

[42] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٥٨.

القبيلتين يقول شاعرنا مشيراًإلى ذلك "من الكامل"[43] :

صَبْراً عَلَى مَاكَانَ مِنْ حُلَفَائِنَا ... مِسْكٌ وَغِسْلٌ في الرُؤُوس يُشَيبُ

ومادمنا في حديث الأحلاف والمتحالفين فلننظر كيف وصف عبيد الحرب وماهي القيم الاجتماعية التي تضمنه تصويره لها، فالحرب من تقاليدها عند الجاهليين استشارة النصب، ثم قسم الجيش إلى كتائب هذا مايقوله شاعرنا "من الكامل"[44] :

أُنبئْتَ أَنَّ بَنِي جُدَيْلَةَ أَوْعَبُوا ... نُفَرَاءَ مِنْ سَلْمَى لَنَا وَتَكَتَّبُوا

وَلَقَدْ جَرَى لَهُمُ فَلَمْ يَتَعَيفُوا ... تَيْسٌ قَعِيْدٌ كَالوَلِيّةِ أَعْضَبُ

وَأَبُو الفِرَاخ عَلَى خَشَاش هَشِيْمَةٍ ... مُتَنَكِّباً إِبْطَ الشَمَائِل يَنْعَبُ

ولعل من عادات المقاتلين لبس الخوذات الحديدية لاتقاء الضربات على الرأس يقول شاعرنا:[45]

شُمٌّ كَأَن سَنَا القَوَانِس فَوْقَهُمْ ... نَارٌ عَلَى شَرَفِ اليَفَاع تلَهبُ

وكانت الإبل على مايبدو تشترك في القتال إلى جانب الخيول ولعلها كانت تحمل المؤن وغيرها من ماء ونساء في أرض المعركة، وغالباًماكانت تدور معاركهم في الصباح الباكر لتحقيق عنصر المفاجأة للعدو، ومما يوضح ذلك قول عبيد "من الكامل"[46] :

وَغَدَاةَ صَبّحْنَ الجفَارَ عَوَابساً ... يَهْدِي أَوَائِلَهُن شُعْثٌ شُز بُ

وَلَّوْا وَهُن يَجُلْنَ في آثَارهِمْ ... شَلَلاً وَبَالَطْنَاهُمُ فَتَكَبْكَبُوا

ويخيل إلينا أنه من المفيد أن نذكر هنا إصرار الشاعر على الطعن بالصبر مما يدل على شرف القتال ونبله، والابتعاد عن الغدر والخيانة وتلك شيمة عربية أصيلة لاعند عبيد فحسب، وإنما عند كل عربي، ولذا فإن الشاعر يؤكد على هذه القيمة في شعره ومن ذلك قوله "من الطويل"[47] :

---

[43] ـ انظر المرجع السابق ص٦١ الغسل. الخطمي وورق السدر. يشيب. يخلط يريد أنه لم يكن بيننا وبينكم إلا الحنوط والغسل وذلك لأن العرب كانت إذا أرادت الحرب جعلت معها الحنوط واستبسلت في القتال.

[44] ـ انظر ديوان عبيد، المرجع السابق، ص ٥ ـ٧.

[45] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٤.

[46] ـ انظر المرجع السابق، ص٧.

[47] ـ انظر المرجع السابق، ص ٣٢. ويكرر المعنى نفسه في ص ٤٩.

وَقَـدْ أَتـرُكُ القَـرْنَ الكَمِّـي بصَـدْرِهِ		مُشَلْشَـلَةً فَـوْقَ النِطَـاق نَفُـوحُ

ولاغرو في ذلك، فالعربي يعشق شيئاً اسمه الشرف، ويتعشق الوفاء ولا يمنعه وجوده في ساحة المعركة وهو يجابه الموت من أن يلتزم بهذا الخلق، وهو أبعد مايكون في تعامله عن الغدر والخيانة، فقد كانا أبد الدهر خلقين ذميمين عنده ومما يوضح ذلك قول شاعرنا "من الطويل"[48] :

إذَا أَنْـتَ حَمّلْـتَ الخَـؤُونَ أَمَانَـةً		فَـإنّكَ قَـدْ أَسْـنَدْتَها شَـر مُسْـنَدِ

وَجَـدْتَ خَـؤُونَ القَـوْم كَـالعَرِّ يُتقَـى		وَمَـا خِلْـتُ غَـمَّ الجَـار إلا بمَعْهَـدِ

فالجيرة عند الشاعر تشكل قيمة اجتماعية عالية يجب الحفاظ عليها والعمل على صيانتها ورعايتها، ومن القيم الاجتماعية التي نجدها في شعر عبيد أيضاً صلة الرحم، ووصل القرابة حيث يقول "من الطويل"[49] :

وَلا تَزْهَـدَنْ في وَصْـل أَهْـل قَرَابَـةٍ		لِذُخْـر وفي صَـرْم الأَ بَـاعِدِ فَـازْهَدِ

ومن أسوأ العادات التي تضمنها شعر عبيد عادة الأخذ بالثأر تلك العادة التي وصل بها العربي إلى حد التقديس، وتشكل هذه العادة السيئة جزءاً لايستهان به من حياة الإنسان الجاهلي، فهو واتر وموتور منه على أن دريد بن الصمة قد عبر عن هذا صراحة حين قال "من الطويل"[50] :

تَقُـولُ أَلَا تَبْكِـي أَخَـاكَ وَقَـدْ أَرَى		مَكَـانَ البُكَـا لَكِـنْ بُنِيْـتُ عَلَـى الصَـبْر

فَأَمّـا تَرَيْنَـا لاتَـزَالُ دِمَاؤُنَـا		لَـدَى وَاتِـر يسـعى بهـا آخـر الدهـر

يُغَـارُ عَلَيْنَـا واتِريـنَ فَيُشْـتَفَى		بنَـا إنْ أُصِبْنَـا أَوْ نُغِـيْرُ عَلَـى وتْـر

قَسَمْنَا بـذَاكَ الـد هْـر َشَـطْرَيْن بَيْنَنَـا		فَمَـا يَنْقَضِـي إلا وَنَحْـنُ عَلَـى شَـطْر

تلك حياة العربي الجاهلي حلقة مفرغة. وثأر يتبعه ثأر آخر، ولامناص من المطالبة به وإلا عد الرجل من سقط المتاع، وجلب العار لنفسه ولأهله ولذا فقد رأينا عبيداً يعير امرأ

---

[48] ـ انظر المرجع السابق ص٥٥ ويحتمل أن يكون الشاعر قد قصد هنا وصل الأباعد أيضاًوليس هذا ببعيد فهو أقرب لشخصية عبيد من المعنى الآخر.

[49] ـ انظر ديوان عبيد ص٥٦.

[50] ـ انظر ديوان الحماسة لابي تمام، ج. ١، ص ٣٤١ بشرح التبريزي، ط٣، ١٩٢٧، المكتبة الازهرية، مطبعة السعادة، مصر.

القيس بن حجر في كثير من قصائده لتخليه عن هذه العادة من مثل قوله "من الطويل"[51] :

وَأَنْـتَ امْـرُؤٌ أَلْهَـاكَ زِقٌّ وَقَيْنَـةٌ فَتُصْبِـحُ مَخْمُـوراً وَتُمْسِـي مُتَارِكَـا
عَنِ الوِتْرِ حَتَّى أَحْرَزَ الوِتْرَ أَهْلُهُ فَـأَنْتَ تُبَكِّـي إِثْـرَهُ مُتَهَالِكَـا
فَلا أَنْـتَ بِالأَوْتَـارِ أَدْرَكْـتَ أَهْلَهَـا وَلا كُنْـتَ إِذْ لَـمْ تَنْتَصِـرْ مُتَمَاسِـكَا

وجمله القول: إن عبيداً بن الأبرص قد تغنى بالقيم الخلقية والاجتماعية في أغلب قصائد شعره، وهي في مجملها تشكل القيم العربية الجاهلية المتعارف عليها، ويتراءى لنا أن الشاعر لم يخرج عن ذلك الإطار المألوف لدى العرب الجاهليين إلى شيء جديد، ومن شاء الاستزادة في هذا المجال فليرجع إلى ديوان الشاعر.[52]

أَما القِيَمْ الدينية التي جاءت في شعره من ذكر للأصنام وعبادتها والتوحيد وفكرة الإيمان، ونظرته إلى الموت والحياة فهي برأينا لاتعدو أن تكون إشارات سريعة وخاطفة لايستطيع الباحث إطلاق حكم قاطع بناءً عليها.

وكما علمنا فإن قبيلة بني أسد كانت وثنية الديانة في الجاهلية شأنها شأن أغلب القبائل المضرية، ويبدو أن شاعرنا كان في مطلع شبابه وثني الديانة فنحن لانرى في شعره الذي نرجح أنه قد قاله في سن الشباب أية إشارة إلى ذكر الله أو الموت أو البعث والنشور كما نرى ذلك في شيخوخته، ونستطيع أن نلمح بعض تقاليد دينية كانت عند العرب الجاهليين من خلال شعر عبيد الذي خاطب به بني جديلة "من الكامل:"[53]

أُنْبِئْـتُ أَنَّ بَـنِي جُدَيْلَـةَ أَوْعَبُـوا نُفَـرَاءَ مِـنْ سَـلْمَى لَنَـا وَتَكَتَّبُـوا
وَلَقَـدْ جَـرَى لَهُـمُ فَلَـمْ يَتَعَيَّفُـوا تَيْـسٌ قَعِيـدٌ كَالوَلِيَّـةِ أَعْضَـبُ
وَأَبُـو الفِـرَاخِ عَلَـى خَشَـاشِ هَشِـيْمَةٍ مُتَنَكِّبـاً إِبْـطَ الشَّـمَائِلِ يَنْعَـبُ
وَتَبَـدَّلُـوا اليَعْبُـوبَ بَعْـدَ إِلهِهِـمْ صَنَمـاً فَقَـرُّوا يَـا جُدَيْـلَ وَأَعْذِبُـوا

[51] ـ انظر ديوان عبيد ، ص ٩٣ ـ٩٤.

[52] ـ انظر المرجع السابق ص ٧٨ـ ١٣٠ـ ١٠٣ـ ٤٥ـ ٤٢ـ ٤٨ ـــ ٣٩، حيث يتغنى الشاعر بكثير من القيم والعادات الجاهلية.

[53] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٣ ـ٤ .

ويبدو أن بعض القبائل كانت تحمل آلهتها معها في الحرب تيمنا وتبركاً وشاعرنا يعير العدو لتبديلهم صنمهم بصنم آخر، كما أنه يلوومهم على سيرهم وإصرارهم على حرب بني أسد رغم زجر الطير لهم مما يدل على إيمانهم واعتقادهم بمثل هذه الأشياء من زجر وعيافة، ويقول الدكتور شوقي ضيف عن الحياة الدينية في الجاهلية "ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة في نذورهم وقرابينهم، وكانت لكل صنم تلبية خاصة"[٥٤]

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه بعض تلبيات تلك القبائل أثناء طوافها بالبيت العتيق في مكة ومنها تلبية بني أسد، يقول اليعقوبي "وكانت تلبية بني أسد لبيك اللهم لبيك يارب أقبلت بنو أسد أهل التواني والوفاء والجلد إليك"[٥٥]

ويضيف اليعقوبي قائلاً "وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل، فكانت قريش وعامة ولد معد بن عدنان على بعض دين إبراهيم ويحجون البيت، ويقيمون المناسك، ويقرون الضيف، ويعظمون الأشهر الحرم[٥٦] .

ويمكننا أن نقسم حياة هذاالشاعر الجاهلي الدينية إلى فترتين وقد نراه في الفترة الأولى وهي فترة الشباب وثنياً متطيراً متعيفاً كسائر أبناء قبيلته التي اشتهرت بهذا[٥٧]

وقد كان في الفترة الأولى من حياته وهي الفترة التي لم يكن قد ظهر فيها أي تأثير على الشاعر وثنياً وعلى هذا يمكننا أن نستنتج أن هذا الشاعر كان قليل التجوال في شبابه وبالتالي فهو لم يتأثر بما حوله من ديانات سماوية كاليهودية والنصرانية إلا بعد أن بلغ أشده من العمر حيث نرى في شعره جنوحاً إلى الإيمان وذكر ا لله والبعث والحساب ويعلق الأب لامنس على حكاية نقل الأصنام إلى ساحة المعركة كما وردت بشعر عبيد قائلاً:

"وهذا دليل على أنهم كانوا ينقلون الحجارة المؤلهة في حروبهم معهم وكذلك يصطحبون بعض الكهنة معهم لإفادة المحاربين بالمعلومات الطبية، ويمدونهم بمقدرتهم

---

[٥٤] ـ انظر العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ص ٩٣.

[٥٥] ـ انظر تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢١٣، المكتبة المرتضوية، بغداد.

[٥٦] ـ انظر المرجع السابق، ص ١ ٢ـ ٢١٣.

[٥٧] ـ انظر العصر الجاهلي، د.شوقي ضيف، ص ٨٥، وكذلك مروج الذهب للمسعودي، ج٢، ص ٧١.

السرية[٥٨]

ويذكر الخبر ابن الكلبي في كتابه الأصنام فيقول "كان الرجل إذا سافر منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وعلل ذلك بأنهم كانوا يعظمون الحرم[٥٩] .

ونحن نوافق الأستاذ عبد المعيد خان على ماذكره في الأساطير العربية قبل الإسلام حين قرر أن بعض القبائل العربية كانت تعتقد بوجود نسب بينها وبين ماتتخذه طوطماً لها وقد يكون هذا الطوطم حيواناً أونباتاً وهو يحمي صاحبه ويدافع عنه فإذا كان حيواناًأبقى عليه وإذا كان نباتاًلم يتجرأ على قطعه أو أكله إلا أوقات الشدة[٦٠]

ويذكر ابن سعد في طبقاته أن الحجارة المؤلهة كانت نوعان محمولة ومنقولة[٦١] .

وعلى أية حال فنحن نرى أن ديانة الشاعر كانت تمثل في المرحلة الأولى الشكل الأول من المعتقدات الجاهلية فهي بسيطة ساذجة مبنية على الإيمان بوجود أرواح في الأشياء المادية. وهاهو عبيد يردد هذه الفكرة في شعره والبيت من الطويل[٦٢] :

وَخَرْق تَصِيْحُ الهَامُ فِيْهِ مَعَ الصَّدَى   مَخُوفٍ إذَا ما جَنَّهُ اللّيْلُ مَرْهُوبِ

هذا بالنسبة للفترة الأولى من حياة الشاعر أما الفترة الثانية وهي فترة الشيخوخة كما وردت في شعره فإن نمو وتطور الفكر الديني عند هذا الشاعر ينقلنا إلى مرحلة جديدة وبعيدة كل البعد عن الفترة الأولى حتى ليخيل لنا لأول وهلة أن لارابط بين الفترتين وأن هذه الفترة فترة نضوج وارتقاء في فكر عبيد الديني حيث نراه لايذكر الأصنام والأوثان ونجد استعداداً كبيراً وتقبلاً لفكرة التوحيد عند هذا الشاعر الوثني النشأة ويذكر ابن حبيب في المحبر أن طائفة كنت تدعى باسم الحنفاء ومنهم عبيد بن الأبرص كان عندها استعداد لفكرة الإله الواحد وقد اعتراها الشك بالدين الوثني.

---

[٥٨] ـ انظر الحجارة المؤلهة وعبادتها عند العرب في الجاهلية، مجلة المشرق الكاثوليكية، عام ١٩٣٨.

[٥٩] ـ الاختام لابن الكلبي، ص٣٣.

[٦٠] ـ الاساطير العربيةقبل الاسلام، عبدالمعيدخان، القاهرة، ١٩٣٧، ص ٥٥.

[٦١] ـ طبقات ابن سعد الكبرى، الجزء الاول، ص١٢.

[٦٢] ـ ديوانه ص ٢٧ الهام والصدي ذكر اليوم. وكانت العرب تعتقد بأن القتيل تنقلب روحه الى طائر يَظل يحوم هائماً الى ان يؤخذ بثأره فيهدأ، وانظر ديوان عبيد ص ٤١ حيث يقول والبيت من البسيط:

أو صرت ذا بومة في رأس رابية   أو في قرار من الأرضين قرواح

فراحت تلتمس لنفسها ديناً جديداً يهديها في الحياة وقد كان أفراد هذه الطائفة منتشرين في القبائل ومنهم من حرم على نفسه الخمر والأزلام[63] يقول جواد علي:

"ويزعم بعض المستشرقين أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة في شعر الجاهليين بدلاًمن كلمة اللات التي تتفق معها في الوزن[64]

إلا أننا نوافق الدكتور جواد علي من أن الجاهليين قد عرفوا ا لله وآمنوا بالقدر وقد وجدنا لبيد بن ربيعة في معلقته يشير إلى مثل هذه الفكرة قائلاً والبيت من الكامل[65] :

فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ المَلِيْكُ فَإِنمَا قَسَمَ الخَلا ئِقَ بَيْنَنَا عَلاَّمُهَا(٣)

فلا عجب إذن أن يكون عبيد بن الأبرص قد عرف التوحيد وآمن به ولاسيما في أواخر حياته ولاشك أنه قد تأثر بالديانات المجاورة من نصرانية ويهودية بعد أن اتصل بالمناذرة والغساسنة في أطراف الجزيرة العربية وقد ثبت لنا هذا الاتصال الوثيق بما لايدع مجالاً للشك.

ويعد ابن قتيبة عبيداًمن الموحدين في الجاهلية كما تعرف معه أمية بن أبي الصلت ويورد بيت عبيد بن الأبرص والبيت من الكامل:[66]

وَلَيُقْنِيَنْ هذَا وَذَاكَ كِلا هُمُا إلا الإلَهَ وَوَجْهَهُ المَعْبُودَا

وتدلنا أشعار عبيد التي صور لنا فيها طرفاً من الحياة الدينية في الجاهلية بغض النظر إن كان من الحنفاء أو لم يكن على فكرة قلقة في حياة الجاهليين وتنم عن تطور بارز في الفكر الديني عند العربي الجاهلي ونستطيع اعتبار ذلك من الإرهاصات التي سبقت ظهور الدين الإسلامي في الموت والعفو والعقاب وبر الوالدين.

وبإمكاننا القول بأن مدرسة الأوسيين "عبيد الشعر" كانت ثمرة من ثمرات تلك الفترة وامتداداً لها إن صح التعبير، ومن هنا نستطيع أن نفسر تلك النقلة عند عبيد من الضد إلى الضد ولعل في غزل الشاعر مايؤيد ماذهبنا إليه. فقد رأيناه لايتورع عن الفحش فيه في مطلع حياته وقد سقنا الأمثلة على ذلك إلا أننا نراه في أواخر حياته

---

[63] ـ المحبرلابم حبيب، ص ٢٣٧.

[64] ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جواد علي، ج٦، ص٣٠٥

[65] ـ شرح المجلدات العشر للتبريزي، تحقيق فخر الدين قبارة، حلب، ١٩٦٩،

[66] ـ المعارف لابن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشه، ص ٦١٦ ومابعدها.

يتعفف في غزله ويعتدل في سائر حديثه عن المرأة كما يقلع عن شرب الخمر ومعاقرتها بعد أن عب منها في شبابه كؤوساً مترعة يقول "من البسيط:"[٦٧]

وَقَهْوَةٍ كَرُفَاتِ المِسْكِ طَالَ بِهَا ... في دَنِّهَا كَر حَوْل بَعْدَ أحْوَال

بَاكَرْتُهَا قَبْلَ أنْ يَبْدُو الصَبَاحُ لَنَا ... في بيت مُنْهَمِر الكَفَّيْن مِفْضَال

إننا نراه اليوم يتنكر ويبرأ من الأمس وَكأنْ لم يكن إذ يقول من البسيط[٦٨] :

ما الطَرْفُ مِنّي إلى ما لَسْتُ أَمْلِكُهُ ... مِمّا بَدَا لي ببَاغي اللّحْظِ طَمّاح

وَلاأُجَالِسُ صُبّاحاً أُحَادِثُهُ ... حَدِيث لَغْو فَما جَدّي بصُبَاح

حَلَفْتُ بالله إن االلهَ ذُو نِعَم ... لِمَنْ يَشَاءُ وذو عَفْو وَتَصْفاح

ونراه يتحدث عن الخير والشر بوعي كامل وبإدراك عميق حيث يقول والبيت من البسيط:[٦٩]

الخَيْرُ يَبْقَى وَإنْ طَالَ الزَمَانُ بِهِ ... والشَر أَخْبَثُ ما أوْعَيْتَ مِنْ زَادِ

كما نجده يشير إلى الوالدين وأحب إكرامهما والبر بهما وهي إشارة دينية قيمة من عبيد ومأأقل من دعى بدعوته في ذلك الحين؟

يقول البيت[٧٠] :

وَأُكْرِمُ وَالِدي وَأَصُونُ عِرْضِي ... وَأَكْرَهُ أَنْ أُعَد مِنَ الحِرَاص

وإذا مأأجلنا النظر في معلقته وجدنا فيها مايدل على رقي الفكر الديني عند هذا الشاعر وشذوذه عن القبيلة ومأأندر ماشذ عبيد عنها فهو ابنها البار في جميع الأحوال كما رأيناه يقول من مخلع البسيط:[٧١]

مَن يَسْأَل النّاسَ يَحْرِمُوهُ ... وَسَائِلُ االلهِ لايَخِيْبُ

بالله يُدْرَكُ كُل خَيْر ... والقَوْلُ في بَعْضِهِ تَلْغِيْبُ

واالله لَيْسَ لَهُ شَرِيْكٌ ... عَلامُ ما أخْفَتِ القُلُوبُ

---

[٦٧] ـ انظر ديوانه، ص ١٠٣.
[٦٨] ـ انظر ديوانه، ص ٣٨.
[٦٩] ـ انظر ديوانه، ص ٤٨.
[٧٠] ـ انظر ديوانه، ص ٧٩.
[٧١] ـ انظر ديوانه، ص١٥.

ومهما يكن من أمر صحة نسب الأبيات إلى الشاعر إلا أننا نرى في الإشارات الدينية التي وردت عند عبيد دليلاً على ماكان يعانيه الجاهلي من حيرة وقلق روحي يلح ويضغط عليه وكان العربي في ذلك كله باحثاً عن طريق أو سبيل ترتاح إليه نفسه وتهدأ عنده روحه القلقة فكان الإسلام الحنيف ذلك السبيل وذلك الطريق.

الفصل الثالث

أبرز صور البيئة في شعره

لعل من أبرز صور البيئة عند عبيد صور بعض الحيوانات كالناقة، والفرس وصورة الطلل وماتحمله من دلالات نفسية واجتماعية.

ومامن أحد ينكر دور الناقة في حياة العربي الجاهلي، فالحياة دونها تصبح ضرباً من الخيال في الصحراء العربية المترامية الأطراف، ولذا فقد كانت قريبة من نفسه، فالناقة حيوان قوي صلب الجسم، متين العضلات يتحمل الجوع والعطش لمسافات طويلة، وكل هذه الصفات تتناسب مع من أراد العيش في الصحراء، وكانت حياته قائمة على الحل والترحال، وحمل الأثقال والمتاع وإنه لحق ذاك الذي أطلق على الناقة اسم سفينة الصحراء لأنها في الواقع تشكل ضرورة قصوى في حياة البدو في الصحراء وبالتالي في المجتمع الجاهلي كله، ولاندري على وجه الدقة شيئاً عن الزمن الذي نشأت فيه تلك الصداقة المتينة العرى بين العربي وناقته، غير أننا نرى هذه الصلة قديمة جداً فماوصلنا من أشعار الجاهليين يذكر فضل هذا الحيوان ومكانته عندهم ولاتكاد قصيدة من قصائدهم تخلو من ذكر الناقة ووصفها، فإذا عرفنا ذلك سهل علينا معرفة مارأيناه من مكانة عالية ومنزلة رفيعة لها في نفس العربي الجاهلي، ومدى احتفائه وإكرامه لها حتى أن صاحب الأغاني يورد خبراً فيه شيء من الغرابة عن اهتمام العرب بالناقة فيقول "إن أبي دؤاد الأيادي كانت له ناقة تدعى الزباء أرسلت في سنة قحط أصابت قبيلة إياد فتفرقوا عن مراعيهم فخرجت تلك الناقة تجوس العرب حتى بركت بالحارث بن همام فنزل الشاعر وأهله في جواره[1] .

---

[1] ـ انظر الأغاني لابي الفرج الجزء الخامس عشر ص٩٦- ٩٧ طبع دار الفكر بيروت ١٩٥٦ ص١٣٠

وسواءاً أصح هذا الخبر أم لم يصح، فإنه يفصح عن الأهمية البالغة التي كان العربي يوليها لهذا الحيوان، ويكشف لنا عن قدر كبير من الاحترام والتقدير له.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر بعض أنواع من الإبل كانت العرب تحرمها على نفسها، وذلك إكباراً لها مثل البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي[2]

ويذهب بعض العلماء الباحثين إلى أن هذه التقاليد تدل على أنهم كانوا في حالات خاصة يقدسون الحيوان[3] .

ونحن لانوافق هذا العالم فيما ذهب إليه، وذلك نظراً لعدم وجود أدلة قاطعة بين أيدينا تؤكد ذلك الرأي، ونرجح أن اهتمام العربي الجاهلي بالناقة على هذاالنحو الذي أشرنا إليه يرجع إلى حاجته الماسة إليها، فقد كانت تمثل كل شيء في الحياة اليومية للبدوي، فعليها كان يعتمد إلى حد كبير في طعامه وشرابه ومسكنه، وانتقاله، ولعل هذا هو مادعى الشاعر الجاهلي إلى أن يكثر من الحديث عنها والاحتفاء بها، ووصفها وصفاً شاملاً ودقيقاًكما نجد ذلك في معلقة طرفة بن العبد[4] .

وقد شكل وصف الناقة جزءاً كبيراً من أشعار الجاهليين، وشغل مساحة واسعة من قصائدهم، وكانوا في الأغلب الأعم يقعون على وصفها بعد ذكر الأحبة والوقوف على أطلالهم الدارسة، ولهم في ذلك مذاهب وأساليب شتى[5] وصور فنية بديعة، والناظر في هذه الأساليب وتلك الصور يلاحظ أنها تكاد تكون متقاربة عند هؤلاء الشعراء حتى أن صفات الناقة تكاد تكون واحدة كذلك فالضخامة والقوة والجلد والصلابة والسرعة من صفاتها المهمة التي نراها عند أغلب الشعراء الجاهليين.

وشاعرنا عبيد بن الأبرص واحد من أقدم هؤلاء الشعراء الذين وصفوا الناقة وأجادوا في وصفها، فقد صورها شاعرنا في أحوال مختلفة فالصيد، والسفر والحرب، ولكل حالة صيغ وتراكيب خاصة بها فناقة الصيد قوية سريعة نشطة كأنها النعام في

---

[2] ـ انظر بلوغ الارب للالوسي الجزء الثالث ص٣٦ـ ٣٧

[3] ـ انظر شعر الطبيعة في الادب العربي للدكتور سيد نوفل ص٢٠

[4] ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، مطبعة دار الكتاب العربي بحلب، ١٩٦٩، معلقة طرفة.

[5] ـ راجع اساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة للدكتور محمد محمد حسين، ص ٥٠ ـ٥٣.

سرعته ونشاطه ومما يوضح ذلك قوله "من البسيط:"[6]

وَالعِيْسُ مُدْبِرَةٌ تُهْوِي بِأَرْكُبِهَا ... كَأَنَّهُنَّ نِعَامٌ نُفَّرٌ مُعُطُ

قَدْ نَكَّبَتْ مَاءَ جِذْعٍ عَنْ شَمَائِلِهَا ... فِي سَبْسَبٍ مُقْفِرٍ حُمْرٌ بِهِ اللُّعَطُ

تَرَى لَهُنَّ عَزِيْفَاً فِي مُوَاثَبَةٍ ... إذا هُمْ لَبِسُوا اللاَّمَاتِ وافْتَرَطُوا

فَتُصْبِحُ الحُقْبُ حَسْرَى فِي مَنَاهِلِهَا ... والكُدْرُ قَدْ قَصُرَتْ عَنْ وِرْدِهَا الوُقُطْ

وكما نجد صورة ناقة الصيد عند عبيد تتلاءم والموقف النفسي للشاعر من حيث استخدام الفعل تهوى ومقارنتها بسرعة النعام النافر المذعور وهو في هذه الحالة يكون أشد سرعة، وخفة، ونشاطاً ومواثبة مما يتطلب أن يكون صوت الناقة شديداً ومتصلاً كالعزيف، وتكون النتيجة المنطقية أن تتفوق هذه الناقة على الحمر الوحشية، وأسراب القطا، وتسبقها إلى مورد الماء، ونجد أن صفات الضخامة، والصلابة والقوة تمتاز بها ناقة الرحلة عنده يقول "من الكامل:[7]"

أَفَلا تَنَاسَى حُبَّهَا بِجُلالَةٍ ... وَجْنَاءَ كَالأُجُمِ المَطِيْنِ وَلُوس

رَفَعَ المُرَارَ مِنَ الرَّبِيعِ سَنَامَها ... فَنَوَتْ وَأَرْدَفَ نابُها بِسَدِيس

فَكَأَن ما تَحْنُو إذا ما أُرْسِلَتْ ... عُودَ العيضَاءِ وَرَوقَهُ بِفُؤوس

فالشاعر يشبهها بالبناء المرتفع، والحصن العالي، وقد رأينا مثل هذا التشبيه عند غير عبيد من الشعراء الجاهليين كطرفة في معلقته إذ يقول "من الطويل:[8]"

---

[6] ـ انظر ديوان عبيد ص٨٤ ـ الاركب جمع ركب وهم ركاب الابل . المعط: جمع معطاء ـ وهي القليلة الشعر ـ نكبت. صرفت. السبسب الارض القفر ـ اللعط: بقع مخالفة للون الصحراء ـ العزيف. الصوت الشديد ـ افترطوا. تسابقوا ـ الحقب: جمع أحقب وهي الحمار الوحش الذي في بطنه بيضاء ـ حسرى: متعبة مما هاجها من سرعة الابل ـ الكدر: ضرب من القطا ـ الوقط: جمع وقيط وهو المتعب ضربا، وصف القطا بذلك لاضطرارها عن التقرب إلى المياه بسبب الابل.

[7] ـ انظر المرجع السابق ص٦٦ـ ٦٨ . الجلالة: الناقة الضخمة . الوجناء : الصلبة الكثيرة اللحم . الاجم: الحصن أو البيت المرتفع . المطين: المطلي بالطين. الولوس: السريعة ـ المرار: شجر تأكله الابل: نوت الناقة: سمنت ـ السديس الذي أتت عليه السنة السادسة ـ تحنو: تعطف ـ العضاه: شجر له شوك ـ المخيلة: الاختيال ـ شريس: الشراسة وسوء الخلق

[8] ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة طبع دار الكتاب العربي حلب ١٩٦٩ ـ وانظر مختار الشعر الجاهلي للسقاط٤ الجزء الأول ص٣١٢.

لَهَـــا مِرْفَقَـــان أَفْتَـــلا ن كَأَنّمَـــا تَمُـــر بسَـــلْمَى دَالِـــج مُتَشَـــدِّد

كَقَنْطَـــرَةِ الرومـــي أَقْسَـــمَ رَبهَـــا لَتُكْتَنفَـــنْ حَتّـــى تُشَـــادَ بقَرْمَـــدِ

والبيت والحصن المطين هما من الأشياء التي يفتقدها الشاعر، فبيته خيمته المتنقلة، وكأن الشاعر حين يشبه ناقته ببيت راسخ ثابت يحلم بحياة يسودها الاستقرار والأمن.

إننا لانرى عبيداً في وصفه للناقة يحاول الاستعانة بشتى الوسائل المتاحة من لفظ وغير لفظ ليجلو لنا صورة ناقته القوية السريعة، ويؤكد على هذاالأمر فيشبهها بحمار الوحش، وثور الوحش الذي قضى ليلة رجبية وهو يقظ حذر من أن تأخذه غفلة، أو يغمض له جفن فيقع في شباك الصيادين وكلابهم الضارية المجوعة المدربة يقول "من الكامل[٩] :"

فَـــاقْطَعْ لُبَـــانَتَهُمْ بِـــذَاتِ بُرايَـــةٍ أُجُـــدٍ إذَا وَنَـــتِ الركَـــابُ تَزَيـــدُ

وكَـــأَنَّ أَقْتَـــادِي تَضَمـــنَ نَسْـــعَهَا مِـــنْ وَحْـــش أَوْرَال هَبِيْـــطٌ مُفْـــرَدُ

بَـــاتَتْ عَلَيْـــهِ لَيْلَـــةٌ رَجَبِيّـــةٌ نَصَبَـــاً تَسُـــح المَـــاءَ أَوْ هِـــيَ أَبْـــرَدُ

يَنْفِـــي بِـــأَطْرافِ الآلاء شَـــفِيْفَهَا فَقَـــدَا وَكُـــل خَصِيْـــل عضـــو يُرْعِـــدُ

إن صورة الناقة عند عبيد بن الأبرص هي الدرع الواقي له من مخاطر الصحراء المجدبة المقفرة إن أراد اجتيازها بأمان وسلام يقول في هذا المعنى "من البسيط:[10]"

وَمَهْمَـــةٍ مُقْفِـــر الأَعْـــلا م مُنْجَـــردِ نَـــائِي المَنَـــاهِل جَـــدْبِ القَـــاع مُنْسَـــاح

أَجَزْتُـــــهُ بعَلَنْـــــدَاةٍ مُذْكَـــرَةٍ كَـــالعِيْر مَنْـــوارَةِ الضَبْعَيْـــن مِسْـــرَاح

---

[٩] ـ انظر ديوان عبيد ص٤٣ـ ٤٤ اللبانة . الحاجة الملحة على الانسان ـــ ذات دراية: ذات لحم وقوة ـ الاجد: الموثقة الخلق ـ ونت الركاب: فترت ـ الاقتاد :جمع قتد وهو خشب الرحل ـ النسع : حبل طويل ـ أورال: اسم مكا ن ـ هبيط: الذي يهبط من مكان إلى مكان ـ مفرد: منفرد عن القطيع ويكون أسرع في عدوه في مثل هذه الحالة ـ ينفي أي الثور: ينحي عنه الشفيف ـ الالاء : الشجر ـ الشفيف الريح الباردة التي كأنها تنضح الماء ـ الخصيل: كل لحم مجتمع.

[١٠] ـ انظر ديوان عبيد ص٣٩ ـ المهمه: الصحراء الواسعة ـ الاعلام: الجبال والحجارة تعلم بها الطرق ليهتدي المسافرون ـ منجرد: قفر عار من الاعلام ـ نا ئـي المناهل: أي ميا هـه متباعدة ـ المنساح: المتسع المنبسط. العلنداة ـ النا قـة الشديدة ـ المذكرة : القوية كـا لذكـر ـ العير: الحمارالوحشي ـ مواره: سريعة السير. الضبع: الابط ـ ممراح. سريعة نشطه. ـ

إننا نلمح عبيداً يفتخر بقطع مثل تلك الصحراء على ناقته الضخمة القوية كما أننا نلمح خوف الشاعر ورهبته أيضاً من تلك الصحراء، وعدم جسارته على قطعها واجتيازها لولا هذه الناقة السريعة النشطة التي بددت قلق الشاعر وخوفه وحيرته.

إن ناقة شاعرنا تبدو من خلال وصفه لها في الصيد، وفي الحرب وسيلة أمان ودرع وقاية في كلتا الحالتين، فهي في الحرب تحميه وترد عنه العدوان بسرعتها وحركتها، وضخامتها ولعل مما يوضح ذلك قوله "من البسيط:"[11]

زَيَّافَةٍ بِقُتُودِ الرَّحْلِ نَاجِيَةٍ ... تَفْرِي الهَجِيرَ بِتَبْغِيلٍ وإرْقَالِ

مَقْذُوفَةٍ بِلَكِيكِ اللَّحْمِ عَنْ عُرُضٍ ... كَمُفْرَدٍ وَحِدٍ بِالجوِّ ذَيَّالِ

وهي تقيه مخاطر الصحراء من جهة ثانية بكل قوة واقتدار، وهو في تصويره لناقته يمثل لنا عزمه على المضي والسير قدماً في طريقه نحو أهدافه المرسومة سواءً أكان ذلك في السلم، أو في الحرب وكأنه يستمد القوة والتصميم من تأمل هذه الناقة الجلود يقول "من الكامل:"[12]

وَإِذَا سَرَيْتُ سَرَتْ أَمُوناً رَسْلَةً ... وإذَا تُكَلِّفُهَا الهَوَاجِرَ تُصْخِدُ

لقد كانت الناقة تلبي بعض حاجات الشاعر النفسية كشعوره بالضعف أمام هذه البيداء المهلكة، وكان يرى فيها القوة والصلابة والتصميم والصبر وقد ساق لنا الشاعر صفات ناقته في صور موحية تفيض بالحياة، والحضور والنشاط والتدفق، والعطاء الذي ليس له حدود وقد أضفى صفتي النجاح والتفوق عليها فهي دائماً قوية، وسريعة تبلغ أهدافها بلا ملل، ولاكلل، وهذا ينسجم مع نفسية الشاعر المتداعية المتهالكة الحزينة التي فقدت أحبتها، ووقفت على أطلالهم منذ قليل، ولذا فإننا نجد الشاعر يتنبه بشكل فجائي ليلم شعث نفسه ولينطلق من جديد في دروب الحياة بعد ذهوله الطللي الكئيب يقول "من الرمل:"[13]

فَانْصَرِفْ عَنْهُمْ بِعَنْسٍ كَالوَأَى الـ... جَأْبِ ذِي العَانَةِ أَوْ شَاةِ الرِّمَالِ

---

[11] ـ انظر المرجع السابق ص١٠٢ـ ١٠٣ـ الزيافة: المختالة في سيرها ـ القتود ـ عيدان الرحل ـ الناجية: السريعة ـ التبغيل والارقال: ضربان من السير ـ الذيال: الطويل الذيل.

[12] ـ انظر المرجع السابق ص٤٣ـ ٤٤ ـ سريت: سرت بالليل ـ الامون: التي يؤمن عثارها ـ الرسلة: السمحة السهلة القياد ـ تكلفها الهواجر: اي السير فيها ـ تصخد: تجد في السير .

[13] ـ انظر ديوان عبيد ص١١٦ـ العنس: الناقة الصلبة ـ الوأي: الحمار الوحشي ـ الجأب: الحمار ـ الغليظ: العانة: القطيع من حمر الوحش و المراد هنا الاتان ـ شاة الرمال: البقرة الوحشية.

وتتكرر مثل هذه الصيغ عند شاعرنا كقوله "من السريع:"[14]

لَــوْلا تُسَــليكَ جُمَالِيــةٌ   أَدْمَــاءُ دَام خُفُّهَــا بَــازِلُ
حَــرْفٌ كَــأَنَّ الرحْــلَ مِنْهَــا عَلَــى   ذِي عَانَــةٍ مَرْتَعُــهُ عَــاقِلُ

لقد جاءت صورة الناقة عند شاعرنا مصبوغة بصبغة البيئة الجاهلية لاتكاد تخرج عنها، وبمثل هذه الصور عبر عبيد عن تجربته الشعرية كاملة، فقد كانت بيئة الشاعر نهراً فياضاً يغترف منه تشبيهاته، وصوره، واستعاراته، فالحارك ككثيب الرمل، والصلابة كصخرة، والجسم كبناء مرتفع شاهق ربما وقعت عينا الشاعر عليه عند ملوك الحيرة، أو الغساسنة، أو غيرهم، والسرعة كثور وحشي يقظ، وهي أدماء كعلاه القين أو كالنعام النافر، وهي تأكل العضاء وغيره من نبات الصحراء، ونستطيع أن نستدل على بعض ماعرفه الإنسان الجاهلي من ألوان النشاط الاجتماعي كوجود حرفة الحدادة، فقد شبهوا صلابة رأسها بالسندان ولو أننا نستبعد أن العرب قد احترفوا مثل هذه الحرفة، وذلك لاحتقارهم لمثل هذه الصنائع والحرف[15] .

ومن ثم فنحن نرجح أن الأعاجم هم الذين كانوا يقومون بمثل هذه الأعمال، ونحن نلاحظ في وصف الناقة عند عبيد وضوح الألفاظ، وضخامتها، وقوتها، وهذا مما يتلاءم مع ما للناقة من صفات القوة والضخامة وغيرها.

ولانرى في شعر عبيد الذي وصف فيه الناقة كلمة نابية، أو صيغة غريبة وإنما نلاحظ البساطة والفطرية في تتابع الصيغ والتراكيب، ولننظر مثلاً إلى قوله "من الكامل:"[16]

أَفَــلا تَنَاسَــى حُبَّهَــا بجُــلا لَــةٍ   وَجْنَــاءَ كَــالأُجُم المَطِيْــن وَلُــوس

إن وصف الشاعر للناقة على هذا النحو المتتابع، وترديده لحرف الجيم هنا ليعطينا درساً موسيقا معيناً بعيداً عن الصنعة والتكلف، ولذلك فقد أضفى جمالاً، ورونقاً، وبهاءً على صورة الناقة، ولقد جاء المعنى حسياً نابعاً من البيئة الجاهلية شأن أغلب معاني الشعر في تلك الفترة ونحن نوافق الدكتور شوقي ضيف على قوله "ولعل أول مايلاحظ على معاني الشعر الجاهلي أنها معاني واضحة بسيطة ليس فيها تكلف

---

[14] ـ انظر الديوان ص٩٨ـ الجمالية: الناقة العظيمة الخلق شبهت بالجمل ـ الادماء: البيضاء ـ دام خفها:سال الدم منها ـ البازل: التي بزل نابها فانشق و برز ـ الحرف: الناقة الصلبة شبهت بالصخرة ـ عاقل: اسم مكان أو موضع.

[15] ـ راجع رأي ابن خلدون في ذلك في مقدمته، طبع دار الشعب، ص ٣٦٣.

[16] انظر ديوان عبيد، ص ٨٤.

ولابعد ولاإغراق في الخيال سواء حين يتحدث عن نفسه وأحاسيسه، أو حين يصور ماحوله من طبيعة، فهو لايعرف الغلو ولا المغالاة ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعتدلة ومرجع ذلك إلى أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء، بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً، ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته بكل مافيها[17] .

ولعل هذه الحسية، وهذا النقل الأمين، هو ماجعل هؤلاء الشعراء يدورون ف فلك واحد أثناء معالجتهم للموضوع نفسه كوصف الناقة مثلاً والبكاء على الأطلال والوقوف بها فما يقوله عبيد في الناقة تجده عند غيره من الشعراء مع اختلاف في الصياغة، بيد أن هذه الحسية جعلتهم يدققون النظر فيما يصفون ويفصلون في الحديث عنه، كما نجد عند طرفة في وصف ناقته[18] .

ولذلك فقد وصف عبيد بن الأبرص ناقته بكل حسية، ومادية فجاءت تراكيبه وألفاظه في وصفها مؤدية للغرض لاقصور فيها، ولاغرابة وهي على ذلك تتمتع بجرس وإيقاع موسيقي يناسب موقف الشاعر النفسي، ويغلب على لاألفاظ والتراكيب والصيغ في وصف الناقة عند شاعرنا عناصر القوة، والنشاط والسرعة، ولعل نظرة إلى معجم الناقة عنده تدلنا على صحة مانذهب إليه.

شملال، مرقال، ولوس، شريس، أرقال، تزيد، تصخد، ممراح، موارة، زيافة، خلوج....الخ، ومما يلفت نظرنا في وصف الناقة عند عبيد عنصر التفصيل والتدقيق في أجزاء الموصوف فناقته ممتلئة، ولها شعر قصير على ناصيتها لايستر جبينها الواسع، ولونها زيتي، وعروقها ناعمة، وهي لينة الخلق سهلة القياد، وهي كالعقاب في سرعتها واستجابتها ومما يوضح ذلك قوله من مخلع البسيط:[19]

عَيْرَانَــــةٌ مُؤْجَـــدٌ فَقَارُهَـــا	كَـــأَنَّ حَارِكَهَـــا كَثِيْـــبُ
أَخْلَـــفَ مابـــازِلاً سَدِيسَـــهَا	لاحِقَّـــةٌ هِـــيَ وَلا نَيُـــوبُ
كَأَنَّهَـــا مِـــنْ حَمِـــيْرِ غَـــابٍ	جَـــوْنُ بِصَفْحَتِـــهِ نُـــدُوبُ

---

[17] ـ انظر تاريخ الادب العربي، العصر الجاخلي، للدكتور شوقي ضبف، ط٨، دار المعارف في مصر، ص ٢١٩.

[18] ـ انظر المرجع السابق، ص ٢٢١.

[19] ـ انظر ديوان عبيد، ص ١٤ وما بعدها كما توجد هذه الظاهرة في جل ماسقناه من امثلة من شعره في وصف الناقة.

ويبدو أن عنصر التفصيل هذا إنما هو عطاء من عطاءات البيئة الجاهلية الواضحة المكشوفة التي لالبس فيها ولاتعقيد، ولاخفاء، والتي كان الشاعر متصلاً بها أوثق اتصال مبتعداً عن كل ماهو غامض وغائم، ولذا فقد كان في تصويره الفني لها بما جاء فيه من استعارات، وتشبيهات، وكنايات مستوحاة من البيئة، ومناسبة للأغراض والمواقف التي كانت تلم بشاعرنا.

وحول هذا المعنى يقول الآمدي في الموازنة "إنما استعارة العرب المعنى لما هو له إذا كان يقاربه، أو يناسبه، أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباًمن أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له، وملائمة لمعناه"[٢٠] .

وهكذا فإنه يتراءى لنا من خلال وصف الناقة عند عبيد أن الشاعر قد عني بإبراز القيم الجمالية لهذا الحيوان الذي قامت عليه الحياة البدوية. ونستطيع أن نستشف من خلال ذلك طرفاً من نظرة الجاهليين إلى الجمال، ولنحاول استعراض بعض القيم الجمالية التي أوردها عبيد في شعره الوصفي للناقة يقول "من الطويل"[٢١] :

وَخَيْلٍ كَأَسْرَابِ القَطَا قَدْ وَزَعْتُهَا ... بخِيْفَانَةٍ تُنْسَى بسَاق وَعُرْقُوبِ

قَطَعْتُ بصَهْبَاء السَرَاةِ شِمِلَةٍ ... تَزِل الوَلَايَا عَنْ جَوَانِبِ مَكْرُوبِ

لَهَا قَمَعٌ تُذْري بِهِ الكُورَ تَامِكٌ ... إلَى حَارِكٍ تَأْوِي إلى الصُلْبِ مَنْصُوبِ

إذَا حَرّكَتْهَا السَاقُ قُلْتَ نَعَامَةٌ ... وإنْ زُجِرَتْ يَوْمَاً فَلَيْسَتْ برُعْبُوبِ

لقد جمع عبيد في هذه الأبيات مجموعة من القيم الجمالية لناقته فهي سريعة طويلة القوائم شقراء الشعر لايزل الرحل من على ظهرها المكتنز القوي، وهي ذات سنام ضخم وبجانبه حارك منصوب، وهي في سرعتها كالنعامة، زد على ذلك أنها ناقة مطيعة غير هائجة ولاطائشة ولاشموس، ولعل كل تلك الصفات تمثل قيماً جمالية يفصح الشاعر عنها ويؤكد على وجودها في ناقته، ولاينسى عنصر الجسارة والجرأة، والاختيال في السير، وامتلاء الجسم يقول "من البسيط:"[٢٢]

وَقَدْ أُسَلّي هُمُومِي حِيْنَ تَحْضُرُنِي ... بجَسْرَةٍ كَعَلا ةِ القَيْنِ شِمْلَال

---

[٢٠] ـ انظر الموازنة بين ابي تمام والبحتري للامدي، الطبعة٣، ص ٢٣٤، مطبعة حجازي ١٩٤٤، بعناية محمد محي الدين عبدالحميد.

[٢١] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٢٧ ـ٢٨.

[٢٢] ـ انظر المرجع السابق، ص ١٠٢.

زَيّافَــةٍ بقُتُــودِ الرَحْــل نَاجيَــةٍ   تَفْــري الهَجــيْر بتَبْغِيْــل وَإرْقَــال
مَقْذُوفَـةٍ بلَكِيْـكِ اللّحْـم عَـنْ عُـرُض   كَمُفْــرَدٍ وَحِــدٍ بــالجَو ذَيّــال

ونلاحظ تركيز الشاعر على صفة الامتلاء والضخامة وهي في رأينا تمثل عنصر القوة فالشاعر ينزع إلى القوة ويراها لازمة لكل شيء حتى الناقة بل هي ضرورية فيها ذلك أن البيئة الجاهلية بيئة لاتعترف بالضعف ولاتقره في أي من المخلوقات فالنصر فيها للأقوى دائماً.

ونستطيع الاستدلال على نظرة الشاعر الجمالية تجاه الجمل، وذلك من خلال وصف الناقة، فهو يرى فيه قيمة بارزة للجمال، ولذا فقد شبه ناقته بها، وربما عممنا نظرة عبيد هذه على غيره من الجاهليين الذين كانوا يرون في الجمل عناصر جمال تعجبهم كالقوة والصبر والتحمل، والضخامة ومما يوضح ذلك قول عبيد "من البسيط:"[٢٣]

وَمَهْمَــهٍ مُقْفِــر الأَعْــلا م مُنْجَــردٍ   نَـائِي المَنَــاهِل جَـدْبَ القَـاع مُنْسَـاح
أَجَزْتُــــهُ بعَلَنْــــدَاةٍ مُذَكَــــرَةٍ   كَــالعِيْر مَــو ارَةِ الضَبْعَيْــن مِسْــرَاح

ولعله من جمال الناقة عندهم بعامة وعند عبيد بخاصة أن تكون موثوقة الخلق ممتلئة الجسم لاكبيرة السن ولاصغيرته، ويبدو أنه كان هناك سن مفضلة تبلغ الناقة فيها الأوج من حيث السرعة والقوة، وكمال الهيئة والبنية يقول عبيد "من مخلع البسيط:"[٢٤]

عَيْرَانَــــةٌ مُؤْجَــــدٌ فَقَارُهَــــا   كَــــأَنّ حَارِكَهَــــا كَثِيْــــبُ
أَخْلَــــفَ مابَــــازلاً سَدِيْسَــــهَا   لاحِقّــــةٌ هِــــيْ وَلا نَيُــــوبُ

وهكذا فإن صورة الناقة عند شاعرنا كانت مصدراً للقيم الجمالية التي تفصح في إحدى جوانبها عن نظرة الجاهليين إلى الجمال كما تفصح الصورة عن الأهمية البالغة والمكانة الرفيعة التي كانت تحتلها الناقة في حياتهم، وهي بذلك تمثل بالإضافة إلى القيمة الجمالية قيمة اقتصادية لاغنى للإنسان العربي الجاهلي عنها.

وقد كان الشاعر موفقاً إلى حد بعيد، في اختيار الصيغ والألفاظ والتراكيب في وصف الناقة حيث جاءت معبرة، وموحية ومؤدية للغرض الذي قصد إليه الشاعر

---

[٢٣] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٣٩ ـ٩٧ ، حيث يشبهها بالجمل الذكر.
[٢٤] ـ انظر المرجع السابق، ص ١٧ ـ١٨، السديس: السن التي تأتي بعد سبع سنين للبعير.

ليرتفع بناقته إلى هذه المرتبة وليمنحها هذه الهالة من التقدير والاحترام ويضفي عليها عناصر القوة والجمال والصلابة، ولنستعرض معاً بعض ماجاء من صفات لهذه الناقة الخبوب على لسان شاعرنا عبيد، وللنظر إلى بعض الألفاظ والصيغ التي منحها لها.

فتلاء الذراعين، مرقال، خلوج، دفقة، مصدرة بالرحل، وجناء، شملال، ناجية، جسرة، كعلاة القين، زيافة، تفري الهجير، مقدوفة بلكيك اللحم، شملة، ليست برعبوب، جلاله، كلاجم المطين، ولوس، ذات براية أجد، عيرانة، صيعرية، عنتريس، جمالية، حرف، أمون رسلة علنداة، مذكرة، ضوارة، ممراع، عنس، بادن حبوب.

ويورد الشعر كثيراًمن هذه الصفات والتي هي بمثابة قيم جمالية يراها في ناقته وقد عبر عن ذلك في صور موحية نابضة بالحركة والنشاط لونها الشاعر بلون بيئته فأنت ترى التشبيهات في الأمثلة السابقة كلها مستقاة من الواقع المعاش الملموس لدى الشاعر مما كان يراه من حوله من مظاهر،أما الألفاظ التي اختارها لوصف الناقة فقد جاءت كلها معبرة عن معاني القوة والضخامة والسرعة والصبر والاحتمال والنشاط والحركة مما أراد الشاعر لرفيقته المخلصة في السلم والحرب وفي الحل والترحال وإن نظرة واحدة إلى تلك الألفاظ والصيغ لكافية للوقوف على مدى توفيق الشاعر في التعبير عن حقيقة الناقة وواقعها وأهميتها عند الجاهليين إن الصورة التي رسمها عبيد للناقة لتفصح لنا وتكشف عن طرف من حياة هؤلاء العرب البداة في الجاهلية كما تلقي بعض الضوء على نظرتهم تجاه هذا الحيوان بخاصة وتجاه بقية أنواع الحيوانات الأخرى كالثور الوحشي والظليم والفرس.

صورة الفرس:

العرب من الأمم التي اهتمت بتربية الخيل إلى حد بعيد منذ أقدم العصور. وكان للخيول العربية ومازال نصيب كبير وحظ وفير من الشهرة وحسن السمعة. ولقد تحدث الدميري في كتابه (حياة الحيوان الكبرى) عن الفرس العربي وعن صفاته وطباعه وكذلك في الجزء الثاني من الكتاب[٢٥] .

ولعل البيئة العربية أو متطلباتها قد رفعت قيمة الخيل رغم رفعتها ومنزلتها العالية في قلب العربي، فهي وسيلة الحرب وصد العدوان وهي وسيلة الصيد وهي وسيلة التسلي أيضاً ولايكاد شاعر من الشعراء القدامى يقول قصيدة إلا ويذكر فيها الفرس

---

[٢٥] ـانظر حياة الحيوان الكبرى للدميري، الجزء الثاني، من ص ٢١٠ ـ ٣١٠.

ويتباهى بمغامراته على صهوته في حرب أو صيد أو رحلة أو سباق، وذلـك إلى جـانب الناقة الـتي مـر بنـا وصفهـا فهمـا أي الناقـة والفـرس تشـكلان عمـاد حيـاة العربـي في الصحراء، وقد اهتم العرب بالخيل إلى درجة تخير نسبها وتتبع سلالاتها وقد ألـف ابـن الكلبي كتاباً خاصاً عن أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام، وهـذا سـلما بـن خرشـب يعوذ فرسه بالرقى حيث يقول والبيتان من الوافر:[٢٦]

كُمَيْـتٌ غَـيْرُ مُخْلِفَـةٍ وَلَكِـنْ كَلَـوْن الصّـرْفِ عُـلَّ بـهِ الأَديْـمُ

تَعَـوذُ بـالرقَـى مِـنْ غَـيْر خَبْـل وَتُعْقَـدُ فِـي قَـلائِدِهَـا التمِيْـمُ

وهذا سلامة بـن جنـدل يقـدم لهـا الطعـام قبـل العيـال حيـث يقـول والبيـت مـن البسيط:[٢٧]

لَيْـسَ بأَسْـفَى وَلَا أَقْنَـى ولاسَـفِل يُعْطَـى دَوَاءَ قَفـي السـكْن مَرْبُـوبِ

ولاغرو بعد ذلك إذا وصفهـا الشـعراء وأكـثروا مـن وصفهـا ودققـوا النظـر فيهـا وربطتهم علاقة حميمة بها حرباً وسلماً وحاوروها محاورة الصديق بل المحب أحياناً.

وقد نهج الشعراء في وصـف الخيـل نهجـاً شـبيهاً بنهجهـم في وصـف الناقـة فقـد كانت معانيهم تدور حول قوة وصلابة وضخامـة وسـرعة هـذا الحيـوان بالإضافـة إلى حسن النسب. وكان لهم في تشبيهاته مذاهب شتى. وشـاعرنا عبيـد بـن الأبـرص مـن أقدم الشعراء الذين وصفوا الفرس وأجادوا في وصفه فهو فارس معلم مـن فـوارس بـني أسد وقبيلته لها صولات وجولات في التاريخ القديم ولابد أن تعنـى إذن بتربيـة الخيـول الصافنات ولعل هذا هو السبب الذي جعل وصف الفرس يطغى على وصف الناقة عند شاعرنا كما رأينا فهو وقبيلته محاربون أولاً والحرب تستلزم الخيل أكثر من الإبـل فهـي أسرع وأخف حركة. وعبيد يذعر السروب بفرسه الذي يشبه الثور الوحشي في خفته ونشاطه وهو بالإضافة إلى ذلك كريم الأب والأم حيث يقول والبيت من الخفيف [28]:

وَلَقَـدْ أَذْعَـرُ السّـرُوبَ بطَـرْفٍ مِثْـل شَـاةِ الإران غَـيْر مُـذَال

ويذهب عبيد إلى تحديـد ورسـم صـورة للفـرس المثاليـة الـتي يركبهـا فيتـابع قـائلاً

[٢٦] ـ المفضليات، ص ٤٠، دار المعارف، تحقيق عبدالسلام هارون.

[٢٧] ـ المفضليات، ص١٢١، دار المعارف تحقيق عبدالسلام هارون.

[٢٨] ـ ديوانه ص١٠٦. السروب: قطعان الخيل المجتمعة ـ الطرى: الفرس الكريـم الطرفين الاب و الام. ـ شاه الاران: الثور الموحش ـ المذال: الذليل المهان.

وموضحاً بقية الصفات والأبيات من البحر الخفيف:[٢٩]

غَـيْر أَقْنَـى وَلا أَصَـك وَلكـن   مِرْجَـمٌ ذُو كَرِيهَـةٍ وَنِقَـال
يَسْبِقُ الأَلْـفَ بـالمُدَجج ذِي القَـوْ   نَـس حَتّـى يَـؤُوبَ كالتمْثَـال
فَهُـوْ كـالمِنْزَع المَريـض مِـنَ الشـوْ   حَـطِ مَـالَتْ بـهِ شِـمالُ المُغَـالى
يَعْفِـرُ الظبْـيَ والظلِيـمَ وَيُلْـوي   بلَبُـون المُعَزَابَـةِ المِعْـزَال

ويذهب عبيد إلى إضفاء عنصر السرعة على فرسه حين يركبه للحرب والنزال حيث يقول والأبيات من بحر الرمل المرفل:[٣٠]

نَحْـنُ قُدْنَـا مِـنْ أَهَـاضِيْبِ المَـلا   الخَيْـلَ في الأَرْسَـان أَمْثَـالَ السّـعَالي
شُـزَّباً يَفْشَـيْنَ مِـنْ مَجْهُولَـةِ الأَرْ   ض وَعْشـاً مِـنْ سُـهُول وَرِمـال
ثُـمّ عُجْنَـاهُن خُوصـاً كالقَطَـا   القَـاربِ بالمـاء مِـنْ أَيْـنَ الكَـلال
كَـمْ رَئِيـس يَقْـدُمُ الأَلْـفَ عَلـى   الأَجْـرَد السّـابح ذِي العَقْـبِ الطـوَال
قَـدْ أبـاحَتْ جَمْعَـهُ أسْـيافُنا   البيـضُ في الـر وعَـةِ مِنْ حَـيّ حِـلال
مالَنَـا فِيهـا حُصُـونٌ غَيْرُمـا الـ..   مُقْرَبـاتِ الجُـرْدِ تُـرْدِي بالرجَـال

ويعدد الشاعر بكل فخر واعتزاز صفات خيول بني أسد من سرعة وخفة وحركة وضمور ويجعل هذه الخيول من الأسباب التي وفرت لبني أسد الانتصار على أعدائها ونلاحظ على الشاعر هنا استخدام ضمير الجمع المتكلم بصيغة الجمع واختفاء صوته

---

[٢٩] ـ انظر ديوانه ص١٠٩ـ ١١٠. الاقنى: الاحدب الانف و هو مما تعاب به الخيل ـ الاصك عرفوه: المرجم: الذي يرجم الارض بحوافره لسرعته ـ ذو كريهة: صبور على الشدائد والجرى ـ النقال: سرعة نقل القوائم في السي ـ. المدجج: الفارس المسلح ـ القونس. الخوذة ـ كالتمثال: اي في حسنه لم يغيره طول الجرى ـ المنذع: السهم ـ المري: الذي عليه الريش ـ المغالي: الذي يرمع يديه بالسهم الى اقصى غايته ـ يعفر الطبى: يلقيه بالتراب ـ لظيم: ذكر النعام ـ اللبون: الشاه ذات اللبن ـ المعذابة: المعزال، أي الرجل يعزب بابله خوف الفارة

[٣٠] الملا: الصحراء ـ الارسان: جمع رسن و هو الحبل تقاد به الدابة ـ السعالى: جمع سعلاه. و هي انثى الغول. شبه بها الخيل لسرعتها و خفتها. انظر الديوان ص١١٦. شربا: ضوامرا ـ الوعث: الارض التي تغيب فيها القوائم ـ عجناهن. عطفناهن ـ الخوص. جمع اخوص وخوصاء و هي الضامرة العينين ـ القارب بالماء: الذي يطلبه الاين ـ واكلال: الاعياء ـ يقدم الالف: بترأسهم ـ الاجرد: القصير الشعر من الخيل. ـ السابح: الحس ـ الجر: العقب ـ الجرى. المتابع ـ المقربات: اي التي يقربونها من بيوتهم ويكرمونها.

الفردي مما يدل على التزامه اللامحدود بالقبيلة وهذه سمة من سمات شعر عبيد فهو الخاضع دائماً لسلطان القبيلة ولانكاد نسمع صوته الفردي إلا قليلاً شأن معظم شعراء الجاهلية.

وليس معنى خضوع شاعرنا للقبيلة وسلطانها أن يتنكر لذاته ويذيبها في بوتقة الجماعة فهو يلائم بين مصالح القبيلة ومصالحه الذاتية شريطة أن لاتتعارض الثانية مع الأولى ولذا نراه يصف فروسيته بشكل فردي وهو على صهوة جواده حيث يقول والأبيات من مخلع البسيط[31] :

فَذَاكَ عَصْرٌ وَقَدْ أرانِي ... تَحْمِلُني نِهْدَةٌ سُرْحُوبُ

مُضَبَّرٌ خَلْقُهَا تَضْبِيرا ... يَنْشَقّ عَنْ وَجْهِهَا السَبِيْبُ

زَيْتِيّةٌ نَاعِمٌ عُرُوقُهَا ... وَلَينٌ أَسْرُهَا رَحِيْبُ

ففرسه مشرقة موثقة الخلق حادة البصر ناعمة ملساء عروقها ليست ناتئة سهلة القياد. وانظر معي إلى هذا التدقيق في صفات الفرس وذلك التفرس فيها فهو يحوطها برعايته وعنايته ويضفي عليها من الصفات مايجعلها بهذه الصورة القوية الجميلة وشاعرنا في هذا لايخرج على سنة الجاهليين ومناهجهم في وصف الفرس وحبهم لها لا بل يزيد عليهم بأنه لايقوى على فراق فرسه أبداً. حيث يقول والأبيات من البسيط:[32]

وَلا يُفَارِقُنِي ما عِشْتُ ذُو حَقَبٍ ... نَهْدُ القَذَال جَوَادٌ غَيْرُ مِلْوَاح

أَوْ مُهْرَةٌ مِنْ عِتَاقِ الخَيْلِ سَابحَةٌ ... كَأَنّهَا سُحْقُ بُرْدٍ بَيْنَ أَرْمَاح

وهو لا يركب فرساً غير نجيب ولاأصيل ولاكريم النسب حيث يقول والبيت من الخفيف:[33]

أَوْحَشَتْ بَعْدَ ضُمّر كالسَعَالِي ... مِنْ بَنَاتِ الوَجِيهِ أَوْ حَلا بِ

---

[31] ـ انظر الديوان ص١٧. نهده: فرس غليظة مشرقة ـ سرحوب: سريعة ماضية ـ مضبر: مدمج موثق. البيت شعر الناصية يريد ان يقول انها حادة البصر فناصيتها لا تستر بصرها و هذا مما يستحب في الخيل العتاق ـ زيتية: نسبة الى الزيت اي يصفها بالنعومة و الملاسة ـ ناعم عروقها: لينة ليست بناتئة ـ الاسر: الخلق رطيب. ليس يابسا.

[32] ـ انظر الديوان ص٣٨. ذو حقب: بياض في موضعه ـ نهد: ضخم ـ القذال: مقعد العذار من الفرس خلف الناصية ـ الملوح: السريع العطشى ـ السحق: الثوب البالي.

[33] ـ الديوان ص٢١ ـ اوحشت: يصف الديار ـ الوجية: فرس معروفة عند العرب كريم الاصل.

ومرة أخرى يصر على هذه الصفة والبيت من الطويل:[٣٤]

كُمَيْتٍ كَشَاةِ الرَّمْلِ صَافٍ أَديمُهُ ... مُفِجِ الحَوَامِي جُرْشُعٍ غَيْرِ مَخْشُوبِ

وكما وصف عبيد بن الأبرص فرس الحرب وعدد صفاتها فإنه وصف أيضاً فرس الصيد ومنحها من الصفات مايتلاءم معها وذلك في لقطات سريعة حيث يقول والبيت من الطويل:[٣٥]

وَقَدْ أَغْتَدِي قَبْلَ الفِطَاطِ وَصَاحِبِي ... أَمِيْنُ الشَظَا رَخْوُ اللَّبَانِ سَبُوحُ

إذَا حَرَكْتَهُ السَّاقُ قُلْتَ مُحَنَّبٌ ... غَضِيصٌ غَذَتْهُ عَهْدَةٌ وَسُرُوحُ

مرابضُهُ القِيعَانُ فَرْدٌ كَأَنَّهُ ... إذَا مَا تُمَاشِيهِ الظِّبَاءُ تَطِيحُ

ويدمج عبيد صورة فرس الحرب بصورة فرس الصيد في قصيدة له على غير انتظام حيث يقول والأبيات من الكامل[٣٦]

وَأَمِيْرِ خَيْلٍ قَدْ عَصَيْتُ بِنَهْدَةٍ ... جَرْدَاءَ خَاظِيَةِ السَرَاةِ جَلُوس

خُلِقَتْ عَلَى عُسُبٍ وَتَم ذَكَاؤُهَا ... وَأَحَالَ فِيهَا الصُّنْعُ غَيْرَ نَحِيس

---

[٣٤] ـ الديوان ص٢٧. الكميت: الفرس الذي خالط حمرته سواد ـ الاديم: الجلد مضج ـ الحوامى:اي بعيد ما بين الحوافر التي تحمي نسور الارجل ـ مخشوب: الفرس المخلوط النسب ـ جرشع:منتضخ الجنبين.

[٣٥] ـ انظر الديوان ص٣٣. اغتدى: ابكر ـ الفطاط: الصبح ـ امين الشظايا: اي رقيق الوظيف الذي فوق الرسغ ـ اللبان: الصدر ـ سبوح: زليق في سيره ـ محنب: هنا الظبي ـ غضض: سمين املس ـ العهدة: اول مطر الربيع ـ السروح: المراعي ـ مريض الحيوان: مأواه ـ تطيح: تهلك.

[٣٦] ـ انظر الديوان ص٦٩. النهدة: الفرس الجسيمة الجميلة ـ الخاظية: المكتنزة ـ السراة: الظهر ـ الجلوس: الوثيقة المحكمة الخلق ـ العسب: جمع عسيب و هو جديد النخل شبه بها قوائمها ـ ذكاؤها: سنها الحاد ـ انى عليه حول الصنع : تعهد الفارس والقيام عليه ـ النحيس: المنحوس المشؤم ـ جهدان: اتعبن ـ النطاف: بقايا الماء ـ صلقن: جرين ـ الديمومة الاملميس. الصحراء الواسعة لا نبات فيها ـ الاوائم:الابل المبطئات في السير ـ الشرك: الطريق ـ الاخزة: الارض الخشنة ـ الشموس: النفور. اليبوس:اليابسة. يريد اذا استقبلها فكانها عصاة او قناة ذبلت لضمورها. "اللسان " / القارورة: الاناء من زجاج يجعل فيه الشراب. شبه فرسه بها لاستدارة اوراكها ـ "الكبيس": ما كبس فيه من الطيب والزعفران ـ الخضاب: الدماء التي تطايرت من الصيد على الفرس ـ البركة: الصدر ـ المداك: حجر يسحق عليه الطيب ومدارك العروس يكون براقا لكثرة استعمالها اياه. شبه فرسه بالمداك لكثرة ما عليه من دماء ـ الحراج: وهي جماعة الشجر ويقال جماعة الانعام ـ نهبها: ما تنهبه وتصيده ـ السوام: سائمة و هي الحيوانات في المرعى ـ الجامل: الجماعة من الابل . المحلوس: الذي عليه حلس وهو كل ما يلي ظهر البعير و الدابة تحت الرحل و السرج.

وَإذَا جَهَـدْنَ وَقَـلّ مـــاءُ نِطَافِهـــا	وَصَلَقْـــنَ في دَيْمُومَـــةٍ إمْليـــس
تَنْفـى الأوائِـمَ عَـنْ سَـوَاء سَـبيلِها	شَـرَكَ الأَحِّـز ةِ وَهِـيَ غَـيْرُ شَـمُوس
أمّـــا إذَا مـــا أدْبَـــرَتْ فَكَأَنها	قَـــارُورَةٌ صَفْـــراءُ ذاتُ كَبيـــس
وَإذَا اقْتَنَصْنَـــا لايَجِـــفُّ خِضَابُهـــا	وَكَـــأَن برْكَتَهَـــا مَـــدَاكُ عَـــرُوس
وَإذا مارَفَعْنَـــا للجِـــرَاج فَنَهْبُهَـــا	أَدْنَـــى سَـوَام الجَـــامِل المَحْلُـــوس

ونرى الشاعر هنا يحشد عدداً ضخماً من الصفات الـتي تتمتـع بهـا فرسـه سـواء أكـان ذلك حرباً أم سلماً، وكلها صفات مستقاة ممن وحي البيئـة الجاهليـة الـتي عاشـها الشـاعر، على أننانلتمس فيه إعطاء فرسه صفة واقعية وهي أن الفرس ليس بمثال فهو معرض للنجـاح والسبق كما هو معرض لأن يخيب ويفشل في اللحاق بالهدف. يقول والبيت من الكامل:[37]

فَيُخْفِـقُ مَـرةً وَيُفِيـــدُ أُخْـــرَى	وَيُلْحِـــقُ ذَا المَلَامَـــةِ بـــالأَريبِ

تلك صورة الفرس عند عبيد بن الأبرص وكما نراها فإن الشاعر لم يتخذها غاية في قصيدته بـل وسـيلة يتجاوزهـا إلى غيرهـا مـن الأغـراض وقـد اكتفـى باللقطـات السريعة والإشارات البسيطة وغير أننا استطعنا من خلال ذلك أن نتبين صورة الفرس عند الشاعر بوضوح وجلاء. ورأينا كيف أن شاعرنا كان حريصـاًعلى اختيـاره مـن الخيل أفضلها نسباً وأقواها بنية وأسرعها حركة فهو فـارس مشـهور محـارب ويهمـه جداً أن تكون فرسه على هذه الصفات، وقد جاءت صورة الفرس عند عبيد مثل أيـة صورة أخرى من صور الحيوان غنية بـالمدلولات والأبعـاد وهـي مسـتقاة مـن البيئـة، ومتصلة بالشـاعر أوثـق اتصـال، ومفصحـة عـن كثـير مـن ميولـه وطباعـه وخبرتـه، ونستطيع أن نلمس ذلك من خلال مامر بنا من شعره حيث يتضح لنا خبرته الواسعة بالخيل.

يدل هذا علـى نفسـية عبيـد بـن الأبـرص وأحلامهـا بـالمجد والشـرف والسـؤدد والعزة، وعلى تمسك الشـاعر بمبـدأ القـوة في مجتمـع لاتنفـع ولاتنفـذ في أرجائـه غـير شريعة القوة.

أضف إلى ذلك أن حس الشاعر المرهف ومعاملتـه الحسـنة تتضـح لنـا مـن خـلال

---

[37] ـ انظر ديوان عبيد ابن الابرص ص٣٠، ذا الملامة: صاحب الحاجة.

علاقته بهذا الحيوان ولو أن الشاعر قد يقسو على فرسه في بعض الأحيان ويرفع عليها السوط حيث يقول في هذا المعنى والبيت من الكامل[38] :

مِـنْ كُـل مَسْـوُدِ السّـرَاةِ مُقَلـص　　　قَـدْ شَـقّقُ طُـولُ القِيـادِ وأَلْغَبُـوا

ولايسعنا في هذا المكان إلا أن نتذكر معاملة عنترة العبسي لفرسه ونسوق طرفاًمن تلك المحاولة اللطيفة بينهما والبيتان من الكامل[39] :

فَـازْور مِـنْ وَقْـع القَنَـا بلَبانِـهِ　　　وَشَـكا إلَـيّ بعَـبْرَةٍ وَتَحَمْحُـم

لَـوْ كَـانَ يَـدْري ماالمُحَـاوَرَةُ اشْـتَكَى　　　وَلَكَـانَ لَـوْ عَلِـمَ الكَـلا مَ مُكَلمـي

وطبيعي أن يقسو الفارسٍ على فرسه في ساحة المعركة فهناك قضية موت أو حياة وهو يعول على حصانه معولاً كبيراً في هذا المكان. كما نلاحظ على شاعرنا في وصفه للفرس وإبراز صورته القوية المشرقة مجيئه بتشبيهات بديعية وذلك في مثل قوله في المعلقة:[40]

كَأَنّهـا لِقْـوَةٌ طَلُـوبُ　　　تَحِـنّ في وكْرهَـا القُلُـوبُ

بـاتَتْ عَلَـى إرَم رابئَـةً　　　كَأَنّهـا شَـيْخَةٌ رَقُـوبُ

وقد وجد هذا المعنى عند امرئ القيس ومن الجائز أن يكون الأخير قد تأثر بعبيد في هذا المعنى كما تأثر به في بعض الصيغ كصيغة وقد اغتدى مثلاً، يقول امرئ القيس في معلقته:[41]

وَقَـدْ أَغْتَـدي والطـيْرُ فِـي وُكُنَاتِهـا　　　بمُنْجَـردٍ قَيْـدِ الأوابـدِ هَيْكَـل

ويقول امرئ القيس في موضع آخر والأبيات من الطويل:[42]

فَعَـادي عِـدَاءً بَيْـنَ ثَـوْر وَنَعْجَـةٍ　　　وَكَـانَ عِـدَاءُ الوَحْـش مِنّـي عَلَـى بَـال

كَـأني بفَتَخَـاء الجنَـأحَيْن لِقْـوَةٍ　　　صَيُـودٍ مِـنَ العِقْبَـان طَأطَـأَتْ شِـمْلا ل

تخطـف خِزانَالشّـرَبّةِ بـالضحى　　　وَقَـدْ جَحَـرَتْ مِنْهَـا ثَعَـالِبُ أَوْرَال

كَـأَن قُلُـوبَ الطـيْر رَطْبـاً ويَابسـاً　　　لَـدَى وكْرهَـا العُنَـابُ والحَشَـفُ البَـالِي

---

[38] ـ انظر ديوان عبيد، ص ٥.

[39] ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي ، مصدر سابق،

[40] ـ انظر ديوان عبيد، ص ١٨. اللقوة: العقاب وسميت بذلك لأنها سريعة التلقي لما تطلب ـ الطلوب: الملحة في الطلب والصيد.

[41] ـ انظر ديوان امرؤ القيس، ص ١٩.

[42] ـ المصدر السابق، ص ٣٨ ـ٣٩.

ويقول في موضع آخر والبيت من الطويل:[43]

سَلِيْم الشَّظَى عَبْل الشـوَى شَـنِج النسا   لَـهُ حَجَبَـاتٌ مُشْـرِفَاتٌ عَلَـى الفَـال

ومما يدل على اهتمام عبيد بمتابعة فرسه مشركاً حاستي البصر واللمس معاً قوله "والبيت من الكامل:"[44]

وَإذَا اقْتَنَصْنَـا لا يَجِـفّ خِضَابُهـا   وَكَـأَن بِرُكَتَهَـا مَـدَاكُ عَـرُوس

وشاعرنا يستمد صور لوحاته في وصف الفرس مادة وألواناً وتشبيهات من البيئة والواقع حوله وينسجها لنا بكل أمانة ويؤلف بينها على نحو يفصح لنا عن شعوره نحو فرسه وهو في ذلك كله يختار من الصيغ والتراكيب ماهو أقوى وأرق للتعبير عن صفات تلك الفرس النجيبة وهو في تصويره للفرس إنما ينهج سائر الجاهليين من حيث الوصف الحسي والمادي.

ويبدو لنا فرس شاعرنا واقعياً معقولاً وهو أبعد مايكون عن تلك الصفات الأسطورية التي وصفها امرؤ القيس فرسه، كما يبدو لنا عبيد من خلال تصويره للفرس حريصاً على إبراز القيم الجمالية له كسرعته، وخفته، ونشاطه وجمال وجهه يقول عبيد مبرزاً بعض القيم الجمالية للفرس "من الكامل:"[45]

وَأَمِيْر خَيْـل قَـدْ عَصَيْـتُ بِنَهْـدَةٍ   جَـرْدَاءَ خَاظِبَـةِ السَـرَاةِ جَلُـوس

خُلِقَـتْ عَلَـى عُسُـبٍ وَتَـم ذَكَأُوُهَـا   وَأَحَـالَ فِيْهَـا الصَّنْعُ غَـيْرَ نَحيْـس

وَإِذَا جَهَـدْنَ وَقَـلّ مَـاءُ نِطَافِهـا   وَصَلَقْـنَ فِـي دَيْمُومَـةٍ إمْلِيـس

تَنْفِـي الأَوَائِـمَ عَـنْ سَـوَاء سَـبِيلِهَا   شَـرَكَ الأَحِـزَّةِ وَهِـيَ غَـيْرُ شَـمُوس

أَمَّـا إذَا اسْـتَقْبَلْتَهَا فَكَأَنهـا   ذَبَلَـتْ مِـنْ الهِنْـدِي غَـيْرُ يَبُـوس

أَمَّـا إذَا مَـا أَدْبَرَتْ فَكَأَنهـا   قَـارُورَةٌ صَفْـرَاءُ ذَاتُ كَبِيـس

وَإذَا اقْتَنَصْنَـا لايَجِـف خِضَابُهـا   وَكَـأَن بِرُكَتَهـا مَـدَاكُ عَـرُوس

وَإِذَا رَفَعْنَـا للحِـرَاج فَنَهْبُهـا   أَدْنَـى سَـوَام الجَـامِلِ المَحْلُـوس

لقد أبرز لنا الشاعر جمال فرسه، ورشاقتها وشدة وحسن خلقها في بيت واحد.

---

[43] المصدر السابق، ص ٣٦.

[44] ـ المصدر السابق، ص ٦٩.

[45] ـ انظر ديوانه، ص ٦٩.

وَأَمِير خَيْلٍ قَدْ عَصَيْتُ بِنَهْدَةٍ جَرْدَاءَ خَاظِيَةِ السَرَاةِ جَلُوس

ثم ساق لنا بقية الصفات التي هي بمثابة قيم جمالية للفرس في بقية الأبيات وفصل الحديث عنها.

وقد جاءت صورة الفرس هنا مصبوغة بصبغة البيئة التي كان يعيشها الشاعر فالتشبيهات مستوحاة من الواقع فهي كقناة صلبة، وذابلة، أو عصا وهي كقارورة صفراء في استدارة أوراكها، وصدرها لكثرة الدم الأحمر القاني عليه وقد شبهه الشاعر بمداك العروس البراق دائماً من كثرة الاستعمال وقوائمها كجريد النخل الخالي من الخوص، ونراه يكمل هذه القيم الجمالية بفرسه في قصيدة أخرى حيث يقول "من الخفيف:"[46]

وَلَقَدْ أَذْعَرُ السَّرُوبَ بِطَرْفٍ مِثْلِ شَاةِ الإران غَيْرِ مُذَال

غَيْرِ أَقْنَى وَلا أَصَكَ وَلكِنْ مِرْجَمٌ ذُو كَرِيهَةٍ وَنِقَال

يَسْبِقُ الأَلْفَ بِالمَدَجَّجِ ذِي القَوْ نَسِ حتَى يَؤُوبَ كالتِمْثَال

فَهُو كالمِنْزَعِ المَرِيشِ مِنَ الشَوْ حَطِ مَالَتْ بِهِ شِمَالُ المَغَالِي

يُعَفِرُ الظَبْيَ والظَلِيمَ وَيُلْوي بِلَبُونِ المِعْزَابَةِ المِعْزَال

ونلاحظ على صورة الفرس هنا اقترابها من المثال في سرعتها، وجمال هيئتها وخفتها، ونجابة أصلها، واستقامة أنفها، وصبرها، وسرعتها التي تشبه سرعة السهم المنطلق بأقصى سرعة ممكنة، وقد أشرنا إلى هذه الظاهرة عند عبيد في وصفه للناقة أيضاً وإبرازه للقيم الجمالية فيها، وقد كان الشاعر موفقاً في اختيار الألفاظ الدالة الموحية المعبرة عن المعنى، والتي جمعت بين معاني القوة والصلابة والسرعة والنشاط والجمال[47] .

وبعد: فإن عناية شاعرنا بوصف الفرس وتصويره تبدو واضحة جلية حتى لاتكاد توازي عنايته بالناقة.

---

[46] ـ المصدر السابق، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

[47] ـ ومن الصفات التي منحها عبيد لفرسه شزب: ـ نهدة ـ خوص ـ ذي العقب ـ الطوال ـ الجرد ـ السابحات غير اقنى و لا أصك ـ يؤوب كالتمثال ـ مرجم. ذو كريهه ـ طرف ـ عناجيج ـ غير شموس ـ خاظية السرات ـ جلوس ـ ناتئ الكتد ـ عجلزة ـ تبارى الركب في عند لحقا أياطلهن ـ ذو حقب جواد غير ملواح ـ عتاق ـ عوابس ـ شعث ـ امين الشظا ـ رخو اللبان ـ سرحوب ـ ينشق عن وجها السبيب ـ زيتية ناعم عروقها ـ لين اسرها ـ مثقلات المتون والاصلاب ـ مصغيات الخدود ـ مسود السراة ـ طمرة ـ مفج الحوامى ـ غير مخشوب ـ قارورة صفراء ـ لقوة طلوب ـ جرشع.

صورة الطلل

كان وصف الأطلال والوقوف بها ظاهرة شائعة بين شعراء الجاهلية، وهي أشبه ماتكون بالظاهرة التقليدية عندهم، فقد كانت الأطلال والآثار الدارسة جزءاً مهماً مما كانت تقع عليه عينا الشاعر الجاهلي في بيئته المتبدلة غير المستقرة، فالدمن تذكره بحب مضى، والأثافي والخطوط المحفورة في الأرض تعيده إلى الذكريات الخالية، وبقايا الديار قد تذكره بمعركة نشبت، أو غارة وقعت.

إن وصف الأطلال فن من صميم الحياة العربية البدوية، وكان ركنه الأساسي الذي قام عليه بكاء الأحبة وتذكرهم، فالشاعر يعبر من خلال وقوفه على الأطلال عن عاطفة الشوق والبين بعد فراق الأحبة، ويقول الدكتور نوري حمودي القيسي عن لوحة الطلل "يعد الطلل بالنسبة للقصيدة الجاهلية بداية المرحلة الشعورية التي تمر من خلالها أحاسيس الشاعر الجاهلي، وتنبسط بعدها أفكاره لتتناسق في إطار موضوع متكامل، ومن الطبيعي أن تسهم خفقات الطلل وهي تبدو بشكلها المتقادم في خلق المناخ العاطفي من هذه الإثارة وقد وجد الشعراء في مثل هذه المواقف مايثير عواطفهم الحادة ويلزمهم بالوقوف عند هذه القطعة العزيزة التي ذهبت بين حناياها أعز الأيام، واندثرت عند نؤيها أغلى ذكريات الصبا، ولهذا كان حديث الطلل عندهم من أهم المضامين التي ترددت في القصيدة، وربما كان هذا الاهتمام نتيجة للعلاقات الوثيقة المرتبطة بإنسانية الشاعر الجاهلي نفسه، ولم يكن البكاء أو النحيب أو الوقوف عند هذه البقايا الطللية عاطفة آنية ضائعة، أو وقفة تأملية عابرة، ولم تكن هذه المشاعر ذاتية يعانيها الشاعر بصورة منفردة أو يتحسس آلامها بشكل مجرد، وإنما هي ظل حزين يلف نفس الشاعر وهو يقترب من هذه البقايا وقد فرض هذا الظل شعور الجماعة التي ينتمي إليها بالحرمان من الوطن المكاني والبعد عن المباشرة الجماعية التي يوجبها الاستقرار[٤٨] .

إذن فمقدمة الطلل تؤدي وظيفة خلق مثل ذلك الجو الشعري المشحون بالعواطف

---

[٤٨] ـ انظر وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية للدكتور نورى حمودى القيس دار الطباعة و النشر بالموصل ١٩٧٤ ص٩- ١٠

وهي على هذا النحو ليست عاطفة عشوائية عند الشعراء الجاهليين، فالشاعر يحسن ترتيبها ويخضعا لسلطان عقله وإرادته.

فالحنين إلى الطلل كما يقول الدكتور القيسي يمثل الحنين إلى الوطن لأن الطلل ومايحيط به من الدمن يمثل مجموعة من الذكريات التي عاشت في ذهن الشاعر فحفظ لها أجمل الأوقات وهو في هذه اللوحة يبرز ذاتيته محاولاًإثبات وجوده المبعثر[٤٩] .

ويبدأ الشعراء عادة هذه اللوحة بصيغ استفهامية تنم عن جهل الشاعر وعدم معرفته الديار وأهلها، وهو في حقيقة الأمر يعلم علم اليقين لمن تكون ومن هم أهلها.

بل يعرف كل شاردة وواردة عنها، ويعلم أيضاً أن السؤال لايجدي نفعاًولعل ذلك مما يؤلمه أكثر، ولعله السبب الذي يحدو بالشاعر لأن يهرب من صورة الطلل ويتخلص منها إلى غيرها قبل أن تتشرد نفسه، ويتشتت ذهنه ويستبد ويتعاظم حزنه.

ولدى تصفحنا للوحات الطلل عند شاعرنا عبيد وجدناه يستخدم الصيغ والتراكيب التالية وذلك كبدايات للوقوف بالأطلال:

لمن الديار، لمن الدار، أمن منزل عاف، لمن دمنة تحاول رسما، ليس رسم، أكفر من أهله، أمن رسوم، لمن جمال، أمن أم سلم، لمن طلل.

وهذه الصيغ تمثل التساؤل الحائر في نفس الشاعر وهو ينظر إلى قسوة الزمن وماأحدثه من خراب في تلك الدمن والآثار ومن ذلك قوله "من الخفيف[٥٠]" :

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدّفِينِ ببَالِ ... فَلِوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَيْ أُثَالِ

فَالمَرْوَراةُ فالصّحِيفَةُ قَفْرٌ ... كُلُّ وادٍ وَرَوْضَةٍ مِحْلالِ

دَارُ حَيّ أَصَابَهُمْ سَالِفُ الدّهْـ ... ـرِ فَأَضْحَتْ دِيَارُهُمْ كَالخِلالِ

مُقْفِرَاتٍ إلا رَمَاداً غَبِياً ... وَبَقَايَا مِنْ دِمْنَةِ الأَطْلالِ

وأَوَاريّ قَدْ عَفَوْنَ وَنُؤْيَاً ... وَرُسُوماً عُرّيْنَ مُذْ أَحْوالِ

بُدّلَتْ مِنْهُمُ الدّيَارُ نَعَامَاً ... خَاضِبَاتٍ يُزْجِيْنَ خَيْطَ الرّئالِ

---

[٤٩] ـ انظر وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية للدكتور نورى حمودى القيس دار الطباعة و النشر بالموصل ١٩٧٤ ص١٠

[٥٠] ـ انظر ديوان عبيد ص١٠٥ـ ١٠٦ و في بعض طبعات الديوان "اجالت" بدلا من "قد جرت". راجع طبعة بيروت ص١٢٣

وَظِبَاءً كَأَنَّهُن أَبَارِي   قُ لُجَيْن تَحْنُو عَلَى الأَطْفَال"١"

فالشاعر ينظر بعين حزينة كسيرة إلى الأطلال، ويتأمل ماأصابها من دمار وخراب بفعل الزمن وعوامل الطبيعة القاسية، ويحدد المواضع والأماكن إمعاناً في تصوير عنف التجربة، ومرارتها غير أنه يحاول في لحظة ما أن يجدد الحياة، ويبعثها في هذه الرسوم الدارسة، وينفي عنها صفة العدم فالظباء والنعام قد اتخذت من هذه الأطلال مرتعاً خصباً لهن، ونستطيع القول هنا بأن هذه الحياة الجديدة التي أنشأها الشاعر في الطلل إنما كانت نشأتها على حساب حياة أخرى سلفت، فالطلل هنا يمثل الموت والخراب والدمار كما يمثل في الوقت نفسه الحياة والخصب والنماء، وكان المنشئ في كلتا الحالتين هو الطبيعة القوية القادرة على الاستمرارية والتحول على عكس الشاعر الذي يقف موقف الضعيف العاجز أمامها.

ونرى شاعرنا يلح علي فعل عوامل الطبيعة في الطلل، وإظهاره لنا كواقع ملموس وقاس، ويخيل إلينا أن عبيداً وجد صلة بين الفعل عفا واندفاع المطر بأشكاله المختلفة، الملف، والصيت، والهطال حتى أصبحت الصورتان متلازمتين في حديثه فالفعل أولاً ثم يعقبه بحديثه عن المطر ومن ذلك قوله "من السريع"[٥١] :

أَمِنْ رُسُوم نُؤْيُهَا نَاحِلُ   وَمِنْ دِيَار دَمْعُكَ الهَامِلُ

قَدْ جَرّتِ الرِيحُ بهَا ذَيْلَهَا   عاماً وَجَوْنٌ مسُبْلٌ هَاطِلُ

ظِلْتُ بهَا كَأَنّني شَارِبٌ   صَهْبَاءَ مِمَّا عَتّقَتْ بَابلُ

حتّى عَفَاهَا صَيِتٌ رَعْدُهُ   دَانِي النَّوَاحِي سُبلٌ وَابِلُ

ويقول في موضع آخر "من البسيط[٥٢] ":

يَا دَارَ هِنْدٍ عَفَاهَا كُل هَطّال   بالجَو مِثْلَ سَحِيق اليَمْنَةِ البَالِي

جَرَتْ عَلَيْهَا رِيَاحُ الصيْفِ فاطّرَدَتْ   والريحُ فِيهَا تُعَفّيهَا بأَذْيَال

ونجد الشاعر لايكتفي بفعل الأمطار وكأنها ليست كافية لمحو الأثر فالرياح هي الأخرى عامل مساعد على المحو والتعفية ومن ذلك قوله "من الخفيف[٥٣] ":

---

[٥١] ـ انظر ديوان عبيد ص٩٧ ـ ٩٨.

[٥٢] ـ انظر المرجع السابق ص١٠١.

[٥٣] ـ انظر المرجع السابق ص٢١ ـ ٢٣.

لِمَـن الـدارُ أَقْفَـرَتْ بالجَنَـابِ غَـيْرَ نُـؤْي وَدِمْنَـةٍ كالكِتَـابِ
غيرَتْهـا الصّبـا وَنفْـحُ جَنُـوبٍ وَشَـمال تَـذْرُو دُقَـاقَ الـترابِ
فَتَراوَحْنَهـا وكُـلُّ مُلِـف دَائِـم الـرعْـدِ مُرْجَحِـن السـحَابِ

فعبيد هنا يوحد بين مظاهر الطبيعة من أمطار ورياح ورعود لإزالة معالم الطلل، ويجعل للريح أصواتاً شديدة مزمجرة وذلك إمعاناً في تشخيص وتجسيد الصورة الدارسة المندثرة، ثم يبدل ـ غالباً ـ سكان تلك الأطلال بظباء أو نعام تجدد الحياة في تلك الرسوم، ويجعل الشاعر من تلك الأماكن مراع خصبة تتكاثر فيها تلك الحيوانات كما رأينا. وهو لايحدد لنا تلك الفترة المؤلمة الحزينة، ولكنه يدع الأمر عائماً وجل مانعرفه عنها أنها سنون ذواهب ولانعلم عددها يقول "من السريع[٥٤]":

كَـأَنّ مـا أَبْقَتِ الرّوامِـسُ مِنْـ... ـهُ والسـنُونُ الـذ وَاهِـبُ الأُوَلُ

وكأن الشاعر هنا يستعيد مافات من عمره، وماقاساه في تلك الفترة كي يجد العذر والمبرر لإسبال الدموع، وذرف العبرات، ويتشبث الشاعر أحياناً بالأطلال ويقف أمامها شارد اللب في غير وعي كما لو أنه قد شرب خمراً معتقة من صنع بابل في العراق يقول "من السريع[٥٥] ":

ظِلْـتُ بهَـا كَـأنني شَـاربُ صَهْبَـاءَ مِمـا عَتّقَـتْ بَـابلُ

ويدرك الشاعر من خلال تصويره لهذا المصير المحتوم الذي ينتظره والذي آل إليه الطلل أن عليه مواجهة الواقع المرير وحده، فقد كان في البداية وحيداً ولابد له من أن يشهد النهاية وحيداً، وعبثاً يحاول أن يستوقف صحبه ليفرجوا عنه بعض ماهو فيه منن ألم، وحزن لكنهم يتابعون السير غير ملتفتين إلى ندائه فينطلق صوته الكسير المتهدج وكأنه يطلب الرحمة ويستجدي الشفقة يقول "من الطويل[٥٦] ":

أَلا تقِفَـان اليَـوْم بَعْـدَ تفَـرق وَنَـأْي بَعِيـدٍ واخْتِـلافٍ وَأَشْـغال

أجل لامندوحة من المواجهة والمجابهة، ويشق الشاعر طريقه بجهده بعد أن استعطف الرفيق والصاحب فلم يجبه أحد، ولم يواسه في محنته أحد وأخيراً يخرج من

---

[٥٤] ـ انظر المرجع السابق ٩٦ ـ ٩٦.
[٥٥] ـ انظر ديوانه ص٩٧ ـ ٩٨.
[٥٦] ـ انظر ديوانه ص١١٣.

سجن الأطلال، ومن تلك الغربة، ومن ذلك العالم الشارد الذاهل، ويصحو من سكرته، ويجيل طرفه فلايجد حوله إلا ناقته القوية الشملال فيستعين بها على الخلاص مما هو فيه ويرى فيها المنقذ والمساعد والصديق ومن ذلك قوله "من الرمل[٥٧] :"

فَانْصَرِفْ عَنْهُمْ بِعَنْسٍ كَالْوَأَى الْـ   جَأْبِ ذِي العَانَةِ أَوْ شَاةِ الرمَال

ويتلو الصحوة الإقرار والاعتراف من الشاعر بأن ماكان فيه مجرد صبابة وعماية لاتليق بمثله، أو لعله يريد بمثل ذلك الاعتراف أن ينسجم ويتلاءم مع نفسه، وواقعه من جديد ليتابع المشوار في عزم ومضاء همة وإرادة كأن يقول من الطويل[٥٨] :

سَرَاةَ الضحَى حتى إذا ماصَبَابَتِي   تَجَلتْ كَسَوْتُ الرحْلَ وَجْنَاءَ تَامِكا

ومن الملاحظ أن حديث عبيد عن المرأة في المقدمة الطللية يلفه الحزن، وتملؤه الحسرة فلولاها ماكانت رحلة أصلاً، ولاأطلال ذلك أن الرحلة عنده لاتأتي إلا بعد رحيل الأحبة والاكتواء بنار فراقهم. فكثيراًمايتحدث الشاعر عن الحبيبة وقد رحلت تطلب الماء والمرعى فانطلق وراءها في دروب الشقاء والعذاب والتيه، وقد خلفت في قلبه الحسرة والقلق والألم يقول والأبيات من الطويل[٥٩] :

لِمَنْ دِمْنَةٌ أَقْوَتْ بحَرةِ ضَرْغَدِ   تَلُوحُ كَعُنْوَان الكِتَابِ المُجَددِ

لِسعْدَةَ إذْ كَانَتْ تُثِيبُ بِودهَا   وَإذْ هِيَ لاتلْقَاكَ إلا بأَسْعَدِ

فَقَدْ أَوْرَثَتْ في القَلْبِ سُقْماً يَعُودُهُ   عَيَاداً كَسُم الحَيةِ المُتَرَددِ

ويرجع الشاعر في موضع آخر سبب الألم والمعاناة والمكابدة إلى رحيل الحبيبة يقول والأبيات من الطويل[٦٠] :

تُحَاولُ رَسْماً مِنْ سُلَيْمَى دَكَادِكَا   خَلاءً تُعَفيهِ الريَاحُ سَوَاهِكَا

تَبَدلَ بَعْدِي مِنْ سُلَيْمَى أَهْلِهَا   نَعَاماً تَرَعاهُ وَأُدْماً تَرَائِكَا

وَقَفْتُ بِهِ أَبْكِي بُكَاءَ حَمَامَةٍ   أَرَاكِيَةٍ تَدْعُو الحَمَامَ الأَوارِكَا

---

[٥٧] ـ انظر المرجع السابق ١١٦.

[٥٨] ـ المرجع السابق ص٩١ ـ ٩٢ وقد ورد البيت في مختارات ابن الشجري "عمايتى" بدل من "صبابتي" و كذلك في طبعة بيروت ص١٠١.

[٥٩] ـ انظر ديوانه ص٥٢.

[٦٠] ـ انظر ديوانه ص٩١ ـ ٩٢.

ويصور عبيد حبيبته في موكب الظعائن تصويراً جميلاً، فيخلع عليها مظاهر النعمة والغنى وهي في رحلة سعيدة ناعمة البال هادئة النفر لاتدري ماذا خلفت وراءها؟ وقد أخذت زينتها وتضمخت بكل طيب ولبست كل جديد يقول والأبيات من البسيط[٦١]:

بَانَ الخَلِيطُ الأُولى شَاقُوكَ إذْ شَحَطُوا ... وَفِي الحُدُوجِ مَهاً أَعْنَاقُهَا عُيُطُ

نَاطُوا الرعَاثَ لِمَهْوىً لَوْ يَزل بِهِ ... لانْدَقَ دُونَ تَلاقِي اللّبةِالقُرُطُ

إن الشاعر حريص هنا على أن يظهر لنا الحبيبة في صورة بهية مشرقة بعيدة كل البعد عن كل أشكال المعاناة يقول والأبيات من البسيط[٦٢] :

لِمَنْ جِمَالٌ قُبَيْلَ الصُبْحِ مَزْمُومَهْ ... مُيَمّمَاتٍ بِلاداً غَيْرَ مَعْلُومَهْ

عَالَيْنَ رَقْماً وأَنْماطاً مُظَاهَرَةً ... وَكِلّةً بعَتيق العَقْلِ مَقْرُومَهْ

كَأَن أَظْعَانَهُن نَخْلٌ مُوَسقَةٌ ... سُودٌ ذَوائِبُها بالحِمْلِ مَكْمُومَهْ

فِيهن هِندٌ وَقَدْ هَامَ الفُؤادُ بها ... بَيْضَاءُ آنِسَةٌ بالحُسْنِ مَوْسُومَهْ

ويقول في موضع آخر والبيتان من الطويل[٦٣] :

وإذْ هِيَ حَوْراءُ المَدَامِعِ طَفْلَةٌ ... كَمِثْلِ مَهَاةٍ حُرةٍ أُم فَرْقَدِ

غَدَاةَ بَدَتْ مِنْ سِتْرِها وكأَنمَا ... تَحِفُ ثَنَايَاهَا بحَالِك إثْمِدِ

وثمة علاقة أخرى وثيقة الارتباط بين المرأةوالشاعر في مقدمة النسيب حيث يظهر لنا الشاعر شيخاً كبيراً جللته الأيام بوشاح أبيض ناصعاً في الوقت الذي تبدو فيه الحبيبة صغيرة السن لاتعاني من الكبر والهرم والشيخوخة والحديث في مثل هذه الحالة حديث ذو شجون وحسرة وألم وتلفه اتهامات الشاعر لها بالغدر والخيانة وعدم الوفاء والتعالي والغطرسة يقول شاعرنا والأبيات من الخفيف[٦٤] :

زَعَمَتْ أَنّنِي كَبِرْتُ وَأَنِّي ... قَلّ مالي وَضَنّ عَنِّي المَوَالي

وَصَحَا بَاطِلِي وَأَصْبَحْتُ شَيْخاً ... لا يُوَاتِي أَمْثَالَهَا أَمْثَالي

أَنْ رَأَتْنِي تَغَيّرَ اللَّوْنُ مِنِّي ... وَعَلا الشَيْبُ مَفْرِقِي وَقَذَالِي

---

[٦١] ـ انظر ديوانه ص٨٣ ـ ٨٤.

[٦٢] ـ انظر ديوانه ص١٢٧ ـ ١٢٨.

[٦٣] ـ ديوانه ص٥٢.

[٦٤] ـ انظر ديوانه ص١٠٦ ـ ١٠٨.

فَـــارْفُضِي العـــاذِلِيْنَ واقْنَـــيْ حَيَـــاءً لايَكُونُـــوا عَلَيْـــكِ خَـــط مِثَـــالِي
إنْ يَكُـــنْ طِبُّـــكِ الفِـــرَاقُ فَـــلا أَحْفِـلْ أنْ تَعْطِفِـي صُـدُورُ الجمـال
أوْ يَكُـنْ طِبُّـكِ الـــد لالَ فَلَـوْ في سـالِفِ الـد هْـر والليـالي الخَـوالي

ويبدو عبيد من خلال وقفاته الطليلة ومن خلال نسيبه رجلاً عاقلاً رزيناً يخضع لنواميس الحياة الطبيعية وهو أبعد مايكون عن الحيرة والقلق والتشتت الذي ربما وجدناه عند غيره من الشعراء الجاهليين فهو كما رأينا لايعاني من صعوبة الاختيار فلايحفل إن فارقته المرأة وعزمت على الرحيل، وهو يبدو لنا من خلال ذلك وهو يعاني التجربة ويتجرع مرارتها بكل ألم حين ينظر ديار الأحبة ويتأمل بقاياها فيرى بين ركامها مصيهر المحتوم ويشعر بضعفه أمام قوى الطبيعة القادرة. أقول: يبدو لنا قوياً، متماسكاً، محباً للحياة، يتجاوز كل مافات ويتابع مسيره فينظر إلى الطلل على أنه مبعث حياة جديدة لما ألف من الحيوانات فيشرع في وصفها مورداً إصرارها على الحياة وعلى انتزاع الغلبة والمقاومة العنيفة كما في صور الثور الوحشي والعقاب.

وهكذا فإنه يتأرجح بين الأمل واليأس، بين الموت والحياة، بين مظاهر السكون ومظاهر الحركة في هذه البيئة القاسية، وعلى الرغم مما نجده من مظاهر الحياة في الوقفة الطللية فإن الذي يخسر هو الشاعر، إنه أمام تحديات الطبيعة التي لاقبل له بها ولذلك فهو يسلم بالهزيمة ويعود إلى عقله بعد فترة ذهول ويسأل نفسه مانفع ذلك؟ ويجيب بنفسه عن سؤاله حيث يلومها ويعنفها قائلاً[٦٥] :

تَصْبُـــو وَأَنّـــى لَـــكَ التصـــابي أَنّـــى وَقَـــدْ رَاعَـــكَ المَشِـــيْبُ

لقد آمن الشاعر أن التعلق بكل مافات ضرب من الصبابة وإن شئت فقل الوهم. فترها بعد أن حسن وبكى وسلم على كل نؤي فيها.

وتعرف إلى كل أثفية فيها، وأدرك الشاعر أن ليس هنا إلا الرماد الغبي وبقايا الدمن والبيتان من البحر الخفيف[٦٦] :

مُقْفِـــرَاتٍ إلا رَمـــاداً غَبيـــاً وَبَقَايـــا مِـــنْ دِمْنَـــةِ الأَطْـــلال
وَأَوارِيَّ عَفَـــــوْنَ وَنُؤْيَـــــاً وَرُسُـــوماً عُـــرّ يْـــنَ مُـــذْ أَحْـــوَال

---

[٦٥] ـ انظر ديوان عبيد ص١٢.
[٦٦] ـ ديوانه ص١٠٦.

وهكذا فإننا نجد لوازم العدم تحيط بلوحة الطلل عند عبيد بن الأبرص وليس فيها من بوارق الحياة شيء سوى ذلك الحيوان الأليف الذي تكاثر ونما في المكان نفسه والشاعر يريد بعث الحياة في الطلل من هذه الزاوية وكأنه يريد أن يستولد الحياة من قلب العدم.

ونستطيع أن نعمم نظرة الشاعر على غيره من أبناء قومه ممن يعانون الظروف نفسها وماأشبه حياة العرب الجاهليين بعضها ببعض وعبيد بن الأبرص في هذا المجال نراه يعطي أبعاداً عمومية في قوله[٦٧] :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ	فَالْقُطَبِيَّاتُ فَالذَنُوبُ
فَرَاكِسٌ فَثُعَيْلِبَاتٌ	فَذَاتُ جَنْبَيْنِ فَالقَلِيْبُ
فَعَرْدَةٌ فَقَفَا حِبر	لَيْسَ بِهَا مِنْهُمُ عَرِيبُ
أَرْضٌ تَوَارَثَهَا شَعُوبُ	فَكُلُ مَنْ حَلّهَا مَحْرُوبُ
إمّا قَتِيلاً وَإمّا هَالِكاً	والشَيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيْبُ

إن تعداد الأمكنة هنا لنستدل منه على أن الشاعر يجعل من التجربة الخاصة تجربة عامة فهي تصيب أي إنسان كان، وماهذا المكان كغيره من الأمكنة سيؤول إلى طلل وبقايا دمن. وكم من مكان غيرملحوب غادره الشاعر وأهله فأضحى أثراً بعد عين، ومسرحاً للظباء والنعام بعد أن كان آهلاً بالأحبة حيث العيش مغتبط والشمل مجتمع. يقول والأبيات من الخفيف[٦٨] :

لِمَنْ الدارُ أَقْفَرَتْ بالجَنَابِ	غَيْرَ نُؤْيٍ وَدِمْنَةٍ كالكِتَابِ
أَوْحَشَتْ بَعْدَ ضُمرٍ كالسَعَالِي	مِنْ بَنَاتِ الوجيْهِ أَوْ حَلابِ
وَمُرَاحٍ وَمَسْرَحٍ وَحُلُولٍ	وَرَعَابِيْبَ كَالدّمَى وَقِبَابِ
وَكُهُولٍ ذوي نَدىً وَحُلُومٍ	وَشَبَابٍ أَنْجَادَ غُلْبِ الرقابِ
أَوْطَنَتْهَا عُفْرُ الظبَاء وَكَانَتْ	قَبْلَ أَوْطَانَ بُدّن أَتْرَابِ

ويصحو الشاعر من كل ذلك ويلملم شتات نفسه بعد فترة الذهول والاستغراق والتفكير تلك، ويرى العالم من حوله، فلايسعه إلا أن يطوي الصفحة ليفتح صفحة جديدة

---

[٦٧] ـ ديوانه ص١٠.

[٦٨] ـ انظر ديوان عبيد ص٢١ ـ ٢٣.

من صفحات حياته المملوءة بالمفاجآت والمفارقات ولسان حاله يقول والبيت من الطويل[٦٩]:

سَرَاةَ الضحَى حتى إذَا ما صَبَابَتِي ... تَجَلتْ كَسَوْتُ الرّحْلَ وَجْنَاءَ تَامِكَا

تلك هي وقفة عبيد على الأطلال والدمن والرسوم، وإننا لنرى فيها من خلال ما أورده الشاعر من تساؤلات وما ضمنه من صيغ، ارتباط الشاعر القوي بجماعته، ومحاولة التلاؤم مع الذات، والإصرار على التقدم وعلى متابعته مشوار الحياة بكل عناد، كما نرى فيها ظل الشاعر الحزين، المهيض الجناح، الكسير النفس الذي فقد الأحبة فأذرى الدمع الغزير إثرهم وهذه السمة بارزة في شعر عبيد وبخاصة في المقدمات الطللية عنده ولعل ذلك يعود إلى تفرق بني أسد في البلاد، وتشتت شملهم بعد هزيمتهم كما رأينا على يد الغساسنة وعيش الشاعر بعدهم عمراً مديداً، ومما يوضح ذلك قوله في رثاء قومه والأبيات من الطويل[٧٠]:

لِمَنْ طَلَلٌ لَمْ تَعْفُ مِنْهُ المَذَانِبُ ... فَجَنْبَا حِبّرٍ قَدْ تَعَفّي فَوَاهِبُ

دِيَارُ بَني سعدِ بنثَعْلَبَةَ الأُلَى ... أَذَاعَ بِهِمْ دَهْرٌ عَلَى النّاس رَائِبُ

فَأَذْهَبَنَهُمْ ما أذْهَبَ النّاسَقَبْلَهُمْ ... ضِرَاسُ الحُرُوبِ والمَنَايَا العَوَاقِبُ

كما نلاحظ من خلال النسيب والوقوف على الأطلال عند الشاعر حنينه القاتل إلى ماضيه وسالف أيامه الجميلة، ولاغرو في ذلك فإن من طبيعة الإنسان الحنين إلى الماضي لاسيما إذاكان ماضياً مجيداً كالذي نعم به عبيد إذ كان سيداً من سادات عشيرته وفارساًمن فرسانها المعدودين وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الشاعر قد قلبت له الأيام ظهر المجن في أواخر حياته، وأنه مر بظروف قاسية ومؤلمة، فراح يحلم بعودة ذلك الماضي، ويمني نفسه برجوعه إذ يقول والأبيات من البسيط[٧١]:

هَلِ اللّيَالِيْ والأَيّامُ رَاجِعَةٌ ... أَيّامَ نَحْنُ وَسَلْمَى جِيْرَةٌ خُلُطُ

إذْ كُلّنَا وَمِقٌ رَاضٍ بصَاحِبِهِ ... لا يَبْتَغِي بَدَلاً فَالعَيْشُ مُغْتَبِطُ

والشّمْلُ مُجْتَمِعٌ واعْتَاقَهُ قِدَمٌ ... والدهْرُ مِنْهُ عَلَى التَحْبِيْفِ والفُرُطُ

إن صورة الطلل على هذاالنحو عند عبيد بن الأبرص بما اختار لها من ألفاظ

---

[٦٩] ـ انظر المرجع السابق ٩١ ـ ٩٢.

[٧٠] ـ انظر المرجع السابق ص٨ ـ ٩.

[٧١] ـ انظر ديوان عبيد ص٨٣ ـ ٨٤.

معبرة، وعبارات مشحونة بحرارة الألم، وصور فنية مستقاة مــن البيئـة الجاهليـة وملونـة بألوانها المألوفة لدينا، وتساؤلات حائرة قلقة تدل على نفس الشاعر المتوثبة القلقة، قــد جاءت مجسدة موقف الشاعر من حاضره قبل ماضيه، ودالة على معاناته ومكابدته وهو يفكر في لغز الحياة المبهم.

الباب الثالث

دراسة نقدية لشعره من ناحية الشكل

الفصل الأول

الصور الفنية عند عبيد

لاشك أن التصوير حاجة ملحة، ومطلب فطري عند الإنسان بعامة والشاعر بخاصة، ولابد من استخدام الوسائل المناسبة كي يستطيع الشاعر نقل الأحاسيس والمشاعر إلى الآخرين.

ولذا، فقد دأب الإنسان منذ القدم على تطوير لغته، كما استعان بأسلوب الرسم وغيره من الأساليب كي يوصل مايريد قوله بأحسن السبل، وبأوضح الطرق وقد يوفق في ذلك أو يخفق، وذلك يتوقف على عوامل متعددة، ومن المعروف أن العرب أمة عنيت بالبيان والبلاغة والفصاحة، وكان الشعر ديوانهم وسجلهم الأول به صور جميع حياتهم، وقد استخدموا كافة ألوان البيان المعروفة لدينا الآن غير أن استعمالهم لها كان أقرب إلى العفوية والطبيعة، فلا تكلف ولا إغراق، فجاءت صورهم ومعانيهم واضحة بسيطة يقول الدكتور شوقي ضيف "وأول مايلاحظ على معاني الشعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولابعد وإغراق في الخيال سواء حين يتحدث الشاعر عن أحاسيسه، أوحين يصور ماحوله في الطبيعة فهو لايعرف الغلو ولا المغالاة ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعتدلة"[١].

إن الشاعر الجاهلي لم يكن همه الأول في تصويره أن يأتي لنا باستعارة أو يسوق لنا كناية أو تشبيهاً، وإنما كان همه الأول أن ينقل لنا صورة أمينة ودقيقة لما يراه ويحسه، فالصورة عند الجاهليين بعامة والبدويين منهم خاصة صورة محدودة وسطحية ومرتبطة في أكثر الأحوال بالعالم المحسوس وقلما تعمقوا في صورهم، ذلك أن الشاعر

---

[١] ـ انظر تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص٢١٩).

الجاهلي متفاعل إلى أبعد الحدود مع بيئته ومجتمعه، ومن الطبيعي أن تكون صوره نابعة من حياة ذلك المجتمع ومستقاة من تلك البيئة.

وحول مفهوم الصورة الأدبية يقول الدكتور محمد زكي العشماوي "إن الصورة في الشعر ليست إلا تعبيراً عن حالة نفيسة معينة يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة، وإن أية صورة داخل العمل الفني إنما تحمل من الإحساس وتؤدي من الوظيفة ماتحمله وتؤديه الصورة الجزئية الأخرى المجاورة لها وإن من مجموع هذه الصور الجزئية تألف الصورة الكلية التي تنتهي إليها القصيدة"[٢] وإذن فالصورة الأدبية على هذا الأساس تتألف من مجموعة من العناصر المتغايرة المتآزرة التي تعبر عن رؤية معينة.

ولايختلف كثيراً تعريف الدكتور مصطفى ناصيف للصورة الأدبية عن تعريف الدكتور العشماوي[٣] وإن كان يركز على أهمية العامل النفسي في الصورة وهي عنده عملية تحليل وتركيب، فالصورة إذن هي فكرة متخيلة أو مجموعة من الأفكار الجزئية والمشاعر والأحاسيس يصبها الشاعر داخل إطار فني معين قد يكون تشبيهاً، أو استعارة أو كناية، ويتفاوت الشعراء في كيفية نقل هذه الصورة إلى القارئ وذلك تبعاً لشخصية الشاعر وثقافته وظروفه البيئية منها والخاصة، فمنهم من يخرج صوره إخراجاً دقيقاً محكماًيستوفي فيه كل جزئياتها ليصل بنا في النهاية إلى صورة كلية ملونة متقنة.

وشاعرنا عبيد بن الأبرص واحد من هؤلاء الشعراء الذين عبروا عن معانيهم بالصور الفنية، وعلى الرغم من أن معظم صور عبيد كانت مستوحاة من البيئة إلا أنه قد ضمن تلك الصور جانبا نفسياً تجاوز به التقرير المباشر إلى دلالات أخرى يمكننا رؤية بعضها في الرمز ويبدو أنه أفاد إلى حد بعيد من طاقات اللغة ودلالات الألفاظ في صنع صوره الجزئية منها والكلية، ونلمس هذا على وجه الخصوص في وصف الشاعر للأطلال والناقة، ووصفه لمآثر قومه ومحامدهم في مضمار الفخر، ووصفه لمظاهر الطبيعة من برق ورعد وسحاب ومطر.

لقد صور ناقته وشبهها بحمار وحشي أو وعل، لكنه كان يتوقف أثناء تصويره لها ويجنح إلى مشاهد جانبية فيصورها أو يعطيها حقها من الاستقصاء ثم يعود ثانية إلى تصوير الناقة فهي إذن صورة مركبة تحتوي في ثناياها على صور جزئية متنوعة

---

[٢] ـ انظر قضايا النقض الادبي للدكتورمحمد زكي العشماوي الطبعة الثالثة ص١٠٨.

[٣] ـ انظر الصورة الادبية للدكتور مصطفى ناصف طبع دار مصر للطباعة من ص١١٢ الى ص٢٠ و من ص٢٣٥ - ٢٣٧.

يسحرها الشاعر في اقتدار لخدمة الصورة الكلية، ويبرهن من خلال ذلك على قدرة تعبيرية رائعة وتنويع في الأداء وتطويع للغة ومفرداتها. يقول في وصف الناقة من مخلع البسيط[4]:

قَطَعْتُـــــهُ غُــــدْوَةً مُشِـــيْحَا وَصَـــاحِبي بَـــادِنٌ خَبُـــوبُ

عَيْرَانَـــةٌ مُؤْجَـــدٌ فَقَارُهَـــا كَـــأن حَارِكَهَـــا كَثِيـــبُ

أَخْلَـــفَ مَابـــازِلاً سَدِيسَـــهَا لاحِقَـــةٌ هِـــيَ ولانَيُـــوبُ

كَأَنَّهـــا مِـــنْ حَمِـــيرِ غَـــابٍ جَـــوْنٌ بِصَفْحَتِـــهِ نُـــدُوبُ

أَوْ شَـــبَبٌ يَحْفِـــرُ الرُخَـــامَى تَلُفُّـــهُ شَـــمْأَلٌ هَبُـــوبُ

فَـــذَاكَ عَصْـــرٌ وَقَـــدْ أُرَانِـــي تَحْمِلُـــنِي نَهْـــدَةٌ سُـــرْحُوبُ

مُضَـــبَّرٌ خَلْقُهَـــا تَضْبِـــيرا يَنْشَـــقُّ عَـــنْ وَجْهِهَـــا السَـــبِيْبُ

كَأَنَّهَـــا لِقْـــوَةٌ طَـــلُوبُ تُخْـــزَنُ في وكْرِهَـــا القُلُـــوبُ

بَـــاتَتْ عَلَـــى إِرَمٍ رابِئَـــةٍ كَأَنَّهَـــا شَـــيْخَةٌ رَقُـــوبُ

فَـــأَصْبَحَتْ في غَـــدَاةِ قِـــرَّةٍ يَسْـــقُطُ عَـــنْ رِيشِـــهَا الضَرِيـــبُ

فَـــأَبْصَرَتْ ثَعْلَبَـــاً مِـــنْ سَـــاعَةٍ وَدُونَـــهُ سَبْسَـــبٌ جَدِيـــبُ

فَنَفَضَـــتْ رِيشَـــها وانْتَفَضَـــتْ وَهِـــيَ مِـــنْ نَهْضَـــةٍ قَرِيـــبُ

فاشْـــتَالَ وارْتَـــاعَ مِـــنْ حَسِيسِـــهَا وَفِعْلُـــهُ يَفْعَـــلُ المَـــذْؤُوْبُ

فَنَهَضَـــتْ نَحْـــوَهُ حَثِيْثَـــةً وَحَـــرَدَتْ حَـــرْدَةً تُسِـــيبُ

فَـــدَبَّ مِـــنْ رَأْيِهَـــا دَبِيبـــاً والعَيْـــنُ حِمْـــلا قُهـــا مَقْلُـــوبُ

فَأَدْرَكَتْـــهُ فَطَرَحَتَـــهُ والصَيْـــدُ مِـــنْ تَحْتِهَـــا مَكْـــرُوبُ

يَضْغُـــوا وَمِخْلَبُهَـــا في دَفِّـــهِ لا بُـــدَّ حَيْزُومُـــهُ مَنْقُـــوبُ(١)

فمن وصف الناقة وتصويرها، ينتقل فجأة إلى تصوير الفرس وتبيان مميزاته، وهو في ذلك يتبع أكثر من سبيل لتلوين الصورة فهي كشيخة رقوب، أو عقاب تطلب الصيد، تتجول ببصرها في كل اتجاه حتى أبصرت ثعلباً، وهنا يتابع الشاعر منظراً فرعياً، وهو منظر الثعلب فيصوره بكل دقة وعناية، ويستخدم في ذلك اسم المفعول أكثر من مرة

---

[4] ـ انظر ديوان عبيد ص١٦ ـ ١٨.

ليعطي البعد الحقيقي للصورة التي كانت عليها الفريسة: المذؤوب، حملاقها مقلوب، مكروب، منقوب، واختار عبيد لاسم المفعول هنا إنما يكمن وراءه برأينا علم الشاعر بطبعه وسليقته بما لهذا المشتق من دلالة قوية معبرةٍ عن حالة الفريسة، فالمشاهد في صورة الناقة متغايرة ولكنها في الواقع تقصد مرمى واحداً وهو إعطاء هذه الناقة أبعاداً جديدة وإضفاء أكثر من خط لتلوين وتشكيل الصورة، ولايقل اعتناء الشاعر بالجزئيات المكونة للصورة الكلية عن اعتنائه بالصورة الكلية نفسها، فقد صور لنا الحمار الوحشي، والثعلب، والعقاب، والفرس التي أسهب في تصويرها حتى كدنا نظنه قد نسي الناقة، وكان الشاعر في نقله الصور، والمناظر الجانبية أميناً ودقيقاً إلى درجة جعلنا نعيش معه حالة الثعلب المطرود حقاً، كما أن صورة العقاب المنتظرة المتوثبة لصيد بعد ليل بارد قد استطاع الشاعر من خلالها الإفصاح عن الحالة النفسية التي كانت عليها تلك العقاب، وقد جاءت الصورة الكلية موجزة في ألفاظها، ومعبرة عن المواقف التي صورها الشاعر في أقل عدد من المفردات التي تحتوي على سيل عارم من المعاني، والأبعاد المستقاة من البيئة في غالبيتها ولاتقل صورة الأطلال عند عبيد جودة وعناية، وإتقاناً عن صورة الناقةوالفرس فقد أوردها الشاعر وأولاها من اهتمامه وعنايته مما وفر لها عناصر، وسبل النجاح والواقعية، وقد مهد الشاعر لهذه اللوحة العريضة ذات الملامح المتعددة الجوانب بوصف وتصوير الحبيبة، أو الزوجة يقول "من الخفيف[٥]:"

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدفِيْن ببَالِي	فَلِوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَيْ أُثَال
فالمَرْوَرَاةُ فالصَحيفَةُ قَفْرٌ	كُل وَادٍ وَرَوْضَةٍ مِحْلا ل
مَقْفِرَاتٍ إلا رَمَاداً غَبياً	وَبَقايَا مِنْ دِمْنَةِ الأَطْلا ل
وَأَوَارِيّ قَدْ عَفَوْنَ وَنُؤْيَا	وَرُسُوماً عُرِيْنَ مُذْ أَحْوَال
بُدِّلَتْ مِنْهُمُ الديَارُ نَعَامَاً	خَاضِبَاتٍ يُزْجيْنَ خَيْطَ الرئال
وَظِبَاءً كَأَنّهُن أَباريـ	قُ لُجَيْن تَحْنُو عَلَى الأَطْفَال

لقد كانت اللغة في هذه الصورة كما يخيل لنا معبرة عن موقف الشاعر من الأطلال، وقد أوضحت لنا البعد النفسي الذي أراده الشاعر للأطلال، فهي مسرح صراع بين الحياة والموت،، إن صورة الدمار التي لحقت بالأطلال لم تستطع رغم قوتها العاتية من محو مظاهر الحياة فيها، فهاهي الحياة تدب من جديد في ربوع ذلك الطلل الدارس لقد كسته القدرة،

---

[٥] ـ انظر ديوان عبيد ص١٠٦.

وألفته النعام والظباء وقد توالدت فيه وتكاثرت، ممايوحي بخصب ونماء تلك الربوع لقد صور عبيد الأطلال في أكثر من موضع، وقد جاءت صوره ضمن إطار فني متقن معبر عن أكثر من دلالة ولننظر إليه مثلاً، وهو يصور جمال الظباء وشدة بياضهن بأباريق الفضة في اللوحة السابقة ومن ذلك صورة الطلل في معلقته إذا يقول[٦]:

أَقْفَــرَ مِــنْ أَهْلِــهِ مَلْحُــوبُ   فالقُطَبِيّـــاتُ فـــالذَنُوبُ

فَرَاكِـــسٌ فَعُرَيْتِبَـــاتٌ   فَـــذَاتُ جَنْبَيْـــنِ فـــالقَلِيبُ

فَعَـــرْدَةٌ فَقَفَـــا حِـــبِرٍ   لَيْـــسَ بِهَـــا مِنْهُـــمُ عَرِيـــبُ

إنْ بُـــدِ لَـــتْ أَهْلَهَـــا وُحُوشـــاً   وغَـــيَرَتْ حَالَهَـــا الخُطُـــوبُ

أَرضٌ تَوَارَثَهَـــا شَـــعُوبُ   وكُـــلُ مَـــنْ حَلَّهَـــا مَحْـــرُوبُ

إمّـــا قَتيـــلاً وإمـــا هَالِكَـــاً   والشَـــيْبُ شَـــيْنٌ لِمَـــنْ يَشِـــيْبُ

إنْ تَـــكُ حَـــالَتْ وَحُـــو لَ أَهْلُهَـــا   فَـــلا بَـــدِي ولا عَجيْـــبُ

أَوْيَـــكُ أَقْفَـــرَ مِنْهَـــا جَـــوٌّ هَـــا   وَعَادَهَـــا المَحْـــلُ والجُـــدُوبُ

فَكُـــلُّ ذِي نِعْمَـــةٍ مَخْلُـــوسٌ   وكُـــلُّ ذِي أَمَـــلٍ مَكْـــذُوبُ

إن تصوير عنصر الحزن والأسى عند عبيد قد بلغ مداه في هذه الصورة القاتمة للطل، فصور الموت والدمار ماثلة في كل لفظ جاء به الشاعر وإذا نظرنا في تخلص الشاعر من وصف الموت والدمار وجدناه يجنح إلى وصف الشيب والاعتبار به مما يناسب المقام في هذه الصورة، فالطلل هنا لوحة قاتمة قائمة بذاتها يقصد الشاعر من إيرادها الإفصاح عن حالته النفسية القلقة المتوترة بل قل اليائسة المنهزمة، وقد استغل الشاعر اللغة استغلالاً جيداً في التعبير عن هذه المشاعر وتصويرها في رسم صورة كلية للطلل وماوصف الشيب والدمن، والحيوان، ولوحة الصيد إلا عوامل مساعدة لتوضيح الصورة الكلية التي أرادها الشاعر، فصورة الشيب موحية بالكبر والوهن، والضعف وصورة الدمع تضعنا في جو من الحزن والكآبة العميقة، وصورة الصيد تبين لنا وتؤكد انتصار الأقوى وحتمية الموت، لقد نشعر ونحن أمام هذه الصورة للطلل أننا أمام أرض جعلها الموت مسرحاً له فلامكان لطالب حياة فيها وإذا تأملنا ألفاظ الشاعر وجدنا أن كل لفظة في اللوحة سهماً من سهام الموت وداعية من دعاة المنون، وهي صورة متأنية

---

[٦] ـ انظر ديوان عبيد ص١٠ ـ ١٢.

كما تبدو لنا صاغها الشاعر بعد روية وفكر، ووقف عند كل جزئية ليوفيها حقها من التصوير وإننا لنشعر أن الشاعر قد أجهد نفسه في تلوين وتشكيل خطوط صورة الطلل فاختار لها مايناسبها من ألفاظ وتشبيهات واستعارات، وعبر من خلالها إلى الكشف عن بعض حالاته النفسية من شعور باليأس والهزيمة إلى صراع بين الحياة والموت إلى استسلام بالمصير المحتوم، وكانت ريشة عبيد في كل ذلك ريشة مبدعة النسج، فعبيد واحد من هؤلاء الشعراء البداة الذين حاولوا نسج قصائدهم وتصوير معانيهم بالعديد من الصور الفنية المستقاة في أغلبها من البيئة البدوية، وقد رأينا في تصويره للناقة والفرس، والأطلال، مثالاًعلى ذلك على أننا سنقف عند لوحة الأطلال ووصف الظعائن وقفة أخرى في حينها. لقد جاءت معظم الألوان والخطوط ضمن إطار فني متقن لتسهم مجتمعة في تشكيل القصيدة عنده، وإذا كنا قد وجدنا في بعض صوره لمسة تجويد وإتقان فهذا لايعني أن عبيداً كزهير وأمثاله من مدرسة عبيد الشعرية وبخاصة في وصف الفرس ويتجلى إبداعه الفني في ذلك الفيض الرائع من الصور الجميلة وهو يصف ويصور المطر، والبرق، والسحاب حيث تتجلى فيها الطبيعة ناطقة عن جمالها، ومظهرة قدرتها على الإبداع وإبراز مواطن الجمال فيها والتي سنقف عليها بعد قليل، وعلى أية حال فإنه لم يكتف بذلك فحسب، ولكنه عزز صوره بالحركة، وأعطاها من الأبعاد النفسية ماوفر لها عنصر الجدة والغناء والواقعية، وكان يكثف الأحداث فيها بشكل واضح فيوجز ويركز من مثل تصويره لرفاقه إذ يقول "من الطويل[7]:"

وَخِرَقٍ مِنَ الفِتْيَان أكْرَمَ مَصْدَقاً   مِنَ السَيْفِ قَدْ آخَيْتُ لَيْسَ

وكان يطيل في اللغة عندما يريد تصوير مشهد كلي من مثل صورة المطر والبرق والسحاب وصورة الأطلال في أغلب قصائده الطويلة، وتجسيد صورة الموت التي أعقبت الحياة لتلك الديار والربوع، وصورة الناقة والفرس، وصورة بني أسد بعامة وبخاصة في مجال الفخر على الرغم من أن الشاعر قد عاش في قلب الصحراء العربية واكتوى بحرها اللافح، وهجيرها المتقد إلا أنه قلل من تصويره لها، وكذا تصويره للمرأة جاء مقتضباً على خلاف بعض معاصريه كامرئ القيس ومع هذا الاقتضاب في تصوير المرأة فإنه يبدو من خلال تصويره لها عارفاً بمواطن الجمال الخلقي والخلقي عندها، ولم يغفل الشاعر أغلب مادار حول تصوير المرأة عند غيره من شعراء الجاهلية فيما يختص من صور مألوفة أطلقت على جمال المرأة وفتنتها وطباعها، والصورة الثالثة

[7] ـ انظر المرجع السابق ص٢٧.

عند شاعرنا هي صورة الطبيعة الحية متمثلة في المطر والبرق والرعد والسحاب، وقد استعان الشاعر في تركيبها كصورة كلية بعدد من العناصر المتغايرة من حركة ولفظ وصياغة وموسيقى، وبلاغة، فكانت صورة ملونة مزركشة الجوانب مكتملة الخطوط فقد صور الشاعر المطر منذ نشأته ندى إلى تكونه سحاباً فسقوطه غيثاً، وقد اجتزأها الشاعر من مشاهد الطبيعة المتعددة المحيطة به، وهي إن عكست بعض الأبعاد فإن من أول هذه الأبعاد شوق العربي إلى هذا المنظر الجميل منظر المطر المنهمر على الأرض، لقد كان لرؤية قطرات المطر وهي تتساقط على الرمال العطشى منظراً محبباً تهفو إليه نفسه، وبالتالي فإن المطر والسحاب من المشاهد السارة الأثيرة إلى نفس الشاعر خاصة وأنه كان يعيش في إقليم نجد يترقب مع قبيلته قطرات الغيث التي تبعث الحياة في أوصالهم وأوصال تلك البادية الميتة يقول عبيد "من الوافر[8]":

أَرِقْـتُ لِضَـوْءِ بَـرْقٍ في نَشَـاصٍ	تَـلأْلأَ في مُمَـلاةٍ غِصَـاصِ
لَوَاقِـحَ دُلَّـجٍ بالمـاءِ سُـحْمٍ	تَثُـجُّ المـاءَ مِـنْ خَلَـلِ الخَصَـاصِ
سَـحَائِبَ ذاتِ أسْـحَمَ مُكْفَهِـرٍّ	تَوَخَّـى الأَرْضَ قَطْـراً ذَا افْتِحَـاصِ
تَأَلَّـفَ فاسْـتَوَى طَبَقـاً دُكَاكَـاً	مُخيـلاً دونَ مَثْعَبِـهِ نَـوَاصِ
كَلَيْـلٍ مُظْلِـمِ الحُجُـرَاتِ دَاجٍ	بَهِيْـمٍ أَوْ كَبَحْـرٍ ذِي بَـوَاصِ
كَـأَنَّ تَبَسُّـمَ الأَنْـوَاءِ فِيْـهِ	إذا مـا أنكَـلَ عَـنْ لَهِـقٍ هُصَـاصِ
وَلاحَ بِهَـا تَبَسُّـمُ واضِحَـاتٍ	يَزِيـنُ صَفَـائِحَ الحُـورِ القِـلا صِ

---

[8] ـ انظر ديوانه ص٧٦ القصيدة رقم ٣٠. النشاص: السحاب الابيض المرتفع بعضه فوق بعض. مملأة: سحابة ملئت بالماء. غصاص: غصت بالماء.

لواقح. التي لقحت من الريح أي حملت الريح الندى ثم مجته فيها. الدلح: الدانية المثقلة بالماء سحم. سود و هي جمع سحماء. الخصاص. ها هنا السحاب. تثج. الماء تصبه.

المكفهر. المتراكب المسود. توخى. قصد. ذوافتحاص. أي يقلب الأرض و يكشفها.

الطبق. الغطاء الدكاك. المستوى المجتمع. والمخيل الذي يرجى منه المطر. المثعب. مخرج الماء من الحوض.

الحجرات. النواحي. البهيم. الاسود البوس. البعد و طريق بائس أي بعيد. فلعل بواص بمعنى أ بعاد، أي بحر متسع فسيح و لم ترد هذه اللفظة في المعاجم.

الأنواء. جمع نوء و هو النجم مال للغروب ومعه مطر. انكل السحاب. لمع خفيفا. اللهق. الشديد البياض. الهصيص. تلألؤ النار وبريقها. الهصاص. غير موجود فيما بين أيدينا من معاجم.

الواضحات الأسنات التي تبدو عن الضحك الصفائح. ها هنا الوجه القلاص النوق واطلقها هنا على الفتيات الصغيلرات السن.

ومما تجدر الإشارة إليه أن عبيداً قد صور البرق والمطر والسحاب في أكثر من موضع من ديوانه[9].

غير أن صوره في هذا الشأن في مضمونها مجتمعة لاتبعد عن الصورة السابقة من حيث المدلول. كان البرق يتراءى لعين الشاعر من بعيد فأرقه وأقلقه، يتخطى ذلك السحاب المرتفع المتراكم الذي غص بالماء بعد أن أترعته الريح بالندى، فمجته فيه حتى أثقلته فدنى يزحف فويق الأرض مسوداًينهل عليها منسكباً يقلب ترابها من شدة انهماره، ذلك السحاب الذي استوى حتى كأنه غطاءٌ لتلك الأرض وقد انسكبت من فتحاته ومثاعبه الأمواه، وهذا السحاب لشدة تراكمه بدا لعين الشاعر كالليل المدلهم لشدة سواده، وكالبحر المتسع لكثرة مائه، وقد تابع الشاعر تشبيه السحاب بالليل فجعله برقة كتبسم النجوم، وفي صورة أخرى شبه لمعان البرق بالأسنان الناصعة البياض التي تزين وجوه الفتيات الصغيرات ومن الملاحظ أن هذه الصورة الكلية للبرق والسحاب والمطر قد حوت عدداً من التشبيهات والصور الجزئية أسهمت جميعها بنقل مشهد كامل استطاع الشاعر أن ينقلنا من خلاله من عالم الكلمة المجردة إلى عالم التشخيص والتجسيد حيث جعلنا نشهد مع الشاعر تساقط المطر ووميض البرق، وتراكم السحاب الأسحم، ففي البيت الأول شبه الشاعر السحاب المترع بالماء بكوب قد امتلأ حتى غص بما فيه ففاض، وفي البيت الثاني استعار التلقيح ليجعل الريح تلقح السحاب بالماء فيحمل، وينتفخ، ويتراكم، وفي البيت الثالث جعل المطر من القوة بحيث يقلب الأرض ويتفحصها مستعيراً بذلك للمطر صفة من صفات الإنسان، فأما البيت الرابع فقد شبه فيه الشاعر السحاب المتراكم الذي لامنفذ فيه بالغطاء، ومن ناحية أخرى شبهه بالحوض ذي المثاغب والفتحات لشدة انصباب الماء منه، وقد كان البيت الخامس واضح التشبيه إذ جعل السحاب الأسحم كالليل المطبق الظلام وكالبحر المظلم المتسع، وفي البيتين السادس والسابع شبه لمعان البرق في ذلك السحاب بالنجوم التي تشرق من خلال ذلك الليل وكأنها أسنان بيضاء تزين مباسم فتيات سمراوات.

ويبدو لنا أن عبيداً من خلال صورة البرق والمطر والسحاب شديد التأثر ببيئته البدوية وتبدو لغته لنا خشنة إلا أنه قد أشبع فينا حس الخيال، والسمع، ولون صورته تلك بألوان مناسبة لوصف السحاب المتراكم فقد طغى السواد على الصورة كما رأينا في معظم أبياتها، وهذا يناسب الصورة هنا فإن من رأى هذا المنظر في الصحراء

---

[9] ـ انظر ديوانه القصيدة ٣٠ و المقطوعات ١١،٢٣،٣٥،٣٤،٤٧،٤٩.

فسيدرك مدى الدقة التي صور بها عبيد هذا المشهد، لقد كان استخدام الشاعر للغة معبرا ًوموحياً إلى درجة بعيدة فالكلمات لواقح دلج سحم تثج الماء مملأة غصاص مكفهر ذا افتحاص تدلنا على أن الشاعر قد انتقى لصورته أعمق الألفاظ الدالة والموحية وزيادة في توضيح الصورة فإن الشاعر قد مال إلى استخدام المشتقات وهي سمة من سمات عبيد الشعرية، من مثل لواقح ودلج ومكفهر ومملأة ولهق، وقد يلجأ الشاعر إلى التشخيص في توضيح صورته وغالبًامايعمد عبيد لمثل هذا إذ يصور الشيء الجامد بشخص يحس، ويعقل أو العكس من قوله في تصوير الخائن "من الطويل[10] ":"

وَجَدْتُ خَؤُونَ القَوْمِ كالعَرِ يُتقَى   وَمَا خِلْتُ غَمَ الجَارِ إلا بِمَعْهَدِ

وقوله في وصف وتصوير البرق[11] :

يَنْزِعُ جَلْدَ الحَصَى أَجَش مُبْتَرَكٌ   كَأَنَّهُ فَاحِصٌ أَوْ لاعِبٌ دَاح

وقوله في تصوير الأطلال[12]:

وَمُرَاح وَمَسْرَح وَحُلُول   وَرَعَابيبَ كَالدمَى وَقِبَابِ

ومن الملاحظ أن عبيداً كان يدقق في الموصوف النظر حتى أنه ليصور أدق حركاته وسكناته من مثل تصويره للوحة الصيد في معلقته وذلك برصد حركات كل من العقاب والثعلب ويعتمد في ذلك على حواسه دون اتباع نظام خاص في التصوير، وعلى أية حال فإن الشاعر لم يكن ليبتعد في تصويره عن واقعه، وبيئته، غير أننا نجده هنا يستخدم بعض الكلمات الغريبة في إكمال عناصر الصورة مثل كلمة "هصاص" و"بواص" في لوحة المطر والبرق والسحاب، ويغلب على ظننا أن هذه الكلمات لم تكن غريبة أيام عبيد، وإنما لم تعد مستعملة في عصر التدوين لاسيما وأن شاعرنا يعد من أوائل الشعراء الجاهليين.

وقد كانت صورة الناقة عند عبيد من الصور العريضة التي ضمنها الشاعر أكثر من بعد نفسي، وكان له فيها متسع من المجال لإظهار فنيته بالتصوير من حيث استخدام اللغة وتوظيفها في التعبير عما كان يحسه من مشاعر، أو مايعانيه من ألوان الصراعات في تلك البيئة القاسية، وكان مجيداً في كل ذلك، فقد رسم لنا صورة حياة العربي الجاهلي، وعكس لنا كثيراًمن مواقفه من خلال صورة الناقة وقد بدا لنا ذلك بوضوح

---

[10] ـ انظر ديوان عبيد ص٥٥.

[11] ـ انظر المرجع السابق ص٣٥.

[12] ـ انظر المرجع السابق ص٢٤.

في دراستنا لأبرز صور البيئة في شعره[13].

ولذلك فإننا سنكتفي هنا بإيراد مثال واحد جمع فيه الشاعر كثيراً من ملامح وقسمات لوحة الناقة، وسنشير إلى مجموع صوره لها يقول عبيد "من البسيط[14]":

والعِيْسُ مُدْبِرَةٌ تَهْوي بأَرْكُبِهَا	كَأَنّهُن نَعَأمٌ نُفّرٌ مُعُطُ
قَدْ نَكّبَت مَاءَ جَزْعٍ عَنْ شَمَائِلَهَا	في سَبْسَبٍ مُقْفِرٍ حُمْرٌ بهِ اللّعَطُ
تَرَى لَهُن عَزِيْفَاً فِي مُوَاثَبَةٍ	إذا هُمُلَبسُوا اللامَاتِ وافْتَرَطُوا
وتُصْبِحُ الحُقْبُ حَسْرَى في مَنَاهِلِهَا	والكُدْرُ قَدْ قَصُرَتْ عن ورْدِهَا الوُقُطُ

إن صورة الناقة عند عبيد صورة مشرقة وضاءة فهاهي تهوي بمن عليها وكأنها النعام المذعور وهو في أشد حالاته سرعة، ونشاطاً وقد خلفت تلك الإبل ماء جزع عن شمالها في ذلك السبسب المقفر الذي لاأنيس فيه ولاماء وهي في هويها تسمع وترى لها صوتاً شديدا يخترق الأذن لاسيما أثناء تلك المواثبة والمسابقة حيث يتدرع الدارعون بدروعهم وهي من السرعة على درجة عالية، وحظ وافر بحيث أنها أجهدت الحمر الوحشية المشهورة بسرعتها عند العرب التي كانت تقصد مورد الماء، ونرى الشاعر قد أبرز لنا صورة الناقة في غاية السرعة والنشاط، فهو في البيت الأول يشبهها بالنعام الشهير بالسرعة الفائقة، ولايكتفي بذلك وإنما يجعل هذا النعام في أشد حالاته سرعة، وخفة، ثم يدلل على سرعة ناقته بالفعل يهوي وكأنه يريد القول أن هذه الناقة أشبه بشيء ثقيل يهوي من مكان عال إلى أسفل وفي البيت الثاني يصور لنا تلك المفازة المقفرة التي شابها أكثر من لون ليدلل على جفافها المطلق، ويبسها الدائم، وليجعل من اجتيازها مفخرة لناقته تلك، ويعود في البيت الثالث إلى التأكيد على صفة السرعة فيقول بزهو أن تلك الإبل لاتحفل بصحراء أو بيداء، وأن لها من السرعة والحيوية مايؤهلها لأن تخلف قطيعاً من الحمر الوحشية السريعة وراءها متعبة لاهثة لاتستطيع الوصول إلى مورد الماء، وقد عبر عن هذا كله بكلمة حسرى وهي تحمل الكثير

---

[13] ـ راجع الفصل الثالث من الباب الثاني في هذا البحث.

[14] ـ انظر ديوان عبيد ص(٨٤). العيس الابل الارقب. ركاب الابل. المعط: جمع معطاء و هي القليلة الشعر أو التي لا شعر لها نكبت: صرفت. السبسب: الارض القفر البعيدة التي لا ماء فيها و لا انيس. اللعط: جمع لعطه وهي بقع في السبسب يخالف لونها لونه. العزيف و هو الصوت الشديد اللأمات: الدروع افترطوا تسابقوا. الحقب الحمر الوحشية. حسرى: متعبة كليلة مما هاجها من سير الابل. الكدر: ضرب، من القطا. الوقط: جمع وقيط و هو كل مثخن ضربا أو حزنا وصف القطا بذلك لاضطرارها الى البعد عن المياه اليوم كله بسبب الابل.

من الدلالات فقد استعار لها هذه الصفة من الإنسان، كما أن أسـراب القطـا قـد أفسـحت الطريق لهذه الإبل إلى المـاء والمعـروف أن القطـا يشـتهر بإلحاحـه الشـديد علـى ورود المـاء، وهكذا لون عبيد صورته ورسم خطوطها معتمداً على حواسه ومشاهداته اليوميـة مما كـان يبصـره في بيئتـه، وقـد استعمل الشـاعر عنصـر الحركـة واللـون في إبـراز وتوضيـح ملامـح الصورة، ونفذ إلى دقائق الأشياء وجعلنا نشعر حقابسرعة هذه الناقـة الفائقـة، وقـد جـاءت صوره البيانية مبثوثة بلا أدنى حظ من الصنعة أو التكلف فتشبيه الناقة بالنعام شـيء مـألوف عند الجاهليين إلا أن عبيداً يختار لهذا النعام وضعايكون فيه أشـد سـرعة ويقظـة، وقـد كنـى الشاعر عن يبس الأرض وجفافها المطلق بصورة جزئية، أو قل منظرافرعياً مألوفاً لمن يعيـش في الصحراء، كما جاءت الكناية في البيت الأخـير عـن حالـة التعـب والإعيـاء الـتي كـانت عليها الحمر الوحشية، وحالة القطا المضطر لترك مورد الماء، فلقد استطاع الشـاعر أن يجعـل من الصورة الجزئية عاملاً مساعداً علـى إنجـاح الصـورة الكليـة، وبـرع في اسـتخدام اللغـة، وفجر فيها من قدرة على التعبير بكل اقتدار، ودقة، وإتقان.

ولئن شعرنا بشيء من المبالغة في التصوير فهو شعور مقبول طالما لم يخرج بالشـاعر عن حدود العقل والمنطق، وطالما كان في خدمة المعنى، ولم يقصد إليـه الشـاعر قصـداً. إن تصوير عبيد للناقة كان نابعاً من وحي البيئة الجاهلية، وقد جاء تصويره لها في أغلب قصائده الطوال[15] .

ومن الكنايات الجميلة في شعره عن الناقة قوله "من الطويل[16] :"

قَطَعْـتُ بصَهْبَـاء السّـرَاةِ شِـمِلَةٍ   تَـزل الـوَلا يَـا عَـنْ جَوَانِـبِ مَكْـرُوبِ

ومن التشبيهات الطريفة لها قوله[17]:

ثـم أُبْـرى نِحَاضَهَـا فَتَرَاهَـا   ضَـامِراً بَعْـدَ بُدْنِهَـا كـالهلال

ومن صور سرعتها الجميلة المبتكرة قوله[18] :

خَلُـوج برجليهـا كـأن فروجهـا   فَيـافِي سُـهُوبٍ حِيْـنَ تَحْتَـث فِـي الآل

لقد جعل عبيد الصحراء كلها مجتمعة فيما بين رجلي ويدي ناقته، وهي صورة مبتكرة لم

---

[15] ـ انظر ديوان عبيد ص١١٣، ١٠١، ٩٦، ٦٩، ٤٣، ٣٨، ١٦، ١١٦، ١١٠، ٨٤.

[16] ـ انظر المرجع السابق ص٢٧ الولايا: البراذع المكروب. ذو القيد المضيق لقد كنى الشاعر بهذه الصورة عن ضمر ناقته و رشاقتها.

[17] ـ انظر المرجع السابق ص١١٠.

[18] ـ انظر المرجع السابق ص١١٣.

يسبق إليها ممن وصلتنا إلينا أشعارهم من الجاهليين، فهي في الذروة من إصابة التشبيه وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على إعمال فكر الشاعر فيما يقوله، ويختاره من صور بيانية ليشكل به خطوط معانيه الواضحة، أما التشبيهات المألوفة فكثيرة عند عبيد كما أشرنا وهذا مثال على ذلك مما اشترك به الشعراء الجاهليون في وصف الناقة يقول عبيد[19]:

وَقَدْ أُسَلِّي هُمُومِي حِين تَحْضُرُنِي   بِجَسْرَةٍ كَعَلاةِ القَيْنِ شِمْلال

زَيَّافَةٍ بقُتُودِ الرحْل نَاجيَةٍ   تَفْري الهَجِيرَ بتَبْغِيل وَإرْقَال

مَقْذُوفَةٍ بلَكِيْكِ اللَّحْمِ عَنْ عُرُض   كَمُفْرَدٍ وَحِدٍ بالجَو ذَيَّال

أما وصفه للناقة في معلقته فهو لايخرج عما اعتاد الشعراء أن يصفوا به الناقة، فهو يعنى بتصوير سرعتها، وضخامتها، ومتانة خلقها، وصغر سنها، ويشبهها بالثور الوحشي التماساً لقوة التصوير، كما تطالعنا صورة الأطلال والظعائن عند الشاعر،وهي صورة حزينة في همومها وتتداخل فيها خيوط الكآبة مشكلة أغلب نسيجها وقد أفاض الشعراء الجاهليون كثيراً في هذه الصورة حتى غدت تقليداً موروثاً، وسنة متبعة عند أغلبهم، ويعد عبيد بن الأبرص واحداً من أوائل من أرسوا هذه السنة وقعدوا لها لمن جاء بعدهم، وصورة الطلل والظعائن عند شاعرنا لاترتبط ارتباطاً كلياً بالمرأة كما رأينا ذلك أثناء دراستنا لهذه الصورة عنده وإنما كانت تبتعد عنها في كثير من الأحيان لتتناول موضوعات أخرى أرادها الشاعر، إلا أن هذه الصورة تظل ملتزمة النظام المتعارف عليها عندالجاهليين بصفة عامة، وسوف نأخذ عدة صور من تلك التي صورت الظعائن والأطلال عند الشاعر متناولينها بالدرس والتحليل واقفين على ماحوته من أوجه الجمال، وكمال التشبيه والاستعارة منوهين عن مدلول هذه الصور ماوسعنا الجهد، يقول عبيد مصوراً ديار الأحبة، ومتجاوزاً ذلك إلى وصف الأثر الذي خلفته الطبيعة، وتركه الزمن على تلك الربوع، وذلك في صورةكلية لمشهد الطلل[20]:

لَيْسَ رَسْمٌ عَلى الدفِيْن ببَالي   فَلِوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَيْ أُثَال

---

[19] ـ انظر المرجع السابق ص١٠٢.

[20] ـ انظر ديوان عبيد ص١٠٥ ـ ١٠٦ الرسم ما بقى من آثار الديار. الدفين وادي قريب من مكه.الخلال: جمع خله و هى بطانو يغشى بها جفن السيف تنقش بالذهب وغيره شبه الديار بنقوش الخلل. الدمنة بقايا الديار أو هي مكان مبيت الابل. الاوارى: محبس الدواب. النؤى: هي الحفيرة حول الخيمة لمنع السيل. خاضبات: مخضرة السيقان من أكل الاعشاب في الربيع. يزجين: يسقن الخيط جماعة النعام. الرئال: جمع رأل و هو فرخ النعام.اللجين: الفضة شبه الظباء بأباريق الفضة لطول اعناقها و حسنها و بياضها.

فَـــالمَرْوَرَاةُ فالصّحيفَـــــةُ قَفْـــرٌ كُـــل وَادٍ وَرَوْضَـــــةٍ مِحْـــــلا ل

دَارُ حَـــيٍّ أَصَـــابَهُمْ سَـــالِفُ الـــد هـــ ر فَـــأَضْحَتْ دِيَـــارُهُمْ كَـــالْخِلا ل

مُقْفِـــرَاتٍ إلا رَمَـــــاداً غَبِيـــــاً وَبَقَايَـــا مِـــنْ دِمْنَـــةٍ الأَطْـــلا ل

وَأَوَارِي قَـــــدْ عَفَـــوْنَ وَنُؤْيَـــــاً وَرُسُـــوماً عُـــر يْـــنَ مُـــذْ أَحْـــوَال

بُـــد لَـــتْ مِنْهُـــمُ الـــد يـــارُ نَعَامَـــاً خَاضِبَـــاتٍ يُزْجِيْـــنَ خَيْـــطَ الـــر ئـــال

وَظِبَـــــاء كَـــــأَنَّهُن أَبَارِيْـــــــ ـــقُ لُجَيْـــن تَحْنُـــو علـــى الأَطْفَـــال

إن صورة الطلل صورة أصيلة نابعة من وجـدان الشـاعر، وهـو فيهـا شـاهد علـى الفناء والحياة في آن واحد، فعبيد يقف موقف المصور الذي يجرد نفسـه ولايقحمهـا في أتون ذلك الصراع المرير بين الطلل وعوامل الطبيعة، ففي البيت الأول يعدد لنا الأمكنة التي عرفها الشاعر ذات يوم آهلة ثم مالبثت أن استحالت إلى بقايا وتناثرت هنا وهناك وهي في ذلك التبعثر شبه بالنقوش البالية على غمـد سيف هنـد وانـي ويتـابع الصـورة ليبين لنا ماحل بتلك الديـار الخربـة، وليسـتكمل عناصرهـا الدالـة علـى الفنـاء والعفـاء فالربع مقفر إلا من بقايا رماد، وينظر إلى محبس الإبل فيراه هو الآخر قد تهدم وسـفت عليه الرمال منذ أحوال لانعلم عددها، ويجيل نظره فيه فتقع عيناه على جماعـات النعام الراكعة بين الأعشاب الخضراء مع صغارها وبجانبهـا قطعـان الغـزلان الطويلـة الأعنـاق تقضم العشب هي الأخرى وتداعب صغارهـا فقـد تكـاثرت وتزاوجـت، وهـذا دليـل الخصب والنماء وانبعاث الحياة من جديد.

إن عبيداً قد رسم لنا صورة الطلل واضحة المعالم والقسمات، وقد صور لنا الفناء المطبق على تلك الديار بكل قسوة وعنف وكان بارعـاً في تصويـره هـذا ففـي البيتـين الأول والثـاني أكثر من ذكر الأمكنة إمعاناً في واقعية الصورة، وقد عبر بكلمتي رسم وقفر عن وحشـة تلـك الديار في الزمن الحاضر ثم قابل هاتين اللفظتين وبين كلمتي روضة ومحلال للتدليل علـى حـال الديار في الزمن الماضي، وقد كان موفقاً في ذلك إلى حد بعيد، ويعود في البيتين الثالث والرابع إلى مابدأ به من تصوير حالـة الديـار مستعيناًهذه المرة بالتشبيه، والاستعارة لزيـادة التوضيـح فالدهر قد فتك بأهل تلك الديار وحولها إلى مايشبه النقوش البالة علـى غمـد سيـف فجـاءت الصورتان تعبيراً عن قسوة الفعل وضراوة الفتك.

وقد استقى الشاعر تشبيهه من الواقع المعاش والبيئة المحيطة، لقد تفحص عبيد كـل مافي الديار من بقايا، ودمن ورسوم، ونـؤى، وأواري، حتـى أنـه تلمـس ذلـك الرمـاد المختلط بالرمال فوصفه بالغباء وهي استعارة فيها شيء من الغرابة فقلما وصف الرمـاد

بهذه الصورة إلا أننا نراها استعارة جميلة من الشاعر أما البيتين السادس والسابع فقد جاءت الصور فيهما مشرقة ترمز إلى تجدد الحياة في تلك الديار وتعكس أمل الشاعر بالخصب والنماء، وقد التقط الشاعر الصورة من عالم الحيوان فالنعام يرعى ويمرح مع صغاره وهو مخضر السيقان وهذه كناية لطيفة من الشاعر عن خصب هذه الربوع، وكذلك الظباء فقد وجدت إلى جانب النعام متسعاً فسيحاً للرزق فتزاوجت هي الأخرى وتكاثرت وقد صورها الشاعر بكل دقة وهي تشرئب بأعناقها الشبيهة بأباريق الفضة وكأنه يعزي نفسه بهذه الصورة الطافحة بالحياة، ويفرج عن أساه لفقد أحبته، ونحن نلمح ذلك الخيط من الحزن الرفيق، والأسى الدفين في صورة عبيد منذ البيت الأول ليس رسم على الدفين ببال وكأنه يريد أن يقول ليته قد بلى وانتهى إذاً لاسترحت، وجاءت الصورة معبرة عن أثر الحزن في القلب والوجدان وذلك بدلاً من العويل والبكاء والدموع وهذه سمة من سمات الصورة عند عبيد فهو يستعيض عن البكاء برسم صورة للحزن تبكي الناظر، وتدمي قلب الشاعر وإن نظرة متأنية لديوانه لهي كاشفة لنا عن هذه الحقيقة الساطعة[٢١].

وتكاد صورة الطلل تكرر نفسها عند عبيد، فهو لايخرج بها عما اعتاده الشعراء الجاهليون من أطر لرسم هذه الصورة، وهي صورة من واقع حياة الشاعر الجاهلي بل من أقرب وأكثر الصور اتحاداً بنفسه، ومشاعره فهو راحل مقيم على الدوام، وكانت خطوط اللوحة الطللية بما فيها من استعارات وكنايات وتشبيهات منسوجة ضمن إطار النسيج المألوف لهذه الصورة عند غيره من الشعراء الجاهليين فالطلل كالكتاب المجدد،والديار كالخلال أو كسحيق اليمنة البالي، وهي خلاء أو هي كالصحيفة البالية المهترئة أما الاستعارات في لوحة الطلل عند شاعرنا فقد جاءت بسيطة وواضحة وهي تنساب دون قصد من الشاعر وليس معنى هذا أن الشاعر لم يكن ليعمل فكره فيما يقول فلم يقل بذلك أحد ومن الاستعارات الجميلة في لوحة الطلل قوله من السريع[٢٢]:

أَمِنْ رُسُومٍ نُؤْيُهَا نَاحِلُ ... وَمِنْ دِيَارٍ دَمْعُكَ الهَامِلُ

قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ بِهِ ذَيْلَهَا ... عاماً وَجَوْنٌ مُسْبَلٌ هَاطِلُ

بَلْ مَا بُكَاءُ الشَّيْخِ فِي دِمْنَةٍ ... وَقَدْ عَلاهُ الوَضَحُ الشَّامِلُ

فالرسوم ناحلة، والريح تجر ذيولها تيهاً بما فعلته في الديار وكأنها تظهر اقتدارها،

---

[٢١] ـ انظر ديوان عبيد ص٢١، [illegible]، ٦٧، ٧٩، ٨٤، ١١٥، ٥٢، ٣٢.

[٢٢] ـ انظر المرجع السابق ص٩٧ ـ ٩٨.

وتبتهج بانتصارها، وأما الكناية فتأتي عند شاعرنا في المرتبة الأخيرة من الصور البيانية في ديوانه، ولكنها موجودة على كل حال وسنعرض لها في حينها، وهذه صورة الطلل عند عبيد رسمها لنا بوسائل سهلة بسيطة تصويراً ولفظاً، وقد حملت من المضامين التي عبر من خلالها الشاعر عما كان يحسه ويعيشه، وأحياناً عما كان يعمله، وتبقى صورة الطلل المرآة الصافية العاكسة للواقع الذي كان يعيشه الشاعر الجاهلي، وإذا ما استظهرنا صورة الظعائن عند عبيد، وهي صورة أفاض فيها الشعراء الجاهليون من معينهم الصافي، ولونوها بألوان مزركشة تناسب ماتحمله من غيد حسان، فإننا نجد هذه الصورة متشحة بلون واحد تقريباً، وقد جاءت في خمس لقطات متشابهة في الديوان، وسنكتفي بتحليل لوحة منها مع الإشارة إلى الأربع الباقيات ذلك أن الشاعر يدور فيهن في فلك واحد وهو يصور الظعائن والمحبوبات. يقول مصوراً الظعائن[٢٣]:

لِمَنْ جمَالٌ قُبَيْلَ الصّبْح مَزْمُومَةْ ... مُيَمّمَاتٍ بِلاداً غَيْرَ مَعْلُومَةْ

عَالَيْنَ رَقْمَاً وَأَنْمَاطَاً مُظَاهَرَةً ... وَكِلّةً بعتيقِ العَقْلِ مَقْرُومَةْ

ما العَبْقَرِي عَلَيْهَا إذْ غَدَوْا صَبَحٌ ... كأَنّهَا مِنْ نَجيْعِ الجَوْفِ مَدْمُومَةْ

كَأَنّ أَظْعَانَهُن نَخْلٌ مُوَسّقَةٌ ... سُودٌ ذَوَائِبُهَا بالحِمْلِ مَكْمُومَةْ

فِيهِن هِنْدٌ وَقَدْ هَامَ الفُؤادُ بِهَا ... بَيْضَاءُ آنِسَةٌ بالحُسْنِ مَوْسُومَةْ

فَإنّهَا كَمَهَاةِ الجَو نَاعِمَةٌ ... تُدْنِي النّصيفَ بِكَفٍ غَيْرِ مَوْشُومَةْ

كَأَنّ رِيْقَتَهَا بَعْدَ الكَرَى اغْتَبَقَتْ ... صَهْبَاءَ صافِيَةً بالمِسْكِ مَخْتُومَةْ

فعبيد يتساءل تساؤل العارف المنكر لمن هذه الجمال التي شدت عليها الهوادج، وأخذت إهبتها للرحيل إلى جهة مجهولة، ويصف لنا تلك الهوادج وقد جللت بكل برد مخطط موشى، وبكل ثوب مزركش، وهي في عمومها تميل إلى اللون الأحمر وكأنها قد

---

[٢٣] ـ انظر ديوان عبيد ص١٢٧ ـ ١٢٨ مزمومة: عليها الأزمة جمع زمام. عالين: رفعن. الرقم: البردو أو ضرب مخطط من الوشى يجعلونه على الهودج. الانماط: و هي ضرب من الثياب الصوفية. المظاهرة بين الثوبين المطابقة بينهما. الكلة: الستر الرقيق. العتيق ها هنا الجيد. العقل:ثوب أحمر يجلل به الهودج. مقرومة: منقوشة. العبقري:كل كريم عند العرب فهو عبقري. الصبح: البياض في حمرة. النجيع الدم الطري. مدمومة: مغطاة بالدم. الاظعان: الجمال عليها النساء. موسقة: محملة بالثمار. ذوائبها: اطرافها. سود: أي خضر الاطراف من الرى. مكمومة: مغطاة. موسومة أي معلمة بالجمال. كمهات الجود: المكورة من النساء المستديرة الساقين. النصيف: الخمار تدنيه لتستر به جمالها للعفة. بكف غير موشومة: لانه لا يشم الكف عند العرب غير البغايا.

غمست بالدم، ثم يصف لنا تلك الإبل ويصورها لنا في منظر طريف فهي كشجرات النخيل الخضراء الأطراف والمحملة بالثمار. ولعل هم الشاعر من ذكر مشهد الظعائن هو أن يذكر لنا هنداً محبوبته تلك الآنسة البيضاء المعلومة الجمال، وتتحدث صورة الظعن عن اللحظات الأخيرة التي يرى فيها الشاعر أحبته قبل غيابهم عن ناظريه وهي بالطبع صورة للحظات دقيقة يصف الشاعر فيها مشهد الوداع والرحيل ومايستتبع ذلك من قسوة، وعنف، وثقل وطأة على نفسية الشاعر، وكان طبيعياً إذاً أن ينتهي الشاعر إلى وصف وتصوير الأودية والأمكنة التي مر بها الركب وقد بدأ الشاعر القصيدة بتصوير مشهد الظعائن في صورة كلية ففي البيت الأول يتساءل وهو يعلم الجواب قبل غيره ولمن تكون هذه الظعائن، وربما علم محطها وموئلها الجديد، وفي البيت الثاني ينتقل الشاعر إلى تصوير الهوادج ويضفي عليها من الألوان والخطوط ما يوحي بأن أهلها أهل نعمة وجاه وكرامة، ويغلب اللون الأحمر على صورة الهوادج، فهي كدم الجوف وهو أشد حمرة من باقي الدم في الأطراف، ويشبه الظعائن تلك بشجر النخل الأخضر المثقل بالثمار وهو تشبيه بدوي صرف من واقع البيئة النجدية التي عاش فيها الشاعر، ثم يصرح باسم حبيبته فهي هند الحسناء الجميلة البيضاء العذبة الحديث التي تشبه بقرة وحشية في نعومتها واستدارة أوراكها، ويركز على صفة الاحتشام والعفاف عندها وذلك في كناية لطيفة تحمل لنا عادة اجتماعية جاهلية وهي وشي كفي البغى لتمييزها عن المرأة الحرة وأما في البيت الأخير فيشبه الشاعر ريق هند بالخمرة الصافية المعتقة. وقد أشار عبيد في أكثر من قصيدة لمشهد الظعائن هذا فمن شاء فليرجع إلى ديوانه[٢٤].

وقد تناول الدكتور شكري فيصل تحليل بعض مشاهد الظعن عند عبيد في كتابه "تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام"[٢٥].

والملاحظ أن الشاعر في تصوير مشاهد الظعن يجنح إلى الحسية في الصفات ويلون الصورة بأكثر من لون، وقد يغلب اللون الأحمر على غيره، وغالباًمايخلع الشاعر على الصورة "هنا" آثار النعمة من مثل قوله[٢٦]:

لِمَنْ جِمَالٌ قُبَيْلَ الصُّبْحِ مَزْمُومَهْ	مُيَمِّمَاتٍ بِلاداً غَيْرَ مَعْلُومَهْ
عَالَيْنَ رَقْماً وأَنْمَاطاً مُظَاهَرَةً	وَكِلَّةً بِعَتِيقِ العَقْلِ مَقْرُومَهْ

[٢٤] ـ انظر ديوان عبيد ص٣٢، ١٣٢، ٧٩، ٨٤.

[٢٥] ـ انظر تطور الغزل بين الجاهلية و الاسلام للدكتور شكرى فيصل ص٨٤ ـ ٧٨.

[٢٦] ـ انظر ديوان عبيد ص١٢٧ ـ ١٢٨.

مـا العَبْقَـرِي عَلَيْهَــا إذْ عَــدَوْ صَبَــحٌ   كَأَنّهـا مِــنْ نَجيْعِ الجَــوْفِ مَدْمُومَــةْ

ومن الصفات الحسية في لوحة الطلل "من الطويل[27]":

تَبَصّرْ خَلِيْلِي هَـلْ تَـرَى مِـنْ ظَعَـائِنِ   سَــلَكْنَ غُمْــرَاً دُونَهُــن غُمُــوضُ

وَفَـوْقَ الجِمَـال النّاعِجَـاتِ كَوَاعِــبٌ   مَخَـامِيصُ أَبْكَـارٌ أَوانِــسُ بِيْــضُ

لقد جاءت الصور البيانية عند عبيد في صورة الظعائن ملائمة للمعاني التي أراد الشاعر التعبير عنها ومناسبة للمقام إذ ساقها الشاعر بكل عفوية وهي تلبس في عمومها ثوباً حزيناً وترتدي حلة من الكآبة والتشاؤمية، وقد أكثر الشاعر من اتكائه على صيغة الاستفهام الحائر شأن معظم الشعراء الجاهليين بالإضافة إلى استخدام أسلوب النفي والنداء من مثل قوله[28]:

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَـى الـد فِيْـن ببَـال   فَلِــوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَــيْ أُثَــال

وقوله[29]:

يَــادَارَ هِنْــدٍ عَفَاهَــا كُــل هَطــال   بـالجَو مِثْــلَ سَـحِيْق اليَمْنَـةِ البَـالِي

ونجد عبيداًيلح على استعمال الفعل أقفر في أكثر من موضع[30] مما جعلنا نرجح أن الشاعر قد قصد هذا الفعل بالذات لدلالاته النفسية العميقة بما يتضمن من معاني القحط، والمحل، والجدب، والغربة، والمعاناة.

إن صورة الهوادج وهي سائرة بالأحبة لشبيهة بصورة السفينة وهي تتمايل بين يدي الأمواج عند شاعرنا إذ يقول "من الوافر[31] ":

تَبَيّــنْ صَــاحِبِي أَتَــرى حُمُــولاً   يُشْــبهُ سَــيْرُهَا عَــوْمَ السّــفِيْن

ويقول في موضع آخر[32] :

تَبَصّرْ خَلِيْلي هَـلْ تَـرَى مِـنْ ظَعَـائِنِ   يَمَانِيّــةٍ قَــدْ تَغْتَــدِي وَتَــرُوحُ

---

[27] ـ انظر المرجع السابق ص٧٩ ـ٨٠.
[28] ـ انظر االمرجع السابق ص١٠٥.
[29] ـ انظر المرجع السابق ص١٠١.
[30] ـ انظر المرجع السابق ص١٠،٣٩،٩٥.
[31] ـ انظر المرجع السابق ص١٣٢.
[32] ـ انظر ديوان عبيد ص٣٢.

كَعَـوْم سَـفِيْن فِـــي غَـوَارِبِ لُجَّـــةٍ تُكَفؤُهَــا فِـــي وَسْــطِ دَجْلَــةَ رِيْــحُ
جَوَانِبُهَــا تَغْشَــى الْمَتَــالِفَ أَشْــرَفَتْ عَلَيْهِــن صُهْــبٌ مِــنْ يَهُــودَ جُنُــوحُ

ويستدل من الصورة السابقة على أن عبيداً قد تنقل أو زار منطقة الخليج العربي وسواد العراق، وعرف شيئاً عن الملاحة، والسفن، وحياة البحر كما نستدل من الصورة على أن هذه المهنة كانت مقتصرة على غير العرب من يهود ونصارى وغيرهم وذلك لاحتقار العرب لمثل هذه الصنائع والحرف وإن كان هذا لايمنع من وجود عدد قليل من العرب قد مارسوا هذه المهنة في حدود ضيقة، ومن صور عبيد في مشهد الظعائن قوله "من البسيط[٣٣] :"

بَانَ الخَلِيْـطُ الأُلَـى شَـاقُوكَ إذْ شَـحَطُوا وَفِي الحُــدُوجِ مَهــاً أَعْنَاقُهــا عُيُــطُ
نَـاطُوا الـرعـاثَ لِمَهْـوىً لَـوْ يَـزل بــهِ لانْــدَق دُونَ تَلاقِــي اللَّبَــةِ القُــرُطُ

فالنساء في الهوادج كالمهى الطوال الأعناق، وقد استخدم الشاعر أسلوب الكناية في البيت الثاني بإيجاز جميل وواف بالغرض فما بين مواضع القرط في الأذن والصدر مهوى سحيق البعد فلو سقط ذلك القرط لانفرط وتبعثرت حباته قبل الوصول إلى الصدر، وهي صورة لاتخلو من مبالغة إلا أنها مبالغة مقبولة ومستساغة وجميلة في مكانها هذا.

ومن خلال المشهد فقد لاحظنا استخدام عبيد للأفعال التي تدل على الحركة مما يناسب الارتحال والظعن كالفعل سلك وتغتدي، وتروح كعوم سفين ميممات مزموم وقد كانت تصب في حوض واحد من الدلالة وهو الارتحال وقد أسهمت جميعها في تلوين الصورة عند الشاعر وتشكيلها بما أراد لها من خطوط، وقد غلب التفصيل في جزئيات الموصوف في الصورة على الإيجاز، ولعل سبب ذلك أن الصورة هنا وليدة العاطفة في كل جوانبها ويقول الدكتور شكري فيصل حول هذه النقطة: "وفرق مابينها وبين الوقوف على الأطلال في ذلك فرق بين ذلك أنها لاتتصل بمخلفات هؤلاء الناس في ديارهم التي غادروها، وآثارهم التي تركو بنؤيهم وأسافيهم، وإنما تتصل بهؤلاءالناس ذاتهم بأنفسهم بخفق قلوبهم والتياع عواطفهم بقدرهم الذي يجري بغير مايهوون ثم لايملكون لذلك دفعاً[٣٤]".

وتبقى الصورة تقليدية في بعض جوانبها كالبدء في السؤال مثلاً حيث نرى أن

---

[٣٣] ـ انظر المرجع السابق ص٨٣.
[٣٤] ـ انظر تطور الغزل للدكتور شكري فيصل ص١٢٥.

أغلب الشعراء يبدؤون بما بدأ به عبيد، تبصر خليلي، أو لمن جمال، أو تبين صاحبي أو غير ذلك من الصيغ الدالة على الاستفهام.

وقد لاحظنا أن الشاعر كان يأتي على الأوصاف باضطراد وتراكم بعضها فوق بعض حيث يقول في وصف هند بيضاء آنسة بالحسن موسومة ويقول[٣٥] :

وَفَوْقَ الجِمَال النَاعِجَاتِ كَوَاعِبٌ مَخَامِيصُ أَبْكَارٌ أَوَانِسُ بيْضُ.

وكأنما هذه الصفات قد جاء بها الشاعر ليثبت أركان الصورة وملامحها في الأذهان عن طريق هذه الاستمرارية بحشد الكلمات المترادفة، ويخلل حديث الشعراء عن الظعائن وتصويرها تصويرهم للمرأة ومحاسنها وهو إما تصوير مقصود لذاته من الشاعر وإما تصوير آت في معرض الحديث عن الظعائن كما مر معنا، وصورة المرأة من الصور التي وقف عندها الجاهليون كثيراً، ولم يتركوا شيئاً فيها إلا أشبعوه وصفا وتصويراً من جمال، وزينة، وأخلاق وإن نظرة إلى ماخلفوه لنا من شعر لتوضح مدى اهتمامهم بالمرأة، فقد احتلت مكاناً واسعاً من دوحة أشعارهم وعبيد واحد من هؤلاء الشعراء الذين وصفوا المرأة وصوروها بأشعارهم، ونستطيع أن نقسم صورة المرأة عنده إلى ضربين من التصوير كان الشاعر في الأول منهما يصور المرأة الحرة عموماً، وهنا يغلب على وصفه العفاف ونراه مقترباً من الاحتشام موجزاً العبارات، غير منساق وراء عاطفته وخياله كما هو الحال في قصيدته التي يحاور فيها زوجته وأما النوع الثاني فيظهر لنا شاعرنا ككل الشعراء الجاهليين غير المتعففين في التعبير عن عواطفهم تجاه المرأة كامرئ القيس، وقد رجحنا أن يكون غزل الأخير الفاضح نتيجة تأثره بعبيد.

فهو يصور المرأة للمتعة الجسدية، ويفيض بذكر محاسنها، ومفاتنها وقد يصرح باسمها في بعض الأحيان، وهو لايخرج في هذه الصورة عن سائر الشعراء الجاهليين في هذا المضمار، وسنورد أهم صورة للمرأة العشيقة أو الخليلة عند عبيد يقول مصورا إحدى مغامراته[٣٦]:

وَلَقَدْ أَدْخُلُ الخِبَاءَ عَلَى مَهْضُو مَةِ الكَشْحِ طَفْلَةٍ كَالغَزَال

فَتَعَاطَيْتُ جِيْدَهَا ثُم مَالَتْ مَيَلا نَ الكَثِيْبِ بَيْنَ الر مَال

ثُم قَالَتْ فِدَىً لِنَفْسِكَ نَفْسِي وَفِدَاءٌ لِمَال أَهْلِكَ مَالِي

---

[٣٥] ـ انظر ديوان عبيد ص٧٩.

[٣٦] ـ انظر ديوان عبيد ص١١٠.

ويقول في صورة أخرى[٣٧] :

وَقَـدْ تَبَطَّنْـتُ مِثْـلَ الرِيْـمِ آنِسَـةً ... رَوْدَ الشَّـبَابِ كَعَابـاً ذاتَ أَوْضَـاحِ

تُدْفِـي الضَّجيْـعَ إذَا يَشْـتُو وَتُخْصِـرُهُ ... فِـي الصيْـفِ حِيـنَ يَطِيْـبُ الـبَرْدُ للصـاحِ

ويقول في مغامرة ثالثة[٣٨] :

وَغَيْلَـةٍ كَمَهَـاةِ الجَـوِّ نَاعِمَـةٍ ... كَـأَن رِيْقَتَهَـا شِـيبَتْ بِسَلْسَـالِ

قَـدْ بِـتُّ أُلْعِبُهَـا طَـوْراً وَتُلْعِبُنِـي ... ثُـم انْصَرَفَـتْ وَهِـيَ مِنِّـي عَلَـى بَـالِ

إن صورة المرأة عند الشاعر فيما مر من الأمثلة لهي صورة جزئية جريئة وفاضحة وهي تنصب على تصوير الأعضاء الجسدية بكل وضوح ودون أي اقتصاد من الشاعر في الحديث،وكأنما هو يتعمد التفصيل وقد اعتمد في رسم صوره على التشبيه بالدرجة الأولى فالمعشوقة دقيقة الخصر ناعمة الجسم كالغزال، وهي تتثنى بين يدي الشاعر وتتقلب كما تقلب الريح كثيباًبين الرمال، وقد ركز الشاعر اهتمامه على زاوية معينة من جمال المرأة وأبرزها لنا في هذه الصورة وهي جمال المظهر الخارجي وضمور الخصر ودقته، بينما نجده يرجز في الصورة الثانية على فتوة تلك المعشوقة وبروز ثدييها ولبسها الحلي، ونراه يشير إلى حسن معاشرتها مع العشيق، وهي لاتعدو الصورة الأولى فتشبيه الشاعر لها بالريم شيء مألوف عند الجاهليين بعامة بينما نجد الصورة الثالثة للمرأة المعشوقة عند عبيد يتركز الاهتمام فيها على وصف ريق المحبوبة فقد شبهه الشاعر بالخمر العذبة وقد بدأ الصورة بكناية جميلة عن جسامة المرأة فهي تغتال الثياب اغتيالاً.

وقد جاءت تشبيهات عبيد موجزة غير مطولة، وهذه سمة من سمات التشبيه والصورة عنده بشكل عام فالإيجاز غالب على الصورة في معظم الأحيان كما أن الشاعر قد استخدم بشكل عفوي بعض ألوان البيان والبديع مما أكسب الصورة حركة، وبث فيها ثراءا وحيوية، وقد صور الشاعر جمال معشوقته فهي أكثر من صورة وهذا يدلل ويفصح عن ذوق للجمال عال عند عبيد، كما يكشف عن رهافة حس وشعور حادين لديه، وقد ساق لنا صوره ببساطة وحسية ودون أدنى التزام أو تقيد أو تكلف، وهو في كل هذا كان يستقي عناصر صوره من البيئة المحيطة فإذا مااستطلعنا صور المرأة الزوجة عنده وجدناها تقف على النقيض من صورة المعشوقة فالالتزام والتحرج، وعدم ذكر التفاصيل في تصوير

---

[٣٧] ـ انظر المرجع السابق ص١١١.

[٣٨] ـ انظر المرجع السابق ١١٥.

المفاتن والاهتمام ببعض النواحي المعنوية من حسنٍ حديث وغيره سمات تميز هذه الصورة عن سابقتها، ويبدو الشاعر من خلالها رجلاً متزن العواطف كابح جماحها غير منساق وراء خياله كما نلحظ علو صوت العقل في الصورة، لقد استطاع الشاعر أن ينفذ إلى أعماق المرأة ويصورها لنا في لقطة رائعة برزت فيها قدرة الشاعر على التلوين المعبر حقاً عن نفسية تلك المرأة وزاد عليها عنصر الحركة "يقول[39] :"

وَدَعــي مَــطَّ حَــاجبَيْكِ وَعِيْشِــي مَعَنَــا بــالر جَاءِوالتّأَمــال

إن الصورة هنا كما يخيل إلينا صور نابعة من صميم النفس البشرية إن صح التعبير ابتعدت فيها عدسة الشاعر عن البيان المعروف ونظنها قد جاءت في القمة من التعبير عن الموقف المراد تصويره.

وطبيعي أن يصف عبيد الصحراء ويصورها لنا وهو ابنها، وقد جاء وصفها عنده في صورتين صراحة، وثالثة أشار إليها إشارة عامة، ومن الجدير بالذكر أن وصف الصحراء عند شاعرنا يعد قليلاً نسبة إلى غيره من لاشعراء، ونظن أن أغلب شعره الذي وصف به الصحراء قد ضاع، وقد ارتبط وصف الصحراء وتصويرها بتصوير الناقة عنده فالصورتان متلازمتان فالصحراء بلا ناقة تعني الموت والهلاك والردى، يقول عبيد[40]:

هــذَا وَدَوِيّــةٌ يَعْيَــا الهُــدَاةُ بهَــا نــاء مسَــافَتُها كــالبُرْدِ دَيْمُومَــةْ

جَــاوَزْتُ مَهْمَــةً يَهْمَاهَــا بعَيْهَمَــةٍ عَيْرَانَــةٍ كعَــلاةِ القَيْــن مَعْقُومَــةْ

أَرْمــي بهــا عــرض الــد وي ضَــامِزَةً في ســاعةٍ تَبْعَــثُ الحِرْبــاءَ مَسْــمُومَةْ

فالصحراء واسعة شاسعة مترامية الأطراف لايهتدى إلى أطرافها، وهي كالبرد من آثار الرياح المتلاعبة فيها، وهذه المفازة المهلكة البعيدة الأطراف اجتازها الشاعر بناقة صلبة ضخمة شبيهة بسندان الحداد، وإن مما زاد في قوتها ونشاطها أنها ناقة عقيم لم ينل منها ألم الولادة، ولم يهد قوتها تربية فصيل، وقد رمى الشاعر تلك المفازة بهذه الناقة فهي دواؤها الناجع وكان ذلك في أشد ساعات الهجير حرارة، ووقت هبوب رياح السموم الحارة اللافحة.

صورة مخيفة ولاشك صورها عبيد للصحراء وقد استعان بهذه الصورة بصوت،

---

[39] ـ انظر ديوان عبيد ص١٠٧.

[40] ـ انظر ديوان عبيد ابن الابرص ص١٢٩ الدوية: الفلاة الواسعة. الديمومة: الفلاة الواسعة وجعلها كالبرد لاثر الرياح بها. المهمه: المفاذة البعيدة: اليهماء: الفلاة التي لا ماء فيها ولا طريق. العيهمة: الناقة الضخمة. العيرانة: الصلبة. العلاة: السندان. القين: الحداد. المعقومة: أي عقيم لا تلد. الدوى: الفلاة الواسعة سميت بذلك لدوى الصوت الذي يسمع فيها. ضامرة: لا رغاء لها. مسمومة: من ريح السموم الحارة.

والحركة والتشبيه وعالم الحيوان ليوضح الصورة، وليرسم خطوطها بدقة وإتقان فهي كالبرج من آثار الرياح المتقلبة عليها، وهي تحير الهداة الخبراء بالطرق والمسالك فما بالك بالإنسان العادي؟ وهي مهمة يهماها جناس تام جاء على غاية من الروعة وحسن التعبير، وألحقها الشاعر بصفة ثالثة وهي عيهمة فحرف الهاء هنا يسهم إلى حد بعيد في تعظيم وتجسيد، وتشخيص صورة الصحراء وصورة الناقة أيضاً ولاشك أن تشبيه الناقة بعلاة القين تشبيه قوي ومدلل غير أن مايجعله أكثر قوة ودلالة تلك الصفة التي أوردها الشاعر في نهاية البيت والتي أخبرنا بها أن ناقته عقيم احتفظت بكامل قوتها ونشاطها، ولعل مما يجعل صورة الصحراء أكثر رهبة وأشد رعباً عند عبيد أنه يقطعها في أقسى الأوقات وأكثرها حرارة بدليل أن الحرباء وهي مشهورة بتحملها للحرارة الشديدة قد فرت وهربت مولية من شدة الحرارة.

ولايغيب علينا تخوف الشاعر من تلك المفازة، وماتهويله ومبالغته في وصفها إلا دليلاًعلى وجيب قلبه منها، ولعل الصورة الثانية تبين لنا خوف الشاعر، وقلقه من هذه الصحراء إذ يقول "من الطويل[٤١] ":

وَخِرْقٍ تَصيحُ الهَامُ فيهِ مَعَ الصدَى مَخُوفٍ إذَا ماجَنّهُ اللّيْلُ مَرْهُوبِ

قَطَعْتُ بصَهْبَاء السَرَاةِ شِمِلةٍ تَزِلّ الوَلايا عَنْ جَوَانِبِ مَكْرُوبِ

إن صورة الصحراء عند عبيد كما نراها صورة مخيفة مرعبة فما يستطيع اجتيازها إلا النوق العتاق وعليها الأبطال الغطاريف فهؤلاء هم القادرون على اقتحام أهوالها، وقد رسمها الشاعر رسماً، وصور أهواءها تصويراصادقا فهي دوية يعيا الهداة بها، وهي نائية المسافات لاماء فيها ولاطريق واضحة تتلاعب بها الرياح فلاتسمع بها صوتاً.

لقد استعان الشاعر في تصويره للصحراء بالتشبيه كأداة رئيسة، وسخر اللغة لخدمة المعنى على خير وجه وحشد ألوان البيان والبديع من تشبيه وجناس لتوضيح عناصر القوة المستقاة من البيئة الجاهلية توأم الصحراء، أو قل ابنتها إن صح التعبير ومن الصور الفنية عند عبيد تصويره للفرس في عدة صور وأوضاع تعكس أهميته، وقوته، وسرعته، ذلك الحيوان الأليف رفيق الجاهلي المخلص في السلم والحرب، وقد مرت بنا دراسته ودلالته النفسية عند الإنسان الجاهلي وذلك من خلال شعر شاعرنا، وسنورد الآن أهم صور الفرس من الناحية الفنية عند هذا الشاعر برأينا يقول عبيد في معرض الحديث عن الفرس[٤٢]:

---

[٤١] ـ انظر ديوان عبيد ص٢٧،٣٩ فانه يصف الصحراء في بيت واحد و انظر ص١١ حيث يصف الصحراء بالارض المهلكة.

[٤٢] ـ انظر ديوان عبيد ص٢٣.

وَإِذَا الخَيْـلُ شَمَّرَتْ عَـنْ سَـنَا الحَـرْ بِ وَصَـارَ الغُبَـارُ فَـوْقَ الـذُّ وَّابِ
واسْـتَجَارَتْ بنـا الخُيُـولُ عِجَـالاً مُثْقَلَـاتِ المُتُـون والأَصْـلا بِ
مُصْغِيَـاتِ الخُـدُودِ شَـعْثِ النوَاصـي في شَـمَاميطِ غـارةٍ أَسْـرَابِ
مُسْـرعَاتٍ كَـأَنَّهُن ضِـرَاءٌ سَـمِعَتْ صَـوْتَ هـاتِفٍ كَـلابِ
لاحِقَـاتِ البُطُـون يَصْهَلْـنَ فَخْـراً قَـدْ حَوَيْـنَ النِّهَـابَ بَعْـدَ النهـابِ

لقد صور الفرس بصور شتى، واستخدم في تصويره أساليب كثيرة منها الاستعارة المكنية فقد شخصها، وصورها في صور إنسانية فهي تشمر عن سنا الحرب، وتستجير، وهي ترهف السمع لراكبها لتطيعه في إشاراته وهي في سرعتها كأنها الكلاب الضارية المجوعة وهي تنطلق نحو الفريسة حين يحثها صاحبها، وهي ضامرة لاحقة البطن تجمع النهاب والغنائم وكأنما هي قد اعتادت هذه العادة، ونحن نجد الصورة نابضة بالحركة وطافحة بعنصر السرعة بعد أن هيأ لها الشاعر كل أسبابها، وقد استقى عناصر صورته من البيئة الجاهلية، والحياة اليومية فجاءت مصبوغة بألوان زاهية وبخطوط معروفة، وعبيد في هذه الصورة لايبتعد كثيراً عن تصوير غيره من الجاهليين للفرس وما اعتادو وصف الفرس به من سرعة، وخلق، وضمور بطن، أما الصورة الثانية للفرس فقد وردت في معلقته حيث يقول مشبهاً فرسه بالعقاب[43]:

فَـذَاكَ عَصْـرٌ وَقَـدْ أُرانِـي تَحْمِلُنِـي نَهْـدَةٌ سُـرْحُوبُ
مُضَـبَّرٌ خَلْقُهَـا تَضْبِـيرا يَنْشَـق عَـنْ وَجْهِهَـا السَـبِيبُ
زَيْتِيَّـةٌ نَـاعِمٌ عُرُوقُهَـا وَلَيِّـنٌ أَسْـرُهَا رَحيـبُ
كَأَنَّهـا لِقْـوَة طَلُّـوبُ تُخْـزَنُ في وَكْرِهَـا القُلُـوبُ
بَـاتَتْ عَلَـى إرَمٍ رابئَـةً كَأَنَهَـا شَـيْخَةٌ رَقُـوبُ
فَـأَصْبَحَتْ فِـي غَـدَاةِ قَـرةٍ يَسْـقُطُ عَـنْ رِيشِـهَا الضَرِيـبُ

ففرس عبيد كما تبدو في الصورة فرس مشرقة ضخمة قوية سريعة موثق خلقها حادة

---

[43] ـ انظر ديوان عبيد ص١٧ ـ ١٩ نهدة:سرحوب: سريعة ماضية و قيل طويلة الظهر. زيتية: نسبة الى الزيت ويبدو انها ناعمة ملساء رحيب:أي غصنها: اللقوة: العقاب سميت بذلك لانها سريعة التلقي لما تطلب. تيبس: الطلوب: الملحة في الصيد. الارم: العلم و هو الجبل الصغير. رابئة: تأبى الاكل والشرب. الرقوب: التي لا يعيش لها ولد أي كأنها عجوز ثكلى. الضريب: ما سقط بالليل من الندى فتجمد.

البصر زيتية اللون عروقها ليست بناتئة، وهذا دليـل صحتهـا وسـلامتها وهـي سـهلة القيـاد وكأنها عقاب تطلب الصيد وعندها تيبس قلوب الطير وقد بـاتت على رأس هضبـة عاليـة عازفة عن الأكل والشـرب وكأنهـا عجـوز ثكلـى ترقـب غائبـاً، ولاشـك أن هـذا تصويـر طريف من الشاعر ثم نراه يستطرد في وصف العقاب، ويسهب في قصة صيد الثعلب حتـى أنه كاد أن ينسينا صورة الفرس، وهذه لاشك براعة في الصورة، وقوة في لحمتها ونسـيجها القصصي والذي نظنه أن عبيداً يعـد مـن المؤسسـين والمشـاركين الأوائـل في هـذا الضـرب القصصي الشعري إن صح التعبيروقد اختار الشاعر عناصر الصورة من عالم الطير والحيوان، وبدا عارفاً بطباع العقاب والثعلب وغيره من حيوانـات الصحـراء وهـذا شـيء طبيعـي مـن رجل يعيش في الصحراء وقد انصب التصوير في هذه اللوحة على عنصر السرعة في الفـرس وإبرازه لنا بكل دقـة ووضـوح، وكـان التشـبيه المسعف الأول للشـاعر في تلويـن الصـورة وتوضيحها فقد أكثر الشاعر منه في صورة الفرس.

وعلى أية حال فإن عبيداً في وصفه وتصويره للفرس يظل أسير ذلك الإطـار الـذي وصف وصور به الشعراء الجاهليون هذا الحيوان وقد استعان الشاعر في تلوين وتخطيـط صورة الفرس بأساليب كثيرة منها الاستعارة المكنية، والكناية التي تقل في شـعره بوجـه عام إذ يكثر من الاعتماد على التشبيهات في رسم صوره كما أوضحنا من مثل قوله[٤٤]:

زَيْتِيَّةٌ نَاعِمٌ عُرُوقُهَا ... وَلَيِّنٌ أَسْرُهَا رَحِيبُ

لكنه في استعماله للكناية يأتي بها معبرة تمـام التعبـير ومنبئـة عـن تفحـص الشـاعر ودقة نظره في ملاحظة فرسه وكأنه يتحسسها بيديه ليطمئن على صحتها وعافيتها.

كما يكني الشاعر عن سعة جبهة الفرس، وهذا الأمر مستحب فيها، بكناية لطيفـة جميلة إذ يقول[٤٥]:

مُضَبَّرٌ خَلْقُهَا تَضْبِيْرا ... يَنْشَقُّ عَنْ وَجْهِهَا السَّبِيبُ

ويكني عن رقة قوامها إذ يقول[٤٦]:

وَقَدْ أَغْتَدِيْ قَبْلَ الغِطَاطِ وَصَاحِبِي ... أَمِيْنُ الشَّظَا رَخْوُ اللَّبَانِ سَبُوحُ

ويكني الشاعر عن تعب فرسه لاشتداد الجري بقوله[٤٧]:

---

[٤٤] ـ انظر ديوان عبيد ص١٧.

[٤٥] ـ انظر ديوان عبيد ص١٨.

[٤٦] ـ انظر المرجع السابق ص٣١ والشظا: شيء صغير ستدق في وظيف الغرس والوظيف فوق الرسغ.

مِـــنْ كُـــلِّ عِجْـــلِزَةٍ بَـــادٍ نَوَاجِزُهَـــا عَلَى اللجَامِ تُبَارِي الركْـبَ فِـي عَنَـدِ

وقد يسوق الشاعر أكثر من كناية في نص واحد من مثل قوله[48]:

وَأَمِـيرِ خَيْـلٍ قَـدْ عَصَيْـتُ بِنَهْـدَةٍ جَـرْدَاءَ خَاظِيَـةِ السَّرَاةِ جَلُـوس

خُلِقَـتْ عَلَـى عُسُـبٍ وَتَـمِّ ذَكَاؤُهَـا وَأَحَـالَ فِيهَـا الصَّنْـعُ غَـيْرَ نَحِيْـس

تَنْفِـي الأَوَائِـمَ عَـنْ سَـوَاءِ سَـبِيْلِهَا شَـرَكَ الأَحِـزةِ وَهِـيَ غَـيْرُ شَمُوس

وعن صبر فرسه، وشدة عدوها يعبر عبيد في أسلوب الكناية قائلاً[49]:

غَـيرُ أَقْنَـى ولاأَصَـكَّ ولَكِـن مِرْجَـمٌ ذو كَرِيهَـةٍ وَنِقَـال

ومن الملاحظ أن دور الاستعارة قد تأخر في تصوير الفرس عند شاعرنا واقتصر على صورتين فقط، يقول في الأولى وهو في معرض خطابه لامرئ القيس[50]:

وَاعْلَـمْ بِـأَن جِيَادَنَـا آلَيْـنَ لا يَقْضِيْـنَ دَيْنَـا

ويقول في الصورة الثانية[51]:

وَاسْـتَجَارَتْ بِنَـا الخُيُـولُ عِجَـالاً مُثْقَلَـاتِ المُتُـونِ والأَصْـلابِ

مُصْغِيَـاتِ الخُـدُودِ شُـعْثَ النَوَاصِـي فِـي شَـمَامِيطِ غَـارةٍ أَسْـرَابِ

والواقع أن عبيداً في تصويره للفرس لم يخرج عن الدائرة المألوفة في وصف هذا الحيوان عند غيره من الشعراء الجاهليين القدامى، إلا أنه في تصويره لها قد أجاد، واستخدم اللغة استخداماً ينم عن مقدرة وخبرة، وشدة ملاحظة من الشاعر بفرسه وهذا طبيعي بالنسبة لرجل فارس مثل عبيد يعيش في بيئة شبه حربية على الدوام، ويشكل الفرس فيها إحدى ركائز الحياة إن صح التعبير .

إن لغة التصوير عند الشاعر في هذا المكان بما تضمنته من وسائل أداء وإن كان ذلك تشبيهاً أم استعارة أم كناية مشتقة من صميم الواقع المعاش للشاعر، وقد رأيناه يركز على عاملين اثنين، ويسلط الأضواء عليهما وهما عنصرا السرعة وتمام صحة

---

[47] ـ انظر المرجع السابق ص٥٩.
[48] ـ انظر المرجع السابق ص٦٩.
[49] ـ انظر المرجع السابق ص١٠٩.
[50] ـ انظر المرجع السابق ص١٣٧.
[51] ـ انظر المرجع السابق ص٢٥.

الفرس وقوتها، ولاشك أن الإنسان الذي يعيش في مثل تلك البيئة يهمه كثيراً أن تكون فرسه متمتعة بهاتين الصفتين قبل كل شيء، وإننا نلاحظ أن التصوير هنا لم يتخذ من اللغة رمزاً فنياً في الإفصاح عن عواطف الشاعر وتصوراته وإنما هو تصوير تقريري بحت لا أبعاد فيه غير البعد المرئي.

كما صور عبيد السلاح من رمح وسيف، ودرع، وخوذة، ولكنه لم يفض في ذلك التصوير، ومن ذلك تصويره للرمح إذ يقول "من الكامل[٥٢]":

هَاتِيْكَ تَحْمِلُنِي وَأَبْيَضَ صَارِماً ... وَمُحَرَّباً فِي مَارِنٍ مَخْمُوس

صَدْق مِنَ الْهِنْدِي أُلْبِسَ جُبَّةً ... لَحِقَتْ بِكَعْبٍ كَالنَّوَاةِ مَلِيْس

وقد نرى الشاعر يلجأ إلى تكوين الصورة بأسلوب التشبيه فكعب الرمح مدبب كالنواة، وهو رمح طويل لدن يعتمد عليه في المطاعنة، وهو مدعاة للفخر به وبحيازته، ومادمنا في حديث السلاح والقوة فلا مانع من أن نلقي نظرة على تصوير عبيد لمظاهر القوة عند قومه من بني أسد يقول "من الكامل[٥٣]":

بَلْ لا مَحَالَةَ مِنْ لِقَاء فَوَارس ... كُرُم مَتَى يُدْعَوْ لِحَرْبٍ يَرْكَبُوا

شُمٌّ كَأَن سَنا القَوَانِس فَوْقَهُمْ ... نَارٌ عَلَى شَرَفِ اليَفَاعِ تَلَهَبُ

تَمشِي بِهِمْ أُدْمٌ تَئِط نُسُوعُهَا ... خُوصٌ كَمَا يَمْشِي الهِجَانُ الرَّبْرَبُ

وَهُمُ قَدِ اتَّخَذُوا الحَدِيْدَ حَقَائِباً ... وَخِلا لَهُم أُدْمُ المَرَاكِلِ تُجْنَبُ

مِنْ كُل مَمْسُودِ السَرَاةِ مُقَلِص ... قَدْ شَقَّهُ طُولُالقِيَادِ وَأَلْغَبُوا

وَطِمِرةٍ كالسِيْدِ يَعْلُو فَوْقَهَا ... ضِرْغَامَةٌ عَبْلُ المَنَاكِبِ أَغْلَبُ

إن الاستعداد للمعركة يتطلب ماصوره الشاعر حقاً من قوة متعددة الجوانب من

---

[٥٢] ـ انظر ديوان عبيد ص٧٠ الابيض: السيف. المحرب السنان. المارن: القناة اللينة. المخموس. الرمح طوله خمس أذرع. الصدق. المستوى من الرماح. الجبة.ما دخل فيه الرمح من السنان. المليس. الاملس.

[٥٣] ـ انظر ديوان عبيد ص٤ ـ ٥ كرم أي كرام اتى بالمصدر في موضع الصفة.شم: متكبرون. القوانس: يريد قوانس الخوذات و هي اوساطها في اعلاها. الشرف الموضع المرتفع شبه بريق القوانس على رؤوس الفرسان بالنار الملتهبة على أعالي المرتفعات. الادم: الابل الابيض. تئط: تصيح. نسوع: حبال عريضة طويلةتشد بها الرحال. خوص: غائرة العيون لشدة تعبها و اعيائها. الربرب: جماعة البقر. الحديد: يريد الدروع. اتخذوا حقائبا: أي جعلوها على الركاب ورائهم. المراكل: المواضع التي يركلها الفارس من الفرس و قد وصفها بالبياض كناية عن كثرة ركل الفارس لها. نهد الراكل: أي ضخام الاوساط. تجنب: أي تقاد بجنب الركائب لتركب وقت الحاجة. ممسود السراة موثق الخلق عظيم الظهر مقلص أي سريع الضمرة . الفرس الانثى الكريمة شبهها بخفتها بالذئب.

فرسان أماجد غطاريف، وخوذات حديدية تتلامع فوق رؤوسهم كأنها نار يهتدى بها الضالون في مسالك الصحراء، وإبل بيضاء غائرة العيون تسير كسير جماعات البقر الوحشي، ودروع حديدية قد تدرع بها الفرسان خلف ظهورهم بالإضافة إلى تلك النياق النجيبة فهناك الخيول الأصيلة تواكبهم وتسير بجانبهم وهي لم تركب بعد، ولم تجهد كي تظل محتفظة بقواها ونشاطها ليوم المعركة وكما هو معلوم فإن تحمل الناقة أقوى من تحمل الفرس وهي أقدر على السير وحمل الأثقال ويبدو أن الشاعر وقومه كانوا يلجؤون لمثل هذه الطريقة في الحرب فالخيل لاتستخدم إلا لوقت المعركة.

لقد لجأ الشاعر في تصوير ورسم لوحته لأكثر من وسيلة فقد استغل العامل النفسي إلى أبعد حد في إرهاب العدو والنيل من معنوياته ونلحظ هذا من خلال تفصيل الشاعر لأجزاء الصورة وتعمده إظهار قوة بني أسد في العدد والعدة بشكل واضح وهو يتخذ أكثر من لون بلاغي في الوصول إلى غرضه كالتشبيه والكناية، وقد جاءت الصورة الكلية واضحة جلية في الدلالة على مأأراده الشاعر وقصد إليه.

فصورة الفرس شبيهة بصورة الذئب في خفته، وسرعته، أما عن ركاب تلك الخيول فهم أسود ضخام، ونقف عند وصف الإبل بالخوص أي الغائرة العيون ونقول إنما أراد عبيد من هذه الصفة أن يبين لنا طول مسير تلك الإبل، وتحركها للوصول إلى الهدف وبالتالي فإنها تكون أقدر على السرعة ومتابعة المسير أملاً في الراحة وعلى هذا فإن الصورة هنا كناية جميلة من الشاعر بالإضافة إلى أردافها بتشبيه في البيت نفسه وهو سير الإبل كسير جماعات البقر كما يتضمن البيت استعارة جميلة وهي قول الشاعر تئط نسوعها فالشاعر حشد لنا ثلاث صور بيانية في بيت واحد ليبرز لنا صورة الإبل في أكمل وجه، ونستطيع القول بأن صورة الحرب عند الشاعر كانت تعتمد على أكثر من لون من ألوان البيان، وقد نظر الشاعر إليها من أكثر من زاوية فتصوير الإبل، والخيل، والسلاح، والفرسان الأشاوس بالإضافة إلى ذكر العدد الكبير من أفراد الجيش كلها سمات من سمات صورة الحرب عند عبيد، وقد بالغ وفصل في هذه الصورة على غير العادة ذلك أن المقام يتطلب هذا التفصيل وتلك المبالغة حتى أنه جعل الجيش يشبه ضباباً مستمراً لايخف إذ يقول "من الكامل[٥٤]":

سَلَفًا لأ رْعَنَ مَا يَخِفُ ضَبَابُهُ   مُتَقَنِّس بَادي الحَدِيْدِ لَهَام

و لم يفت شاعرنا أن يصور لنا تلك الراية الخفاقة لذلك الجيش اللجب من بني أسد

---

[٥٤] ـ انظر ديوان عبيد ص٥ و ص١٣٣ و انظر وصف الجيش في ص٥٨ و انظر كذلك ص٦.

يقول[٥٥]:

وَلَــــرُب سَـــيّدٍ مَعْشَـــــر ضَخْــم الــد سِــيْعَةِ قَــدْ رَمَيْنَــا
عِقْبَانَــــهُ بظِلَــــال عِقْبَــا ن تَيَمّــــمُ مَــــنْ نَوَيْنَــــا

وتظل صورة الجيش والسلاح والرايات عند الشاعر أسيرة الإطار الذي تعارف الجاهليون عليه في وصف مثل هذه الأشياء، فالتشبيه هو الغالب على الصورة، إلا أننا نلحظ اعتماد الشاعر على أسلوب الكناية أكثر من ذي قبل، وبخاصة صورة الفرس والحرب كما أوضحنا، وقد استخدم الشاعر في رسم صورة الحرب مايلائم من الألفاظ الدالة على القوة. فوارس روع يركبوا ثم القوانس بنار تلهب الحديد، حقائب، أدم، لهام، المراكل، مسود، السراة، مقّلص، طول القياد، ضرغامة، عبل المناكب، أغلب، معضل.

وقد جاءت الصور لتدلل على شكل الحياة القبلية في الجاهلية ونقل صور كثيرة من جوانبها، ومن الملاحظ وقوف الشاعر والتفاته إلى نفسه وتصوير مسحة الحزن التي رافقته في الشطر الثاني من حياته، وتبدو هذه النزعة الحزينة عنده من خلال وصفه للشيب، والشباب وتحسره الدائم على تلك الفترة العزيزة الذاهبة، كما تبدو من خلال وصفه وتصويره للدمع في صور مختلفة كالذي جاء في معلقته إذ يقول[٥٦]:

عَيْنَــــاكَ دَمْعُهَــــا سَــــرُوبُ كَــأَن شَــــأنَيْهمَا شَــــعِيْبُ
وَاهِيَــــــــةٌ أَوْ مُمْعِــــــــنٌ مِــــنْ هَضْبَــــةٍ دُونَهَــــا لهُــــوبُ
أَوْ فَلَــــجٌ مَــــا ببَطْــــنِ وَادٍ للمَــــاءِ مِــــنْ تَحْتِــــهِ قَسِــــيبُ
أَوْ جَــــدْوَلٌ فِي ظِــــلا ل نَخْــــلِ للمَــــاءِ مِــــنْ تَحْتِــــهِ سُــــكُوبُ

فعيناه ترسلان الدمع، والدمع صور مختلفة، فهو ماء يتساقط من قربة بالية مثقوبة، وهو ماء غزير يتدفق من أودية منحدرة من الجبال، ونهر صغير يجري في واد وله صوت، وجدول يجري بين النخيل وله خرير وكل هذه الصور تنم عن ظمأ العربي في الصحراء وتوقه الدائم إلى المياه الظلال، فالشاعر يعنى بوصف وتصوير دمعه، وقد جاءت الصور معبرة ومتنوعة وجميلة، حتى أن الشاعر قد أنسانا حزنه.

لقد جعلنا نتابع هذه الصور الخلابة التي تنقلنا إلى مايشبه الروضة المخضوضرة والماء يجري بها ويحفها من كل جانب، ويكاد القارئ للأبيات أن يتصور مايقوله

---

[٥٥] ـ انظر المرجع السابق ص٣٨؛ وانظر وصف الراية في ص٦.

[٥٦] ـ انظر ديوان عبيد ص١٢ ـ١٣.

الشاعر ماثلاً أمامه، وقد اعتمد في تصويره على التشبيه الحسي في إظهار وإبراز صورة الدمع، ولانجد فيها غير بيئة الشاعر ماعدا ذكره للجدول الجاري وسط النخيل، فتلك صورة مستقاة من تردد الشاعر على أرض المناذرة في العراق كما يخيل لنا ورؤيته لنهر دجلة والنخيل يحفه من كلتا ضفتيه وبخاصة في منطقة العراق الأوسط.

وقد صور عبيد الشيب شأنه في ذلك شأن أغلب الشعراء الجاهليين غير أن عبيداً كان ممن ذم الشيب أكثر من غيره وقد ترددت هذه الحقيقة في ثنايا ديوانه أكثر من مرة حتى ليخيل إلينا أن الشيب كان رمزاً للفناء ماثلاً أمام الشاعر في كل حين، ولذا فقد اعتبره الشاعر مسبة إذ يقول[٥٧]:

بَلْ إنْ تَكُنْ قَدْ عَلَتْنِي كَبْرَةٌ ... والشَّيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيبُ

وقد نظر الشاعر إلى الشباب بعين كسيرة حزينة متحسرة من خلال حديثه وتصويره الشيب إذ يقول[٥٨]:

فَإنْ يَكُ فَاتَنِي أَسِفاً شَبَابي ... وَأَمْسَى الرأسُ مِني كاللّجَيْن

وكَانَ اللهْوُ حَالَفَنِي زَمَاناً ... فَأَضْحَى اليَوْمَ مُنْقَطِعَ القَرِيْن

فَقَدْ أَلِجُ الخِبَاءَ عَلَى العَذَارى ... كَأَن عُيُونَهُن عُيُونُ عِيْن

ويقول في صورة للشيب[٥٩]:

بَانَ الشّبَابُ فآلى لا يُلِم بنَا ... واحْتَل مِنْ مَشِيْبٍ أَي مِحْلال

والشيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ أَرْسَى بسَاحَتِهِ ... لِلهِ دَر سَوَادِ اللمةِ الخَالِي

فالشيب سبة ولكنه شبيه بالفضة على الرأس يجلله وكأني بعبيد لايقبل هذا التاج الفضي إلا وهو راغم، واللهو حليف خائن غادر لاأمان له وهي استعارة جميلة، وعيون العذارى أشبه ماتكون بعيون الحور وتصوير الشيب على أنه محتل غاصب نجد فيه الاستعارة لطيفة معبرة عن واقع الشيب كما نلمح في الصورة كراهية الشاعر للشيب بكل وضوح أمامنا ويمكننا ملاحظة ذلك في تكرار الشاعر لحروف معينة في الصور كالشين العين والماء وماذاك إلا للتأكيد من الشاعر على حقيقة الشيب المروعة وللإبانة عن شخصية الشيب البغيضة.

وكان التشبيه والاستعارة معيناً للشاعر وعداده في رسم ونسج لوحة الشيب

---

[٥٧] ـ انظر ديوانه ص١٥ ـ١٦.

[٥٨] ـ انظر ديوانه ص١٣٢ ـ ١٣٤.

[٥٩] ـ انظر ديوانه ص١٠٤ و انظر ديوانه ص٣٤ ـ ١٢ ـ حيث يصف الشباب بحسرة و حرقة.

والشباب، فالأول كما صوره عبيد دليل الوهن الضعف في بيئة لاتقبل الصعب ولاتقره، ويبقى شاعرنا في تصويره للشيب ضمن الإطار الفني المتعارف عليه عند الشعراء الجاهليين إلا أنه يزيد عنهم في ذمه وكرهه على حين نرى غيره يشير إلى ذلك الكره إشارة رفيقة مثل الشاعر الجاهلي سلامة بن جندل إذ يقول[٦٠] :

أَوْدَى الشَّبَابُ حَمِيْداً ذَو التعَاجيْبِ   أَوْدَى وَذَلِكَ شَأْوٌ غَيْرُ مَطْلُوبِ

وَلَّى حَثِيْثَاً وَهذَا الشَّيْبُ يَطْلُبُهُ   لَوْ كَانَ يُدْرِكُهُ رَكْضُ اليَعَاقِيبِ

أَوْدَى الشَّبَابُ الّذي مَجْدُ عَوَاقِبُهُ   فِيْهِ نَلَذ وَلا لَذاتَ للشَّيْبِ

وبعد فهذه ألوان من الصور الفنية التي جاءت في شعر شاعرنا حاولنا الكشف عما فيها من أوجه الجمال الفني مشيرين أحياناً إلى دلالاتها وقد رأينا عبيداً يكثر فيها من التشبيه في الأغلب الأعم، أما دور الاستعارة والكناية فقد كان محدوداً إلى حد ما... ولو أن حظ الاستعارة كان أوفر من الكناية خلا وصف الفرس كما رأينا حيث أكثر الشاعر من الكناية حتى كادت توازي الاستعارات وقد بدا لنا عبيد عارفاً بألوان البيان والبديع عن طبع لاعن تكلف ولذا فإن صوره جاءت قريبة المأخذ واضحة الدلالات متنوعة المشارب برز فيها خيال الشاعر الخصب وتملكه بزمام اللغة والبيان.

وقد ساق الشاعر صوره في إطار عام متعارف عليه من قبل الجاهليين من الشعراء فكان يصور مايحسه ومايعانيه الإنسان الجاهلي.

وإذا كان الشاعر الكبير هو الذي يحاول أن يرسم صورة متماسكة للحياة بأثرها[٦١] كما يقول الناقد استيفن سبندر فقد حاول شاعرنا أن يرسم لنا صورة لتلك الحياة وأن يظهر لنا موقف الإنسان الجاهلي من كثير من القضايا وذلك من خلال تعبيره وتصويره لتجربته ومعاناته. وكان يعمد في بعض الحالات إلى التصوير الشامل أو قل الصورة الكلية كما صنع في تصويره لمظاهر القوة وتصويره للحرب ولذا فإنه من الصعب أن نأخذ جزئيات الصورة في مثل هذه الحالة للوقوف على دلالاتها.

---

[٦٠] ـ المفضليات ص١١٩ ـ ١٢٠ تحقيق أحمد محمد شاكر وهارون طبع دار المعارف في مصر.

[٦١] ـ انظر الحياة والشاعر ص٧٦ تعريب الدكتور مصطفى بدوى سلسلة الالف كتاب الطبعة الاولى.

الفصل الثاني

لغة شعره

ليس بخاف علينا ونحن بصدد دراسة لغة شعر عبيد بـن الأبـرص وأسـلوبه أن أسـلوب الشاعر الجاهلي مخالف لأسلوب الإنسان العادي في مجتمعه، فالشعر عنـده مختلـف عـن لغة محادثاته اليومية، ذلك أنه يعنى وهو ينظم الشعر ويقوله بـاللفظ والقافيـة والـرؤى والكلمـة، وهو يعاني صياغة الأسلوب في البيت والقصيدة الواحـدة، ويمعـن في الأفكـار، فلايعرضهـا جزافاً، وإنما يعمل فكره، ويشحذ طاقاته الذهنية وقدراته الفنية في سبيل ذلك، ومهمـا قيـل على الشاعر الجاهلي من أنه يرتجل الشاعر أحياناً وأنه شاعر طبع وسليقة، فإن ذلك لاينفـي اعتناء الشاعر بلغة شعره لفظاً ودلالة وقافية ورؤيا وأسلوب عرض ولاشك أنه كـان يعـاني من ذلك وإذاً فلا غرو إذا سمعنا عن مدارس شـعرية جاهليـة مـن البـاحثين والدارسـين مثـل "مدرسـة عبيـد الشـعرية" وغيرهـا ويذهـب الدكتـور سـيد حنفـي إلى أن الجـاهليين كـانوا يشكلون أكثر من مدرسة فنية[1] وهو رأي لم يبعد عن الحقيقة.

وشاعرنا عبيد بن الأبرص لايخرج عن دائرة الشعراء الجاهليين التقليديين الآخرين، بل يعد من أقدمهم، ولذا فإننا نستطيع أن نطبق عليه ماينطبق عليهـم، وماطريقـة بنائـه للقصيدة إلا دليل على مانذهب إليه، فهو يقدم لوحة الطلل والنسب على ماعداها مـن لوحات، ويعنى تماماً بصورها وأفكارها وألفاظها التي تلائم كل موقـف مـن مواقفهـا، فإذا ماانتقل إلى النسيب ووصف المرأة، فإننا نراه ينتقي لها مايتلاءم مع نعومتها وجمالهـا من الألفاظ، فإذا الصور حلـوة عذبـة المشـرب رقيقـة المعنـى، وإذا مـاانتقل إلى وصـف الرحلة رأيته يختار لها ماينا سبها هي الأخـرى مـن الألفـاظ الموحيـة، فـالصحراء مهلكـة

---

[1] ـ انظر الشعر الجاهلي اتجاهاته و مراحله الفنية للدكتور سيد حنفى.

لايسمع فيها صوت ولاحركة خلا تلاعب الرياح برمالها وعزيف الجن في جنباتها وهي لسعتها تحير الهداة العارفين بها فتشبيه الطرق عليهم، والشاعر يتطور بأسلوب عرضه من غرض إلى آخر، فوصف الصحراء وقطعها على تلك الناقة الجريئة الضخمة الناجية السريعة يشعرنا أن الشاعر في جو آخر مغاير تماماً لجو الطلل والنسيب، والأوصاف والتشبيهات تتغير هي الأخرى بما يناسب الموقف والمقام، وإذا ماانتقل عبيد إلى الفخر شعرنا بتغيير في الأسلوب واضح، فألفاظه المختارة هنا نكاد نسمع في جنباتها مضاربة السيوف، ومطاعنة الرماح، وصهيل الخيول النجائب ينفذ من ثناياها، وإذا ماصور لنا الصيد رأيت الأسلوب يجنح لتصوير ذلك المشهد بكل دقائقه، وكأنك أمام رسام بارع، فصورة الفرس والعقاب والثعلب لايمكن أن ننساها ونحن نترقب الحركات، والنظرات وقلق الفريسة، وذلك كله في أسلوب غاية في روعة الأداء ودقة في توصيل المعنى، وإذا ماأتى الشاعر إلى وصف الحزن والأسى الذي يشعر به رأينا الكآبة تخيم على الكلمات والصور ويجسم الحزن على كل معنى ولفظ،وشعرنا بأننا في جو كئيب حقاً، ونظرة واحدة إلى قصائده التي صور بها تلك المشاعر والأحاسيس من تذكر أهل، أو فراق صحب كافية لتبيين ذلك.

وأسلوب عبيد طيع سلسل في الأغلب الأعم وذلك بالقياس إلى شعراء أهل عصره وصحيح أن لغة شعره تبدو أحياناً خشنة لكن أسلوبه بوجه عام تغلب عليه العذوبة والسلاسة، وأكثر قصائده المثبتة في الديوان سهلة المعاني "عدا ما لم تصح نسبتها إليه أو التي يعترينا الشك فيها" إذ تحتوي على بعض الفقرات الغامضة بسبب ضياع شرحها، أو سقوط كثير من أبياتها، كما في القصيدة ٣، ١٣ على سبيل المثال، وقد بين الدكتور حسين نصار في مقدمة ديوان عبيد القصائد والمقطوعات التي يشك في أنها له أو التي نسبت خطأًإليه، وقد تكشف لنا لغة القصائد التي جاءت في ديوان عبيد عن شخصية هذا الشاعر الذاتية البارزة، وسنحاول الإلمام بالألفاظ والتراكيب والصيغ التي كان الشاعر يميل إلى استخدامها، وقد وردت أكثر من مرة في شعره، فمثلاً لفظة الألى وردت في قصيدتين الأولى تحمل الرقم ٣٢ والثانية تحمل الرقم ٤٣ أما صيغة أهل القباب فقد وردت في ثلاث قصائد ٦، ١٦، ٤٨ أما أهل الجرد فقد وردت في ثلاث قصائد أيضاً ٨، ١٦، ٤٨ أنيس وهو نوع من الصديقات وردت في قصيدة واحدة تحمل الرقم ٣٨ أما الجمع من هذه الكلمة فهو أوانيس فقد وردت في قصيدتين اثنتين ٣١، ٤٢ وأما المفرد وهو آنسة فقد وردت في ثلاث قصائد وهن اللواتي يأنسن في الحديث بهن من غير ذنب. الجميع: جميع القبيلة النازلة معاً وقد وردت في قصيدتين ٤٠، ٤٢ مجلجل: وهو السحاب فيه رعد وقد وردت في قصيدتين

٣٤، ٤٧ حرق البوارق سحاب كأنه نار توقد وقد وردت في قصيدة واحدة٤٧ أما حرق البوارق أي سريع البوارق فقد ورد في قصيدة واحدة أيضاً وهي التي تحمل الرقم ٤٩ . حرص: سنان الرمح وقد وردت في ثلاث قصائد هي ٣، ٤٠، ٥١ خلل: أغماد السيوف المنقوشة وقد وردت في قصيدتين ٣٨، ٤١ داوية: وهي الصحراء الواسعة وقد وردت في ثلاث قصائد ٤٩، ٣٢، ٤٩ مرة أخرى ديمومة: وهي الصحراء الواسعة وقد وردت في قصيدتين ٢٨، ٤٩. دلح: سحب تحمل مطراً كثيراً وقد وردت في قصيدتين اثنتين ٣٠، ١١ أذاع به: فرقه وقد وردت في قصيدتين اثنتين ٤، ٤٧ شنانة: رجبية وليلة رجبية وقد وردت في قصيدتين ٥٠، ١٣ ريق: وهو أول المطر وقد وردت في قصيدتين اثنتين ١١، ٤٩ . سبسب: أرض مستوية لاشيء فيها وقد وردت في ثلاث قصائد: ٥، ٤١، ٤٢ . عقاب: نسر ويطلق على العلم وقد وردت في قصيدتين ٢، ٥٣ عكف وقوف الخيل على المحارب القتيل وقد وردت في ثلاث قصائد ٤٧، ٣١، ١٤ . عوم الفين وقد وردت في قصيدتين ١٠، ٥١، غاب: اجام فقد وردت في قصيدتين ٣٢،٥ قد اترك القرن. وقد وردت في قصيدتين ١٦،١٠. قلصى: يخاطب ناقته وقد وردت في قصيدتين ٤٢،٣١. اسلوب قفا لمخاطبة الصحب. وقد وردت في ثلاث قصائد ٥١،٢٨،٤. لجين: فضة وقد وردت في قصيدتين ٤١، ٥١، تلفه شمأل: وقد وردت في قصيدتين ٥، ٤٧، أمثالي: نظرائي وقد وردت في ثلاث قصائد ٤٠، ٤٢، ٤١، ممران الوشيج: الرماح وقد وردت في قصيدتين ٣، ٥٠ . مها: بقرة وحشية وهي صفة للمرأة وقد وردت في أربع قصائد ٣٢، ٤٠، ٤١، ٤٩، ناعمة: رخصة لطيفة لقب امرأة وقد وردت في ثلاث قصائد ٢٨، ٤٠، ٤٩، ناهل: عطشى وهي للرماح وقد وردت في ثلاث قصائد ٣، ٣٩، ٥٢، أسلوب هذا و... لتغيير الموضوع وقد استخدمها الشاعر ثلاث مرات في القصائد ٤٠، ٤٩، ٥٢ . هي: لغة أسدية في هي وقد وردت في قصيدتين ٥، ٤٠، أوجرت طعنت برمح وقد وردت في قصيدتين ١٦، ٤٠ .

تلك هي أهم الصيغ التي استخدمها عبيد أكثر من مرة، والملاحظ عليها أنها تميل إلى جو الحرب ووصف الصحراء والطبيعة بالدرجة الأولى وهذا ماينسجم مع نشأة عبيد في قبيلة بني أسد المحاربة المعرقبة في بداوتها، وإذا وجدنا في شعره بعض الكلمات الحوشية أو الغريبة فلعل ذلك راجع إلى عدم استعمالها، وأنها لم تك بتلك الدرجة من الغرابة التي نراها نحن اليوم، أو لعله كانت نتيجة لحياة الشاعر في بيئة بدوية مقفلة، وبخاصة في سني الشباب حيث نرجح أن الشاعر لم يتصل أو يطوف في أطراف الجزيرة بعد، أو لعل ذلك يعود إلى كثرة تنقل قبيلة الشاعر في أرجاء الجزيرة العربية بحثاًعن الملأ والكلأ، ومانظن عبيداً إلا أنه

كان على درجة كبيرة من الوضوح بالنسبة لعصره وبيئته وقد تفاوت أسلوب الشاعر بين أسلوب البدوي الخشن مرة، وأسلوب الرجل المطلع على قدر من الحضارة، ونلحظ هذا الفرق في قصائده التي نرجح أنه قد نظمها في أخريات حياته وهي في أغلبها مقطعات ضاعت أصولها كالمقطوعة رقم١ والمقطوعة رقم ٢ والمقطوعة رقم ٥ والقصيدة رقم ٦ والقصيدة رقم ٨ والمقطوعة رقم ٧ والمقطوعات رقم١٤، ١٧، ١٨ والقصيدة رقم١٩، والقصيدة رقم٢١، والمقطوعة رقم٢٣، والمقطوعة رقم٣٣، والقصائد ذوات الأرقام٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٥٠ فأسلوبه في الشكوى والغزل واضح وسهل ولكنه في الفخر يميل أحياناً إلى الوعورة واستخدام اللفظ الغريب كما في القصائد٣١، ٣٢ . ولعل طبيعة المنافسة مع غيره من الشعراء قد فرضت عليه ذلك النوع من الغريب اللفظي من مثل قوله لإثبات قدرته ومهارته والأبيات من البحر الوافي[٢]:

سَلِ الشعَرَاءَ هَلْ سَبَحُوا كَسَبْحِي ... بُحُورَ الشعْرِ أَوْ غَاصُوا مَغَاصِي

لِسَانِي بالنّثِيرِ وبِالقَوافِي ... وبالأَسْجَاعِ أَمْهَرُ مِنَ الغِيَاصِ

مِنَ الْحُوتِ الذي فِي لُجِ بَحْرٍ ... يُجِيْدُ السَبْحَ فِي اللّجَجِ القماصِ

تَلاوَصَ فِي المَدَاصِ مُلاوَصَاتٍ ... لَهُ مَلْصَى دَوَاجِنُ بِالمَلا صِ

بَنَاتُ الماءِ لَيْسَ لَهَا حَيَاةٌ ... إذَا أَخْرَجْتَهُ مِنَ المَدَاصِ

ولعل مايفسر جنوح الشاعر إلى استخدام بعض القوافي الغريبة أنا كان ذا قدرة على الغوص في بحور الشعر حقاً، و لم لا؟ وهو أستاذ امرئ القيس. ومن خصائص أسلوب عبيد أنه لم يكتف بوحدة البيت لإتمام المعنى ولكنه يتعدى في بعض الأحيان إلى البيتين ليتمم معناه ومن ثم تطول عبارته الشعرية كقوله "والأبيات من البحر الكامل[٣]:"

وَتَجَاوَزُوا ذَاكُمْ إلَيْنَا كُلُهُ ... عَدْواً وَقَرْطَبَةً فَلَما قَرِبُوا

طُعِنُوا بِمُرانِ الوَشِيْجِ فَمَا تَرَى ... خَلْفَ الأَسِنَةِ غَيْرَ عِرْقٍ يَشْخَبُ

فقد أتى الشاعر بجواب لما في البيت الثاني، ومثل هذا في القصيدة نفسها والجدير

---

[٢] ـ انظر ديوانه ص٧٦ ـ ٧٧ النثير: الكلام المنثور. القوافي: يريد بها الاشعار. الاسجاع: الكلام المزدوج على غير وزن. الغياص: الغوص و قيل الغواص: اللج. معظم الماء و الجمع لجج. تلاوص: نظر يمنه و يسرة يروم أمرا. المداص: الماء الذي تسبح فيه الأسماك. ملصى: جمع مليص و هو المولود لغير تمام. دواجن: مقيمه. الملاص: الموضع الذي ملصت فيه الحيتان أولادها. بنات الماء الحيتان.

[٣] ـ انظر ديوانه ص٣.

بالذكر أن هذه الخصيصة عامة عند أغلب شعراء الجاهلية[4].

ويبدو عبيد عارفاً بكل ضروب البيان والبديع أيضاً فمعلقته مملوءة بالأسجاع والمقابلات مثل: معين، تصبو، التصابي، المحل والجدوب، وسلب، ومسلوب، عنيبة وغائب، عاقر وذات رحم، غانم وخائب، حبيب وهانئ، نازح وقريب، يسأل وسائل، تكذيب وتعذيب، وهكذا نمضي في المعلقة فنجد فيها من ضروب البيان والبديع الشيء الكثير الملفت للنظر مما يجعلنا نتساءل عن صحة نسبة كثير من أبيات القصيدة لعبيد وسنحاول دراسة أسلوب الشاعر من ألفاظ، وتراكيب، وصيغ، وذلك بحسب الأغراض الشعرية، التي وردت في الديوان، ففي الوصف على سبيل المثال نلاحظ أن الشاعر يتفاوت في ألفاظه قوة وليناً، وفي وصف الأطلال يختار اللفظ الجزل والقوي المعبر عن حالة الدمار،يقول متحدثاً عن بعض المواضع الطللية "والأبيات من مخلع البسيط[5]":

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ
فَرَاكِسٌ فَعُرَيْتِنَاتٌ فَذَاتُ جُنْبَيْنِ فَالْقَلِيبُ
فَعَرْدَةٌ فَقَفَا حِبِرٍ لَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ عَرِيبُ

وهذه المواضع تضفي على وصف الطلل الواقعية، ويمكننا الاستدلال من خلالها على الأماكن التي كانت ترتادها القبيلة وترتحل عنها، أما في وصفه للمرأة فنجد لفظ الشاعر يدق ويعذب، يقول والأبيات من الطويل[6] :

وَإِذْ هِيَ حَوْرَاءُ المَدَامِعِ طَفْلَةٌ كَمِثْلِ مَهَاةٍ حُرَّةٍ أُمِّ فَرْقَدِ
تُرَاعِي بِهِ نَبْتَ الخَمَائِلِ بِالضُّحَى وَتَأْوِي بِهِ إِلَى أَرَاكٍ وَغَرْقَدِ
وَتَبْسِمُ عَنْ عَذْبِ اللِّثَاتِ كَأَنَّهُ أَقَاحِي الرُّبَى أَضْحَى وَظَاهِرُهُ نَدِي

ويختار الشاعر في وصف المطر والسحاب والبرق والألفاظ التي تمثل الحركة وتدل على الاضطراب والامتلاء، وقد يستخدم المشتقات من اسم الفاعل وصيغ مبالغة كقوله "والأبيات من البسيط[7] ":

---

[4] ـ وهذا يشيع في شعر بعض الشعراء الجاهليين الذين أتو من بعده بزمن طويل كالاعشى، راجع مقدمة ديوان الاعشى بتحقيق الدكتور محمد محمد حسين، فقد أورد أكثر من مثال على هذة الخصيصة.

[5] ـ انظر ديوانه ص١١ وانظر أغلب مطالع قصائد الشاعر في ديوانه والتي بدأها بالوقوف على الاطلال.

[6] ـ انظر ديوانه ص٥٢ ـ ٥٣.

[7] ـ انظر ديوان عبيد ابن الابرص ص٣٥. وانظر مقطوعاته في وصف المطر والبرق في ثنايا ديوانه.

يَـا مَـنْ لِـبَرْقٍ أَبِيـتُ اللّيْـلَ أَرْقُبُـهُ مِـنْ عَـارِضٍ كَبَيـاضِ الصّبْـحِ لَمّـاحِ
دَانٍ مُسِـفٍ فُوَيْـقَ الأَرْضِ هَيْدَبُـهُ يَكَـادُ يَدْفَعُـهُ مَـنْ قَـامَ بِـالرّاحِ
يَـنْزِعُ جَلْـدَ الحَصَـى أجَـشُّ مُبْـتَرِكٌ كَأَنّـهُ فَـاحِصٌ أَوْ لاعِـبٌ دَاحِ
فَـالتَجّ أَعْـلاهُ ثُـمّ ارْتَـجّ أَسْـفَلُهُ وَضَـاقَ ذَرْعَـاً بِحَمْـلِ المَـاءِ مُنْصَـاحِ

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الخفيصة "استخدام الماث وصيغ المبالغة" لقد كانت سمة من سمات شعر عبيد، فقد رأيناه يكثر منها، ويتوسع في استعمالها تأكيداً وتقوية للمعنى، وتدليلاً على استمرارية حدوث الفعل ماضياً وحاضراً.

أما لفظه في وصف الناقة، فيبدو جزلاً قوياً وافياً بالأغراض التي أراد الشاعر إلصاقها بناقته من صفات مادية ومعنوية تتصل بالقوة والنشاط والضخامة والشرعة والأخلاق التي تمتعت بها هذه الناقة، ومما يوضح ذلك قوله[8]:

فَـذَاكَ عَصْـرٌ وَقَـدْ أُرَانِـي تَحْمِلُنِـي نَهْـدَةٌ سُـرْحُوبُ
مُضَـبّرٌ خَلْقُهَـا تَضْبِـيراً يَنْشَـقُّ عَـنْ وَجْهِهَـا السّبِيبُ
زَيْتِيّـةٌ نَـاعِمٌ عُرُوقُهَـا وَلَيّـنٌ أَسْـرُهَا رَحِيـبُ

إنها مشرقة سريعة موثوقة الخلق ينجاب شعر ناصيتها عن وجهها وهي حادة البصر زيتية اللون طرية اللحم سهلة الانقياد، وهذه الألفاظ تمتاز بالقوة والشدة والسرعة وسهولة الطبع، وقوله واصفاناقته كذلك، "والأبيات من الكامل[9]:"

وَأَمِـيرِ خَيْلٍقَـدْ عَصَيْـتُ بِنَهْـدَةٍ جَـرْداءَ خَاظِيَـةِ السَـرَاةِ جَلُـوسُ
خُلِقَـتْ عَلَـى عُسُـبٍ وَتَـم ذَكاؤُهـا وَأَحَالَفيهـا الصُنْـعُ غَـيْرَ نَحِيـسِ
تَنْفِـي الأَوَاثِـمَ عَـنْ سَـوَاءِ سَـبِيْلِها شَـرَكَ الأَحِـزةِ وَهِـيَ غَـيْرُ شَـمُوسِ
وَإِذَا اقْتَنَصْنَـا لايَجِـفُّ خَضَابُهَـا وَكَـأَن بِرُكَتَهَـا مَـدَاكُ عَـرُوسِ

والألفاظ هنا تمتاز بالقوة والجزالة والفخامة، وقد كان الشاعر موفقاً في اختيارها، وقد استطاع إشعارنا حقاً بقوة تلك الفرس وباقتدارها وسرعتها التي ركز الشاعر عليها واختار لها مايؤهلها لذلك من الألفاظ والصفات.

---

[8] ـ انظر المرجع السابق ص١٨.
[9] ـ انظر المرجع السابق ص٦٩ وانظر الصفحات رقم ١٣٧، ١١٦، ١٠٩، ٦٠، ٣٨، ٣٣، ففيها معظم الالفاظ التي وصف بها الشاعر الفرس.

أما الألفاظ التي وصف بها عبيد ناقته فيمكننا أن نقع فيها على مادة لغوية غزيرة، وذلك أن الشاعر مدقق النظر في ناقته ويصور طباعها وسجاياها وأعضاءها، واقتدارها على السير، ونشاطها الملحوظ، وهزالها بعد الرحلة نتيجة لكثرة الأسفار والترحال، ويصف الشاعر من خلال ذلك الطريق ومافيه من حيوان ونبات وماء، وهو في كل ذلك يختار لمعانيه ألفاظاًجزلةقوية الجرس حتى أنه يكاد أن يغرب فيها أحياناً.

ولذا فإننا نلمح إعمال فكر الشاعر هنا حتى ليخيل إلينا أن بوادر الصنعة موجودة وبخاصة في وصف الناقة والفرس يقول "والأبيات من الطويل[١٠]":

وَخَيْلٍ كَأَسْرَابِ الْقَطَا قَدْ وَزَعْتُهَا ... بِخِيفَانَةٍ تُنْمى بساقٍ وَعُرْقُوبِ

وَخِرْقٍ تَصِيحُ الهَامُ فيهِ مَعَ الصَدى ... مَخُوفٍ إذا ماجَنَّهُاللَّيْلُ مَرْهُوبِ

قَطَعْتُ بِصَهْبَاءِ السَرَاةِ شِمِلَةٍ ... تَزِلُ الوَلايا عَنْ جَوَانِبِ مَكْرُوبِ

لَهَا قَمَعٌ تُذْرِي بِهِ الكُورَتَامِكٌ ... إلى حَارِكٍ تَأْوِي إلى الصُلْبِ مَنْصُوبِ

إذَا حَرَكَتْهَا السَاقُ قُلْتَ نَعَامَةٌ ... وَإنْ زُجِرَتْ يَوْمَاً فَلَيْسَتْ بِرُعْبُوبِ

وحول إبراز عنصر السرعة في الناقة يقول "البيت من الطويل[١١]":

خَلُوجٍ برِجْلَيْهَا كَأَن فُرُوجَهَا ... فَيافِي سُهُوبٍ حِيْنَ تَحْتَث فِي الآل

وحول أخلاقها يقول "والبيت من الكامل[١٢]":

وَإذَا سَرَيْتُ سَرَتْ أَمُونَاً رَسْلَةً ... وَإذَا تُكَلِّفُهَا الهَوَاجِرَ تُصْخِدِ

وحول قوتها وضخامتها يقول "والبيت من الكامل[١٣]":

أَفَلا تَنَاسَى حُبَّهَا بِجُلَالَةٍ ... وَجْنَاءَ كَالأُجُمِ المَطِينِ وَلُوسِ

وحول اقتدارها على المسير واجتياز المفاوز يختار لها عبيد من الألفاظ الدالة المناسبة

---

[١٠] ـ انظر ديوان عبيد ابن الابرص ص٢٧ ـ ٢٨ والخيفانة الناقة السريعة. الخرق الارض الواسعة تتحرك فيها الرياح. صهباء: أو شقراء اللون. السراة. الظهر. الولايا:جمع ولية وهي البرذعه. المكروب: ذو القيد المضيق، من كربة. القيد: ضيقته. القمع: الحارك: اعلى الكاهل يريد أن لها سنما ضخما يسقط منه الرحل، وان لها حاركا منصوبا الى جانب ظهرها.

[١١] ـ ديوانه ص١١٣.

[١٢] ـ ديوانه ص٤٥ ـ ٤٦.

[١٣] ـ ديوانه ص٦٨.

لذلك المقام حيث يقول "والبيت من البحر البسيط[١٤]:"

وَمَهْمَـــهٍ مُقْفِــر الأَعْـــلا م مُنْجَـــردٍ   نـــائي المَنَـاهِل جَدْبِالقَـــاع مُنْسَـــاح

أَجَزْتُـــــــهُ بِعَلَنْـــــــدَاةٍ مُذَكَــــــــرَةٍ   كـــالعِيْر ِمَـــو ارَةِ الضَبْعَيْـــن مِمْـــرَاحِ

وحول إنضائه لها لكثرة الترحال والأسفار يقول "والبيت من الخفيف[١٥]:"

ثـــم أُبْـــري نِحَاضَهَـــا فَتَراهَـــا   ضَـــامِراً بَعْـــدَ بُدْنِهَـــا كَـــالهِلال

وفي موضع آخر "والبيت من الكامل[١٦]:"

أَفْنَيْـــتُ بَهْجَتَهـــا وَفَضْـــلَ سَـــنَامِها   بـــالر حْـــل بَعْـــدَ مَخِيلَـــةٍ وَشَـــريس

وكما ترى فإن الألفاظ التي اختارها الشاعر لناقته تدل دلالة وافية على قوة الناقـة وصفاتها من صلابة وسرعة ونشاط، ولقد جـاء كـل لفـظ في مكانـه المناسـب ليـؤدي المعنى الذي أراده الشاعر على أحسن وجه، وللنظر نظرة سريعة إلى معجم ألفاظ الناقة عند عبيد لنتبين دقة الشاعر في الاختيار ولنقـف علـى غـزارة المـادة اللغويـة في وصـف الناقة وتدور أغلب صفات الناقة عند الشاعر حول هذه المعاني التي أشرنا إليها[١٧].

أما في شعر الفخر والحماسة عند الشاعر، فإن ألفاظه تبدو جزلة وقوية ويجنح عبيد هنا إلى الألفاظ الدالة على المجموع مما يزيد الأسلوب فخامة وروعة وجلالاً، كما يكثر من استخدام المشتقات وصيغ المبالغة وجموع المذكر السالم، ويكثر كذلـك مـن التعبـير بانا مما يقوي اللفظ ويؤكد المعنى ويمتاز شعر الفخر عنده بالإضافـة إلى جزالـة اللفـظ، فخامة المعنى وقوته وتأكيده، مما يوضح ذلك قولـه في وصـف الجيـش وقـوة بـني أسـد والأبيات من البحر البسيط[١٨]:

---

[١٤] ـ ديوانه ص٣٩.

[١٥] ـ ديوانه ص١١٠.

[١٦] ـ ديوانه ص٦٩.

[١٧] ـ لقد دارت صفات الناقة عند عبيد حول المعاني المشار اليها سابقا ونستطيع حصر معجم الفـاظ الناقـة عنده بالالفاظ التالية: ـ بادن: خبوب. عيرانه: مؤجد فقارها. حقه: نيـوب. فتـلاء الزراعيـن مرقـال. دفقـة وجناء. شملال: شملة. خيفانه. صهباء: السراة. تامك عنس. جمالية: أدم المراكـل. حـرف: جلالـه: ولـوس. علنداة. مذكر: موارة ممـراح. صيعريـة. عنـتريس. ناحيـة جسـره: زيافـة ذات برايـة. أجـد: أممـون رسـلة: بالاضافة الى الاسم الاشهر لها وهو الناقة. ومما تجدر الاشـارة اليـه أن هـذه الصفـات والالفـاظ قـد كـانت شائعة عند معظم الشعراء الجاهليين.

[١٨] ـ انظر ديوان عبيد بن الابرص ص٥٨.

دَعَا مَعَاشِرَ فَاسْتَكتْ مَسَامِعُهُمْ يَالَهْفَ نَفْسِي لَوْ تَدْعُو بَنِي أَسَدِ
تَدْعُو إذاً حَامِي الكُمَاةَ لا كَسِلاً إذا السُيُوفُ بِأَيْدي القَوْمَ كَالوَقَدِ
لَوْ هُمْ حُمَاتُكَ بِالَمحْمَى حَمَوْكَ وَلَمْ تُتْرَكْ لِيَوْمِ أَقَامَ النَاسَ في كَبَدِ
أَوْ لأتَوْكَ بجَمْعِ لا كِفَاءَ لَهُ قَوْمٌ هُمُ القَوْمُ في الأَنأى وَفي البُعُدِ
بجَحْفَلِ كَبَهِيْمِاللَيْلِ مُنْتَجِعِ أرضَالعَدُو لُهَامِ وافِرِ العَدَدِ
مِنْ كُلِ عِلْجِزَةٍ بَادٍ نواجذُهَا عَلَى اللجَامِ تُبَارِي الركْبَ في عَنَدِ

وقوله في وصف أسلحة الجيش "والأبيات من الكامل[١٩]:"

شُم كَأَن سَنَا القَوَانِس فَوْقَهُمْ نَارٌ عَلَى شُرَفِ اليَفَاع تَلَهبُ
وَهُمُ قَدِ اتخَذُوا الْحَدِيْدَ حَقَائِبا وَخِلا لَهُم أُدْمُ الرَاكِلِ تُجْنِبُ

وغالباًمايقترن وصف السلاح وأعمال القتال بوصف الجيش وجو الحرب عند الشاعر، وهذا شيء طبيعي عند الشاعر الجاهلي يقول عبيد عن ضخامة ذلك الجيش والأبيات من الكامل[٢٠]:

مُتَبَارِيَاتٍ فِي الأَعِنةِ قُطَبا يَحْمِلْنَ كُل مُنَازل قَمْقَام
سَلَفَاً لأَرْعَنَ مَا يَخِف ضَبَابُهُ مُتَقَنِس بَادِي الحَدِيدِ لُهَامِ
فِيْهِ الحَدِيدُ وَفِيْهِ كَل مَصُونَةٍ نَبْعِ وَكُل مُثَقفٍ وَحُسَامِ

ومن الملاحظ هنا أن الشاعر يذكر مايفيد أن بني أسد قد عرفوا الخوذات والقوانس الحديدية، ولعلهم بحكم مجاورتهم لكل من المناذرة والغساسنة على أطراف شبه الجزيرة قد عرفوا تلك الأنواع من الأسلحة، وأنهم غنموها في الحرب التي كانت مشتعلة بينهم وبين الغساسنة، وقد أشرنا إليها في أكثر من موضوع في هذاالبحث.

وعلى أية حال فالملاحظ أن الألفاظ التي اختارها الشاعر لغرضه على غاية من القوة والجزالة والدلالة، وهي تضعنا أمام منطق القوة وجهاً لوجه،، وقد عبر بها الشاعر عن جو الحرب والمعركة وأعمال القتال، مما كان واقعاًفي حياة القبيلة، وقد جنح الشاعر إلى المشتقات وصيغ المبالغة مما يتناسب مع جو الحرب والمعركة، ومال إلى الجموع كاسم

---

[١٩] ـ انظر ديوان عبيد ص٣ ـ ٤.
[٢٠] ـ انظر ديوانه ص١٢٣.

الفاعل وغيره من مثل قوله يصف فرسان بني أسد والأبيات "من السريع[21]":

كَمْ فِيْهِمُ مِنْ أَيِّدٍ سَيِّدٍ ... ذِي نَفَحَاتٍ قَائِلٌ فَاعِلُ
مَنْ قَوْلُهُ قَوْلٌ وَمَنْ فِعْلُهُ ... فِعْلٌ وَمَنْ نَائِلُهُ نَائِلُ
القَائِلُ القَوْلَ الذِي مِثْلُهُ ... يَمْرَعُ مِنْهُ البَلَدُ المَاحِلُ
لايَحْرِمُ السَّائِلَ إنْ جَاءَهُ ... ولايُعَفِّى سَيْبَهُ الْعَاذِلُ
الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ يَوْمَ الوَغَى ... يَذْهَلُ مِنْهَا البَطَلُ الْبَاسِلُ

ولعل الشاعر أراد باستعماله هذا أن يدلل على استمرارية حدوث الفصل في الزمن الماضي والحاضر، وإن تكراره ليدل على ذلك، ويكشف عن نظرة عبيد إلى أبناء قبيلته على أنهم كل لايتجزأ، فهم وحدة واحدة وخلق واحد، ولايكتفي الشاعر بتلك الصفات النبيلة والسجايا الحميدة بل يكشف لنا عن خصال أخرى ينفرد بها الأسديون فيقول والأبيات من البسيط[22]:

وَفِتْيَةٍ كَلِيُوثِ الْغَابِ مِنْ أَسَدٍ ... مَا لِلْنَدَى عَنْهُمُ نَزْحٌ وَلا شَحْطُ
بيضٌ بَهَا لِيْلُ يَنْفِي الْجَهْلَ حِلْمَهُمُ ... وَتَفْزَعُ الأَرْضُ مِنْهُمْ إنْ هُمُ سَخِطُوا
الفَارِجُو الكَرْبَ والغُمى بِرَأْيِهِمُ ... إِذَا تَشَابَهَتِ الأَهْوَاءُ والصرُطُ
والْقَائِلُو الفَصْلَ لا تُعْتَادُ طِيتُهمْ ... وَمَا لِقَوْلِهِمُ خُلْفٌ وَلا سَقَطُ
والخَالِطُو مُعْسِراً مِنْهُمْ بِمُوسِرِهِمْ ... وَأَكْرَمُ النَاس مَطْرُوقاً إِذَا اخْتُبِطُوا
مُرو اللقَاءِ وَثِيقُو العَقْدِ إنْ عَقَدُوا ... إِذَا أَضَاعَ مِنَالْمِيْثَاق مُشْتَرِطُ
لا يَحْسَبُونَ غِنَىً يَبْقَى وَلا عَدَمَا ... إِذَا رَأى ذَاكَ مِنْهُم مَعْشَرُ فَرَطُ

إن تلك الجموع التي جاء بها الشاعر، قد أكسبت المعنى روعة، وأضفت عليه هالة من الفخامة، وزادته قوة ومتانة، ودلت على أن بني أسد يتمتعون بأخلاق وسجايا واحدة، وإننا لنجد في حذف النون من تلك الجموع دليل تفرد في هذه الأخلاق، فهم وحدهم الذين يتميزون بها، وهذا مايريد عبيد أن يؤكده لنا من خلال ألفاظ فخره المسبوكة المحكمة الربط، وقدتعدى بها الشاعر مجال الفخر والإشادة بالمآثر، إلى مجال القيم والمعنويات والمثل الموروثة، فالألفاظ جزلة وفخمة وقوية ودالة على المعنى دلالة

---

[21] ـ انظر ديوان عبيد ص١٠٠.

[22] ـ انظر المرجع السابق ص٨٦ ـ ٨٧.

جلية، فصل فيها الشاعر منطلقاً من الكل إلى الجزء، أو لنقل أنه استطاع تركيب تلك الأجزاء في كل واضح وهو يصور لنا الجيش والفرسان والسلاح.

وإذا ماتصفحنا حكم الشاعر ونظراته الشخصية والمنثورة في ثنايا ديوانه وجدنا أن الألفاظ فيها تتفاوت في الجزالة والقوة، ويطبعها طابع تقريري وصفي لأمر فيها ولانهي، ولقد ساقها الشاعر في عمومية وشمولية، وكأنها موجهة إلى الإنسانية جمعاء في أي زمان ومكان، وهذا يتلاءم مع الحكمة وهي تعبر في مجملها عن نظرة الشاعر إلى شؤون الحياة المختلفة، قد اختارها للتعبير عن معانيه ألفاظاً جزلة مصبوبة غالباً في قوالب شرطية مما يشعرنا بصدقها وبحتمية القطع فيها من حيث إمكانية وقوعها، وقد امتازت ألفاظ الشاعر هنا بمتانة التركيب وصحة السبق وسهولة المأخذ، ويقول عبيد في معلقته[٢٣] :

إنْ يَـكُ حُـوِّلَ مِنْهَـا أَهْلُهَـا	فَـلا بَـدِي وَلا عَجِيْـبُ
أَوْ يَـكُ أَقْفَـرَ مِنْهَـا جَـوهَـا	وَعَادَهَـا المَحْـلُ والجُـدُوبُ
فَكُـل ذِي نِعْمَـةٍ مَخْلُوسُـها	وَكُـل ذِي أَمَـل مَكْـذُوبُ
وَكُـل ذي إبِـل مَـوْرُوثٌ	وَكُـل ذي سَـلَبٍ مَسْـلُوبُ
وَكُـل ذي غَيْبَـةٍ يَـؤُوبُ	وَغَـائِبُ المَـوْتِ لا يَـؤُوبُ

وانظر معي إلى هذا التكرار في بعض الألفاظ، فهو بالإضافة إلى إضفائه طابع التقرير في الأبيات، فإنه ساعد الشاعر على أن يسوق لنا معانيه بكل تؤدة وأناة وروية وتأكيد، وإن اسم المفعول في هذا المكان ليجعلنا نحس بخور العزيمة تجاه مايسوقه الشاعر من حقائق، وقد يستخدم الشاعر أسلوب النداء بالتنبيه على أهمية مايريد قوله من مثل قوله[٢٤]:

يَـا عَمْـرُو مَـارَاحَ مِـنْ قَـوْمٍ وَلاابْتَكَـرُوا	إلا وَلِلْمَـوْتِ في آثَـارِهِمْ حَـادِي
يَـا عَمْـرُو مَـاطَلَعَتْ شَـمْسٌ وَلاغَرَبَـتْ	إلا تَقَـرُبُ آجَـالٌ لِمِيْعَـادِ

إن تلك المقابلات اللطيفة بين طلعت وغربت وتكرار حرف الراء في البيت ليظهر لنا قوة بيان الشاعر عن غرضه، وتمكنه من زمام اللغة، وقد يجد الشاعر في استخدام أسلوب القسم لتأكيد مايريد من مثل قوله "والأبيات من المتقارب:"

وَا للهِ إنْ مِـتُ مَـا ضَرنِـي	وَإنْ عِشْـتُ مَـا عِشْـتُ في واحِـدَة
فَلَـا تَجْزَعُـوا لِحِمَـامٍ دَنَـا	فَلِلْمَـوْتِ مَـا تَلِـدُ الوَالِـدَة

---

[٢٣] ـ انظر ديوان عبيد ص١١ وانظر الى القصيدة رقم ١٩ حيث يستخدم الشاعر اسلوب الشرط.

[٢٤] ـ انظر المرجع السابق ص٤٨ ـ وقد اشرنا الى أن التكرار هو احدى مميزات شعر عبيد.

فَـــو الله ـِإنْ عِشْـــتُ مَـــا سَـــر نِـــــي   وَإن مِـــــــت ماكَـــــانَتِ الْعَـــــائِدَةْ

لقد اختار الشاعر للتعبير عن حكمته من الألفاظ ماعبر حَق أعن الفناء وتغير الأحوال، والموت والحياة، وقد سيطر جو الحزن والكآبة على كل لفظ فيها، والألفاظ هنا مختلفة عن سابقاتها في الأغراض الأخرى، فهي توحي بالتحول والزوال من مثل حول بدئ أقفر. المحل الجدوب: مخلوس مكذوب. موروث: مسلوب. غيبة: غائب لايؤوب: مات. حمام: عائدة.

وقد أكثر الشاعر من استخدام اسم المفعول للتعبير عن حكمه ويبدو أن لهذا عنده دلالة تفيد ضعف الإنسان أمام قوى القدر العاتية الجبارة.

وقد لاحظنا من خلال ماسقناه من أمثلة عن الألفاظ والتراكيب والصيغ شيوع ألوان البديع عند عبيد من طباق وجناس ومقابلة وغير ذلك: مما يدل على معرفة الشاعر الجاهلي لكل ألوان البيان والبديع غير أنه لم يكن ليستخدمها تكلفاً أوتصنعاً و لم تكن عنده غاية بحد ذاتها، وإنما كان يعرض لها عفو الخاطر. ولعل هذا سر جمالها في الشعر والنثر، فالطباق في معلقته يمثل لنا التضاد بين المعاني المختلفة، ولعله يبرز لنا من خلاله تناقضات الحياة والتحول من النقيض إلى النقيض.

وهكذا وقفنا على الألفاظ والصيغ والتراكيب في شعر عبيد بن الأبرص وقد كانت متفاوتة من عريض للآخر جزالة وقوة ودلالة ويبدو جهد الشاعر واضحاً في إعمال فكره فيها ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن اختيارها قد تم بكل دقة للتعبير عن المعاني المرادة.

ويلاحظ أن شاعرنا يعنى كثيراً باختيار ألفاظه، ويجود في صنعته اللفظية أحياناً، ويظهر هذا بوضوح في بعض شعره الوصفي مما قد يدعو إلى القول بأن هذا يعد بوادر ظهور اتجاه إلى الصنعة عند الشاعر والواقع أن عبيداًأقرب إلى مذهب الطبع منه إلى التكلف والتصنع.

وإذا كان يجنح أحياناً إلى بعض الألفاظ التي نظن أنها وعرة وخشنة[٢٥] فربما كانت في عصره سهلة متداولة او لعله أتى بها لإظهار قدرته على التلاعب باللغة وليدلل على طول باعه في نظم الشعر.

---

[٢٥] ـ انظر ديوان عبيد ابن الابرص ص٧٦ ـ ٧٧ والواقع أن الالفاظ عند شاعرنا قد استحوذت ـ قبلنا ـ على اهتمام الدكتور حسين نصار، فتفضل مشكورا بايراد ثبت لها في نهاية تحقيقه لديوان الشاعر وقد جعلها مرتبة بحسب الحروف الهجائية وتقع في عشرين صفحة أو تزيد ومن أراد الاطلاع عليها فاليرجع الى ديوان الشاعر بتحقيق الدكتور حسين نصار طبع ونشر مصطفى البابى الحلبي واولاده بمصر عام ١٩٥٧.

الفصل الثالث

البناء الفني للقصيدة

عند حديثنا عن بناء القصيدة الجاهلية، يطالعنا رأي الجاحظ حول نشأة العصر الجاهلي وخلاصة قوله "وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن أول من نهج سبيله وسهل إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة فإذا مااستظهرنا الشعر وجدناه له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا ما استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام[1].

والجاحظ بهذا يثبت فكرة البساطة على أن الشيء يكون في البداية صغيراً ثم يكبر، كما أنه يقر نظام القصيدة الجاهلية الذي بين أيدينا ونحن لانوافق الجاحظ على ماذهب إليه، ولو كان حكم الجاحظ صحيحاً لوجب أن تكون قصائد عبيد بن الأبرص مثلاً أقل شأناً من قصائد لاحقيه وكذلك قصائد معاصريه من أمثال امرئ القيس على اعتبار أنهما من أقدم الفحول الجاهليين الذين وصل إلينا شعرهم ويعارض الدكتور نجيب محمد البهبيتي في كتابه تاريخ الشعر العربي حتىالقرن الثالث الهجري ماذهب إليه الجاحظ فيقول "إن الشعر العربي والحضارة العربية أقدم من ذلك بكثير، وبخاصة على أطراف الجزيرة العربية وإن القصيدة العربية قديمة قدم هذه الحضارة، ثم أن النمو الطبيعي للقصيدة العربية أوزانها وموضوعاتها وأساليبها ولغتها وإيجازها يستدعي أن تكون مرت قبل زمن امرئ القيس بأطوار كثيرة، وتعثرت عثرات جمة

---

[1] ـ انظر الحيوان للجاحظ طبع مصطفى البابى الحلبي وأولاده الجزء الأول ص٧٤.

حتى اكتمل لها هذا الشكل الذي نجدها عليه في شعر امرئ القيس ومن جاء بعده[٢].

وهذا يؤيد ماذهبنا إليه من أن عبيد بن الأبرص كان يمثل المرحلة السابقة لامرئ القيس، من حيث نضج القصيدة العربية وزناً، ولغة وأسلوباً، وقد أشرنا إلى التأثيرات التي خلفها عبيد في شعر امرئ القيس وغيره ممن جاؤوا بعده.

ويقول كارلو نالينو "والحق أن من يسرح أبصاره في رياض الشعر الجاهلي لايجد في شذراته التي نجت من أيدي الضياع مايدل على كونه فناًصغير السن فإن جميع مانقل إلينا منه يظهر لنا في غاية الإتقان وزناً وتقفية وفي نهاية التفنن من الافتخار، والتحضيض، والزجر والإغراء، والوعد والوعيد... وهو يجمع رقة العبارة إلى دقة الإشارة، ومتانة التراكيب إلى رشاقة الأسلوب، فليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة لأنه من المعلوم أن كل مبتدئ لشيء لم يسبق إليه..."[٣] وخلاصة القول أن العلماء من العرب الذين قالوا بمدة مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي لم يعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ماوصل إلينا من الأشعار القديمة.

أما عن نظام القصيدة الجاهلية وبنائها الفني، فأول إشارة نتلقاها حول هذا العدد كانت من ابن قتيبة، إذ يقول "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى، وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذا كان نازلة العمد في احلول والظعن على خلال ماعليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلىماء، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الجد، وألم الفراق وفرط الصبابة، والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه.... فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقدر عنه مانا له من المكاره في المسير، بدأفي المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح[٤] .

---

[٢] ـ انظر تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري للدكتور نجيب محمد البهبيتى طبع مؤسسة الخانجي سنة ١٩٦١ ص٣٨ الى ص٤٦.

[٣] ـ تاريخ الآداب العربية. كارلو نالينو الطبعة الثانية ١٩٧٠ دار المعارف ص٦٨ ـ ٦٩.

[٤] ـ الشعر والشعراء لابن الكتيبة طبع دار المعارف ١٩٦٦ ص٧٤ ـ ٧٥ الجزء الأول.

وقد أدى هذا إلى تصور نظام فيه شيء من الخطأ للقصيدة الحالية وقد ساق لنا الدكتور حسين عطوان في كتابه "مقدمة القصيدة العربية" نماذج عديدة من المقدمات التي لايبدأ أصحابها بالوقوف على الأطلال كالمقدمات الخمرية، والفروسية، وبكاء الشباب[٥].

ويرى ابن رشيق في كتابه "العمدة": "إن بعض الشعراء لايجعل لكلامه بسطاً من النسيب، بل يهجم على مايريده مكافحة، ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم هو الوثب والبتر والقطع[٦].

وعلى الرغم من أن عبيد بن الأبرص يعد من أوائل من رسخوا هذه المقدمة الطللية في القصيدة الجاهلية إلا أننا نراه يشذ عنها في بعض الأحيان ويبدأ بداية بعيدة عن الطلل، كالفخر مثلاًإذ يقول في مطلع قصيدة له "من الكامل[٧]:"

أُنْبِئْتُ أَن بَنِي جَدِيلَةَ أَوْعَبُوا نُفَرَاءَ مِنْ سَلْمَى لَنَا وَتَكَتَّبُوا

وقد يبدأالنسيب دون ذكر الأطلال والدمن، إذ يقول من الطويل[٨]:

أَمِنْ أُم سَلْم تِلْكَ لا تَسْتَرِيحُ وَلَيْسَ لِحَاجَاتِ الفُؤَادِ مُرِيحُ

وقد يبدأ بخطاب العاذل، أو الحكمة، أو الوصف، وإذن فليست بداية القصيدة أو مقدمتها واجبة الارتباط والأطلال، فقد يعدل الشاعر عن هذا إلى أي غرض آخر من الأغراض الشعرية.

إن نظرة متأنية في شعر عبيد تقودنا إلى القول أن عبيداً لم يلتزم نهجاً محدوداً في قصائده الطوال،بل كان يبدأ قصيدته بالأطلال تارة وبالنسيب تارة، وقد يفتخر أو يصف المطر أو البرق، أو يبدأ بالحكمة وغير ذلك.

وسوف نعرج على بعض قصائده التي بدأها بالوقوف على الأطلال كقوله والأبيات من الخفيف:

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدفِيْن ببَال فَلِوى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَيْ أُثَال

---

[٥] ـ انظر مقدمة القصيدة العربية للدكتور حسين عطوان.

[٦] ـ انظر العمدة لابن رشيقالجزء الأول ص٢٣١ ط٤ مطبعة دار الجيل بيروت ١٩٧٢.

[٧] ـ انظر ديوان عبيد ابن الابرص ص٣.

[٨] ـ انظر المرجع السابق ص٢٩.

فَـــالمَرْوَرَاةُ فالصَّفِيْحَـــــةُ قَفْــــرٌ   كَـــــل وَادٍ وَرَوْضَـــــةٍ مِحْــــلا ل

ويستمر الشاعر في وصف الأطلال، ويرسم لنا صورة متكاملة لمشهد الطلل فيقول موجهاً الخطاب إلى الدار[9]:

دَارُ حـــيّ أَصَــابَهُمْ ســالِفُ الدهْــ   ـر فَـــأَضْحَتْ دِيَـــارُهُمْ كَـــالخِلا ل

مُقْفِـــــرَاتٍ إلا رَمَـــــاداً غبيــــاً   وَبَقايَـــا مِـــنْ دِمْنَــــةِ الأَطْــــلا ل

وَأَوارِي قَـــــدْ عَفَــــوْنَ وَنُؤْيـــا   وَرُسُـــوماً عُـــرِ يْـــنَ مُــذْ أَحْـــوَال

ونجد عبيد في قصيدته هذه يقف على الأطلال ويصف رسومها الدائرة وآثار فيها السفع التي اعتورتها السنون، عدا عليها الدهـر وهـو في هـذا يقـود الشـعراء الجـاهليين الذين أعقبوه إلى سنة يبدو أنه كان من أوائل من استنوها ولانعـدو الحقيقـة إن قلنـا أن عبيداً كان أستاذاً لمـن خلفـه مـن الشـعراء في إرسـاء نهـج القصيـدة العربيـة في العصـر الجاهلي والذي أصبح تقليداً عاش عدة قرون بعد وفاة هذا الشاعر الكبير.

وسوف نقف عند نماذج أخرى مـن قصـائد نخرج بهـا مـن المطلـع الطللـي أولهـا النسب إذ يقول "والقصيدة من الطويل[10]":

أَمِـــنْ أُمِّ سَـــلْمٍ تِلْــكَ لا تَسْــتَرِيحُ   وَلَيْــسَ لِحَاجَـــاتِ الفُؤادِ مُرِيـــحُ

إذا ذُقْــتُ فَاهَـــا قُلْــتُ طَعْـــمَ مُدَامَــةٍ   مُشَعْشَـــعَةٍ تُرْخِـــي الإزَارَ قَدِيـــحُ

بِمـــاءِ سَــحَابٍ مِـــنْ أبـــاريقِ فِضـــةٍ   لَهَـــا ثَمَـــنٌ في البَـــائِعِيْنَ رَبِيـــحُ

ولكن سرعان ماينصرف من الغزل إلى وصف الظعـائن، فهـو لايطيـل كعادتـه في أبيات الغزل، وكأنه يتعفف عن التفصيل فيها على العكس من امـرئ القيـس معـاصره الذي كان كثيراً ما يطيل ويسهب في الغزل والنسب ويذكـر أدق التفصيـلات، ولعـل معلقته أكبر دليل على ذلك.

ولو تتبعنا ديوان عبيد لوجدنا أن قصائده الـتي بدأهـا بـالغزل والنسـيب لاتتجـاوز أصابع اليد الواحدة، وقد لاتتعدى البيت الأول كقوله "والبيت من البسيط"[11]:

---

[9] ـ ديوانـه ص١٠٦ وانظـر قصـائده ذات الأرقـام ٤، ٥، ٦، ١٩، ٢٨، ٣١، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥١.

[10] ـ انظر ديوان عبيد القصيدة رقم ١٠ .

[11] ـ انظر المرجع السابق ص٤٧.

طَافَ الخَيَالُ عَلَيْنَا لَيْلَةَ الوَادِيْ   مِنْ أُمِ عَمْرٍ وَلَمْ يُلْمِمْ لِمِيْعَادِ

فهو ينتقل في البيت الثاني إلى وصف الظعائن فيقول:

أَنى اهْتَدَيْتَ لِركْبٍ طَالَ سَيْرُهُمُ   فِي سَبْسَبٍ بَيْنَ دكْدَاكٍ وَأَعْقَادِ

على أن أكثر ابياته طولاً في الغزل جاءت في قصيدته الضادية يقول "من الطويل:"

تَبصَّرْ خَلِيْلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ   سَلَكْنَ غُمَيْراً دُونَهُنَ غُمُوصُ

إذ انتقل مباشرة إلى وصف الظاعنات والحديث عن جمالهن، وإشراقهن، وقد جمع هذه الأوصاف بإيجاز في بيت واحد، ثم انتقل إلى الحديث عن مغامراته في بيتين فقط، وانصرف بعد ذلك إلى الحديث عن ناقته يقول[١٢]:

وَفَوْقَ الجِمَالِ النّاعِجَاتِ كَوَاعِبٌ   مَخَامِيصُ أَبْكَارٌ أَوَانِسُ بِيْضُ

وَبَيْتِ عَذَارَى يَرْتَمِيْنَ بَخِدْرِهِ   دَخَلْتُ وَفِيْهِ عَانِسٌ وَمَرِيْضُ

فَأَقْرَضْتُهَا وُدّي لأُجْزَاهُ إنمَا   تَدُق أَيَادِي الصّالِحِيْنَ قُرُوضُ

ومهما يكن من أمر فإن من أبرز قصائده التي لم يبدأها ببكاء الأطلال وإنما بدأها بالفخر، نونيته التي بدأها موجها خطابه إلىامرئ القيس "من الكامل المرفل[١٣]:"

يَاذَا الْمُخَوفُنَا بقَتْـ   ـلِ أبيهِ إذْلالاً وَحَيْنَا

أَزَعَمْتَ أَنَكَ قَدْ قَتَلْـ   ـتَ سَرَاتَنَا كَذِبَاً وَمَيْنَا

فقد اختلط فيها الفخر بالوعيد، أو قل جاء الفخر في المطلع لابساً ثوب الوعيد والتهديد، وقد يشترك مع هذه القصيدة قصيدة أخرى افتخر الشاعر بها بقومه بني أسد وهي التي يخاطب بها بني جديلة "من الكامل[١٤]:"

أُنْبئْتُ أَن بَنِي جَدِيلَةَ أَوْعَبُوا   نُفَرَاءَ مِنْ سَلْمَى لَنَا وَتَكَتَّبُوا

ومن القصائد التي خرج فيها الشاعر على النهج المألوف قصيدة بدأها بلوم زوجته[١٥] وأخرى بدأها بنداء الصاحب أو الرفيق[١٦].

---

[١٢] ـ انظر ديوان عبيد بن الابرص القصيدة ٣١وانظر ايضا قصيدته رقم ٤٩ وحديثه عن هند.
[١٣] ـ انظر المرجع السابق القصيدة رقم ٥٢.
[١٤] ـ انظر المرجع السابق القصيدة رقم ٣.
[١٥] ـ انظر المرجع السابق القصيدة رقم ١١.
[١٦] ـ انظر المرجع السابق القصيدة رقم ١٢.

ولانعدم وجود قصائد أخرى بدأها بوصف مظاهر الطبيعة من برق، أو مطر أو سحاب وأطال في وصفه من مثل قوله "من الوافر[17]":

أَرِقْتُ لِضَوْءِ بَرْقٍ فِي نَشَاص تَلَأْلَأَ فِي مُمَلَّأَةٍ غِصَاص

وقد بلغ وصفه سبعة أبيات، ومع هذا كله فإن معظم قصائد الشاعر الطويلة تبدأ بالوقوف على الأطلال، ومانظن باقي المطالع في شعره إلا مطابع عارضة لم يكثر منها الشاعر، وكأنه لم يأتي بها إلا ليؤكد لنا أنه لايريد أن نعيش بين الأطلال الدافرة، والديار الخربة طوال رحلتنا معه بل أراد أن يوقظنا وينبهنا من حين لآخر إلى أن في الحياة أشياء أخرى أجدر بالاهتمام من تلك الحجارة الصماء، كالفخر والوصف والنسيب والحكمة.

أو لعل هذه المطالع التي خالفت النهج المألوف في شعر عبيد ولم تبدأ ببكاء الأطلال كانت قصائد ناقصة قد عبثت بها يد الزمن فاجتزأت منها تلك المقدمات الطللية، واجتهد الرواة من جانبهم فوضعوا ماوافق أهواءهم من مطالع لها كي لانحس أنها مبتورة بتراً، وليس هذا ببعيد فابن سلام الجمحي يقول بضياع الجزء الأكبر من الشعر الجاهلي، وأن ماوصلنا نزر قليل، فلا غرو إذن إذا ضاع معظم شعر عبيد وهو من أقدم الشعراء الجاهليين الذين وصلت إلينا أشعارهم[18].

والناظر في ديوان شاعرنا يرى أن المقطعات تكثر فيه كثرة واضحة ويميل الدكتور عثمان موافي إلى القول في كتبه "من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم" بأن تلك المقطعات كانت هي البداية لنشأة القصيدة العربية الطويلة متعددة الموضوعات[19].

ونحن نرى صحة رأي الدكتور موافي وسلامته وأنه من الطبيعي ألا تظهر القصيدة العربية دفعة واحدة كاملة النضج والتكوين بل لابد وأنها مرت بمراحل عديدة قبل أن تصل إلينا على هذا النحو، وإذا ماسرنا على التقسيم المعروف للقصيدة العربية من وصف للأطلال ثم الظعائن، ثم الرحلة، فالانصراف إلى الغرض الأصلي فنحن

---

[17] ـ انظر المرجع السابق القصيدة رقم ٣٠.

[18] ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن الجمحى الجزء الاول ص٢١ و ما بعدها.

[19] ـ انظر قضايا الشعراء و النثر في النقد العربي القديم للاستاذ الدكتور عثمان موافى نشر مؤسسة الجامعية بالاسكندرية الفصل الخاص بالشكل الفنى و الموضوع ص٣٧.

واجدون غالبية قصائد عبيد خاضعة لهذا التقسيم المنهجي مما يجعلنا نفترض أنه من أوائل من طوروا وقعدوا هذا النهج الفني للقصيدة العربية، وقد لاحظنا من خلال استقرائنا لشعر عبيد ودراسته وإجالة النظر في قصائده الطويلة بالذات أن المقدمة عند هذا الشاعر سواءاً منها المقدمة الطللية أم غيرها قصيرة لدرجة ملفتة للنظر،إذ سرعان مايتخلص الشاعر منها إلى غيرها، ولعل وقفة مع إحدى هذه القصائد توضح لنا شيئاًعن المنهج الذي اتبعه شاعرنا في جل قصائد ديوانه، وعلى سبيل المثال لا الحصر نقف عند قصيدته التي بدأها بالوقوف على الأطلال والتي يرد فيها على امرئ القيس ووعيده لبني أسد يقول "من الكامل:"

حَلَتْ كُبَيْشَةُ بَطْنَ ذاتِ رُوَام وَعَفَتْ مَنَازِلُها بجُوٍّ بَرَام

ويستمر في وصف الأطلال مستغرقاً خمسة أبيات، ثم ينتقل إلى امرئ القيس فجأة ليستهزئ منه في بيتين قائلاً:

يَاذَا المُخَوفُنَا بمَقْتَل شَيْخِهِ حُجْرتَمَنّى صَاحِبَ الأَحْلام

لا تَبْكِنَا سَفَهَاً وَلا سَادَاتِنا واجْعَلْ بُكاءَكَ لابْنِ أُم قَطَامِ

وينتقل بعد ذلك إلى وصف مقتل حجر فيستغرق ذلك منه سبعة أبيات يقول مصوراً مقتله[٢٠] :

حُجْرٌ غَدَاةَ تَعَاوَرَتْهُ رِمَاحُنَا بالقَاعِ بَيْنَ صَفَاصِفٍ وَأَكَام

حَتّى خَطَرْنَ بِهِ وَهُنَ شَوَارِعٌ مِنْ بَيْنِ مُقْتَصِدٍ وَآخَرَ دَامِ

وقد جاء هذا الوصف ممزوجاً بالفخر بقومه إلى أن أتى على القصيدة كلها والتي تصل إلى عشرين بيتاً.

ومما يستوقف الباحث في شعر عبيد أن قصائده خلت من المدح أيضاً بالإضافة إلى اختزال الغزل والنسيب لذا فإننا نجد أن مايعقب المقدمة عنده مكون من خليط من أغراض شتى كالفخر، والحديث عن مآثر القبيلة حيث نالا الحظ الأوفر في هذا المجال.

ويعد البيت وحدة موضوعية قائمة بذاتها عند عبيد، دون الحاجة إلى مايسبقه أو يليه، ولعل مايجمع أبيات القصيدة الواحدة هو ذلك الخيط النفسي الذي ينظم الأبيات

---

[٢٠] ـ انظر ديوان عبيد بن الابرص ص١٢١وانظر القصائد ذات الأرقام ٨، ٥، ٣، ٤٣، ٥٠، ٥٢.

جميعها، والذي يمكن لنا أن نتبينه بعد إنعام نظر وإجالة فكر، وحول هذه الفكرة يقول الدكتور نوري حمودي القيسي:

"إن وحدة الفكر في القصيدة الجاهلية لم تكن وحدة مفروضة تقتضيها بعض أطراف الصورة، أو تلزمها طبيعة التركيب الشعري، وإنما هي وحدة قائمة منذ البداية، لأن الشاعر الذي يضع الصيغة الشعرية لأبيات القصيدة ينطلق من فكرة البناء الأول، وهي تتحدد في إطار الغرض الذي يرمي إليه الشاعر"[٢١].

وحول وحدة الموضوع في القصيدة العربية القديمة يقول الدكتور محمد زكي العشماوي أيضاً: "ونحن عندما نقرر خلو القصيدة القديمة من الوحدة العضوية إنما نضع في اعتبارنا جملة من العوامل التي تتصل بالبيئة العربية القديمة، من حيث طبيعتها الجغرافية، ومن حيث حياتها الاجتماعية والاقتصادية، وماكان يسود هذه الحياة من تقاليد، ومايتتشر فيها من قيم، فإن دراسة الحياة العربية قبل الإسلام في شتى نواحيه المختلفة هي المنهج الوحيد الذي يكشف للباحث عن الأسباب التي جعلت القصيدة العربية القديمة تتخذ هذاالشكل دون سواه، وتتجه هذا الاتجاه في بنيتها وشكلها ومضمونها"[٢٢].

والواقع أننا لانستطيع التسليم بوحدة الفكر في القصيدة الجاهلية كما قررها الدكتور نوري حمودي القيسي، ونميل مع الرأي القائل أن القصيدة شكل متأخر عن المقطوعة، وأن التخلخل في بنائها للوحدة العضوية لايرجعان إلى ضياع أجزاء منها أو إلى تجميع الرواة في عصر التدوين لبعض المقطوعات للشاعر الواحد وضمها في قصيدة واحدة، وإنما يرجعان في حقيقة الأمر إلى أن الشاعر العربي لم يكن يهتم بهذا البناء العضوي إذ كان يبني قصيدته وأحاسيسه مع الشكل القديم، وهو قالب المقطوعة، ولم يكن يجد غضاضة في ذلك، فهو تقليد سار عليه حتى أن النقاد اعتبروا ذلك هو الأسلوب الطبيعي في بناء القصيدة العربية"[٢٣] وبخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن

---

[٢١] ـ انظر وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية للدكتور نورى حمودى القيسى طبع مؤسسة دار الكتب للطباعة الموصل ١٩٧٤ ص٩٧ ـ ٩٨.

[٢٢] ـ انظر قضايا النقد الادبي المعاصر للدكتور محمد زكي العشماوى ص١٢٥.

[٢٣] ـ صاحب هذا الرأي الدكتور عثمان موافى في كتابه من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم

شاعرنا يعد من أوائل الجاهليين الذين وصلتنا أشعارهم.

وإذا ماتصفحنا المقطوعات القصيرة التي جاءت في ديوان شاعرنا وهي كثيرة فيه فإننا سنجد أن الوحدة الموضوعية ظاهرة فيها وبارزة، وذلك على عكس القصائد الطويلة عنده، فالمقطوعة غالباً ماتعالج غرضاً واحداً يهدف إليه الشاعر وعلى سبيل المثال يقول عبيد في إحدى مقطوعاته، وهي مؤلفة من أربعة أبيات يصف فيها البرق والرعد "من المنسرح[٢٤]:"

مَا رَعَدَتْ رَعْدَةً وَلا بَرَقَتْ ... لَكِنَّهَا أُنْشِئَتْ لَنَا خَلِقَةْ

المَاءُ يَجْرِي عَلَى نِظَامٍ لَهُ ... لَوْ يَجِدُ المَاءُ مَخْرَقاً خَرَقَهْ

بِتْنَا وَبَاتَتْ عَلَى نَمَارِقِهَا ... حَتَّى بَدا الصبح عَيْنُهَا أَرِقَةْ

إنْ قِيْلَ أَن الرَحِيْلَ بَعْدَ غَدٍ ... وَالدارُ بَعْدَ الجَمِيْعِ مُفْتَرِقَةْ

وهناك الكثير من المقطوعات المبثوثة في ثنايا الديوان، حيث يعالج الشاعر في أغلبها غرضاً واحداًفي كل مقطوعة، كالبكاء علىالأهل، أو وصف الفرس أو الحديث عن همومه، أو قول حكمة، أو في الحديث عن الموت إلى غير ذلك من الأغراض.

وهكذا فإننا نلمس هذاالاختلاف البين بين القصيدة والمقطوعة الشعرية عند عبيد من حيث بنية القصيدة ووحدتها الموضوعية، وقد رأينا أن القصائد عنده جاءت متنوعة الموضوعات، ينتقل الشاعر فيها من موضوع إلى آخر دون ربط محكم بينها، شأنه في ذلك شأن معظم شعراء تلك الفترة المتقدمة من الجاهلية لكننا لانرى الشاعر فيها مغالياً، ولامغلباً موضوعاً على آخر مما يجعل صورة القصيدة عنده تتصف بصفة التوازن، وهذا ينطبق علىأغلب أغراض الشعر عند عبيد باستثناء الفخر بالقبيلة وبمآثرها حيث يكثر الشاعر منه كثرة مفرطة، وهذا طبيعي من شاعر كعبيد عاش في تلك الفترة المتقدمة في بيئة قبيلته بحتة القبلية فيها هي الأهم.

ومما تجدر الملاحظة إليه في البناء الفني للقصيدة عنده أن مطالعه الغزلية قصيرة

ص٣٧ وانظر رأي الدكتور سيد حنفى في كتابه الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية والادبية ص٢٧ ـ ٢٨ حيث يتفق مع رأي الدكتور موافى.

[٢٤] ـ انظر ديوان عبيد بن الابرص ص٩٠ المقطوعة ٣٥ وانظر المقطوعات ذوات الارقام: ١، ٤، ٧، ٩، ١٤، ١٥، ١٧، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٤٤، ٤٥، ٤٦.

مقتضبة إذ سرعان مايتخلص منها إلى غرض آخر، كما يلاحظ أن شــعره تغلــب عليـه الصبغة الذاتية التي تفصح لنا عن شخصيته وهويته الحزينة التي تلفها الكآبــة، ويكتنفهـا اليأس بوجه عام وبخاصة في الشطر الثاني من حياتهالأمر الذي نرجح معــه عـدم إطالتـه في تلك المطالع الغزلية وانصرافه عن المرأة إلى مايشغله من أمور الحياة.

الفصل الرابع

الأوزان والقوافي

لاشك أن الوزن ركن هام من أركان الشعر، وليس بين أيدينا مايدل على كيفية نشأة الأوزان الشعرية وتطورها في الشعر العربي، فقد جاء الرواة والإخباريون بالشعر الموزون على هذا النحو الذي وصل إلينا، وكان ذلك إبان القرن السادس الميلادي، وإن مابين أيدينا من ذلك الشعر ليدل على نضج وتمام في الوزن والقافية، وحول هذه النقطة يقول الدكتور شوقي ضيف "لاريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى، وإنما بين أيدينا هذه الصورة التامةلقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة، من وزن وقافية وأساليب وموضوعات وصياغات محكمة، ويشير الدكتور ضيف إلى قصيدة عبيد بن الأبرص فيقول: "وتلقانا هذه الصورة التامة للقصيدة الجاهلية، وحقاً إن العروض مختل فيها، فهي من مخلع البسيط، وقلما يخلو بيت فيها من حذف أو زيادة في بعض تفاعيله، ومثلها قصيدة امرئ القيس التي مطلعها[1] :

عَيْنَــــاكَ دَمْعُهُمَــــا سِــــجَالُ كَــــأَن شَــــأْنَيْهِمَا أَوْشَــــالُ[2]

ويذهب بعض الدارسين إلى أن الحداء "وهو من بحر الرجز"كان البداية الحقيقية لنشأة فن الغناء، ويفترض أن هذا البحر كان أقدم أوزان الشعر العربي[3].

ويقول الدكتور ضيف في هذاالصدد "وكل مايمكن أن يقال هو أن الرجز كان

---

[1] ـ انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقى ص١٨٣ ـ ١٨٤.

[2] ـ انظر ديوان امرئ القيس تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم طبع دار المعارف بمصر ص١٨٩.

[3] ـ انظر تاريخ الموسيقى العربية لفارمر ص٢٣ ترجمة الدكتور حسين نصار طبع مكتبة الفجالة بمصر.

أكثر أوزان الشعر العربي شيوعاً في الجاهلية، ولكن شيوعه لايعني قدمه ولاسبقه للأوزان الأخرى، وكان الشعراء الممتازون في الجاهلية لاينظمون منه إنما ينظمون من الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمتقارب والمنسرح والخفيف والمديد.

ونحن نوافق الدكتور ضيف على أن الرجز ليس أقدم الأوزان الشعرية ولا أسبقها في الظهور، ويذهب بعض الباحثين إلى أن الغناء العربي في الجاهلية كان متطوراً بل يرجحون وجود نظرية بهذاالشأن تقوم على الإيقاع الموزون ولها طرائفها الفنية[4].

ونستبعد وجود هذه النظرية عندالجاهليين، وصحيح أن ارتباط الشعر بالموسيقى هو ارتباط وثيق، فهما وليدا العاطفة الإنسانية، والباعث عليهما واحد، فموسيقا الألفاظ في الشعر تقابلها موسيقى النغم في الموسيقى، وصحيح أن بعض الرواة من القدماء قالوا أن بعض الشعراء الجاهليين كانوا يغنون شعرهم وينشدونه إنشادا، وقد روى أبو الفرج في الأغاني أن بعض قصائد عبيد بن الأبرص كانت تغنى في عصره ويذكر عدة قصائد له من مثل قصيدته التي مطلعها "وهي من البسيط:"

طَافَ الخَيَالُ عَلَيْنَا لَيْلَةَ الوادِي ... مِنْ أُم عَمْرُو ولمْ يُلَمِمْ لِمِيْعَادِ

ويضيف أبو الفرج قائلاً أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع يقول لنساء بني مخزوم وهن يبكين على خالد بن الوليد رضي الله عنه: ليقلن في أبي سليمان ماشئن فإنهن لايكذبن، وعلى مثل هذا تبكي البواكي فقال له طلحة بن عبد الله: وإنك وإياه لكما قال عبيد بن الأبرص "والبيت من البسيط:"

لا أُلْفِينك بَعْدَ المَوْتِ تَنْدُبُنِي ... وَفِي حَيَاتِي مَازَوْدْتَنِي زادِي

ويشير أبو الفرج إلى قصيدة أخرى من قصائد عبيد التي مطلعها[5]:

لِمَنْ جمَالٌ قُبَيْلَ الصبْحِ مَزْمُومَةْ ... مُيَمّمَاتٍ بِلاداً غَيْرَ مَعْلُومَةْ

نقول: ليس معنى هذا أن هناك نظرية غنائية لها طرائقها الفنية كانت موجودة عند الجاهليين، وكل مافي الأمل أن هؤلاء كان عندهم ضرب من الحداء يغنون به وهم على ظهور إبلهم ولكن لاندري لى وجه الدقة هل لحن هذا الغناء عربي خالص أو أن المؤشرات الأجنبية من فارسية ويونانية قد دخلت في تشكيله وتطويره؟ ذلك أن معظم

---

[4] ـ انظر القيان و الغناء فى العصر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الأسد الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ١٩٦٨ ـ ص١٢٨.

[5] ـ انظر الاغانى لابى الفرج المجلد ١٩ ص١٧٩ ـ ١٨٣.

المغنيات كن من الجواري الأجنبيات. هذا مايقوله فارمر[٦].

ولايستبعد وجود نوع من الغناء العربي الموزون والملحن عندالجاهليين ولكن ليس إلى درجة تكوين نظرية تامة الجوانب، ويشير كل من ابن خلدون والمرزباني إلى فكرة ارتباط الشعر والوزن بالموسيقى، ويرى ابن خلدون "أن الحسن المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة يكون من الأصوات المتناسبة لاالمتنافرة[٧].

أما المرزباني فخلاصة رأيه في هذا الموضوع هي: "أن الشعر غناء وما الشاعر إلا مغن ويورد قول حسان بن ثابت:

تَغَنَّ في كُلِّ شِعْرٍأنتَ قَائِلُهُ　　　إن الغِنَاءَ لِهذَا الشِعْرِ مِضْمَارُ

وعلى هذا فإن المرزباني يجعل الشعر والموسيقى توأمين[٨].

وخلاصة القولِ في ارتباط الشعر الموزون بالموسيقى، أن كلا الإثنين يرتبط بصاحبه ارتباطاً وثيقاً منذ أقدم العصور، ويصعب على الباحث الوصول إلى رأي قاطع في هذا الموضوع.

لقد لاحظ الشعراء الجاهليون وحدة الوزن، وهي ماسمي فيما بعد بالتفعيلة فالتزموها في أبيات القصيدة كلها، ومنهم من زاد على ذلك فالتزم في القافية أكثر من حرف كما نجد في معلقة لبيد، وتعتبر القافية في الشعر على درجة كبيرة من الأهمية، لارتباطها بالوزن والموسيقى، وأغلب الظن أن الشاعر الجاهلي لم يكن يربط بين اختيار قوافيه وبحوره، وبين الموضوعات الشعريةِ المطروقة كما يشيع اليوم على ألسنة بعض الدارسين، وأنه كان يأتي ذلك عفواً وسليقة منه، ونرى أن الكلام في ارتباط موضوعات الشعر وقوافيه وبحوره ضرب من العبث والوهم، فإن صح في بعض القوافي التي تناسب موضوعاً معيناً فإنه لايصح في أغلب الحالات وكذلك البحر الواحد قد يعبر به الشاعر عن حالات نفسية متغايرة من حزن وفرح الخ....[٩].

وإذا كان الشاعر الجاهلي قد أخذ يدقق في اختيار القوافي والبحور الملائمة لموضوعه، فإن ذلك جاء في مرحلة متأخرة عن مرحلة شاعرنا عبيد بن الأبرصِ الذي يعد من أوائل الجاهليين الذين وصلت أشعارهم إلينا موزونة ومقفاة دون أن يعلموا شيئاً عن قواعد العروض.

---

[٦] ـ انظر تاريخ الموسيقى العربية لفارمر ص٢١.

[٧] ـ انظر مقدمة ابن خلدون ص٤٢٥ مطبعة مصطفى محمد بمصر.

[٨] ـ انظر الموشح للمرزبانى ص٤٠ تحقيق على محمد البيجاوى طبع نهضة مصر ١٩٦٥.

[٩] ـ انظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه للدكتور محمد النويهى ص٦١ الجزء الأول.

وحول قيمة القافية وواجب حسن اختيارها يطالعنا أكثر من رأي، فالجاحظ يقول: "على الشاعر أن يختار القوافي الخفيفة الظل، الحلوة الناعمة، العذبة الرنين، فإن حظ جودة القافية وإن كانت مفردة أرفع من حظ سائر البيت"[10].

وعلى هذا فإن الجاحظ يرى في القافية أهمية خاصة، ويحاول أن يلفت أنظارنا إليها دون بقية سائر البيت، وللدكتور إبراهيم عبد الرحمن رأي في هذاالموضوع طريف حيث يعالج قضية الوزن، والقافية، والموسيقى[11].

وليس معنى كلاما هذا عن الوزن والقافية أنهما يشكلان القيمة الأولى لجودة الشعر، فهناك العاطفة الصادقة، والذوق السليم، والطبع السوي وقد نوه النقاد القدامى إلى ذلك، فقدامة بن جعفر يقول في هذا الصدد:

"وعلم الوزن والقوافي وإن خص الشعر وحده فليست الضرورة داعية إليه لسهولة وجودة في طباع أكثر الناس من غير تعلم، ومما يدل على ذلك أن جميع الشعر الجيد المستشهد به إنما وضع قبل وضع الكتب في العروض والقوافي، ولو كانت الضرورة إلى ذلك داعية لكان جميع هذا الشغر فاسداً، ثم مانرى من استغناء الناس عن هذا العلم بعد واضعيه إلى هذا الوقت فإن المعول عليه في الشعر هو الذوق، فكان هذا العلم مما يقال فيه: "إن الجهل به غير ضار"[12].

كما لاحظ ذلك أيضاً بعض نقادنا المحدثين[13].

ولاشك أن كثرة تصرف الشاعر في بحور الشعر وقوافيه، وأوزانه، تدل على طبع سليم ومقدرة فنية عالية، وبراعة وفطنة من الشاعر، وقد أوتي شاعرنا عبيد بن الأبرص هذه البراعة وتلك المقدرة الفنية.

وقد جاءت أشعاره متضمنة عشرة بحور رئيسية وهي مرتبة بحسب كثرة ورودها واستعمالها في ديوان الشاعر[14].

---

[10] ـ انظر البيان والتبين الجزء الأول ص١٠٦ وانظر العمدة لابن رشيق الجزء الأول ص٩٩مطبعة أمين هندية، وانظر الخصائص لابن جنى الجزء الأول ص٨٥.

[11] ـ انظر قضايا الشعر في النقض العربي للدكتور ابراهيم عبد الرحمن نشر مكتبة الشباب ص٥٤ وما بعدها.

[12] ـ انظر نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص١٢.

[13] ـ انظر من قضاياالشعر والنثر في الأدب العربي القديم طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية الفصل الخاص بالوزن والايقاع من ص٦٩ ـ ٩٩ للدكتور عثمان موافى.

[14] ـ نظم عبيد اشعاره التي وصلت الينا على البحور التالية ،وهي مرتبة بحسب ورودها في الديوان فالطويل والكامل والبسيط اخذت الحظ الاوفر في شعر الشاعر فقد كان نصيب كل منها ثلاث عشرة قصيدة ومقطوعة، وقد تلاها

وإذا كان هناك من سبب يعلل استخدام الشاعر لهذه الأبحر دون سواها فهو كما نظن شيوع تلك الأوزان وانتشارها في الجاهلية، ومعرفة الشعراء بها قبل غيرها بالإضافة إلى أن بعض هذه البحور مثل الطويل والوافر والكامل والبسيط معروفة بكثرة حركاتها، وباستيعابها للمعاني الضخمة المملوءة بالحركة والاضطراب، ممايتسجم مع عنف، وشدة شاعرنا الفارس عبيد، ويتلاءم مع كبرياء نفسيته وإنفتها، ولاغرو في ذلك فهو لسان القبيلة في ساحات القتال، والمفتخر دائماً بمآثرها، ولعل هذا من الأسباب التي دعته إلى أن ينظم غالبية شعره على تلك البحور.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض نقادنا المتأخرين قد تناول قضية ربط بحور الشعر بموضوعاتها وبالحالة النفسية والشعورية للشاعر ومن هؤلاء حازم القرطاجني[15].

كما لاحظ ذلك بعض المحدثين مثل سليمان البستاني في ترجمته لإلياذة هوميروس ومما يوضح ذلك قوله مثلاً عن البحر الطويل "فالطويل بحر خضم يستوعب مالايستوعب غيره من المعاني، ويتسع للفخر والحماسة والتشابيه والاستعارات ووصف الأحوال، ولهذا ربا في شعر المتقدمين على ماسواه من البحور"[16].

والرأي عندنا أنه ليس من السهل الدلالة على الصفة التي تميز البحور الشعرية لأن المعول عليه هو الذوق، وهو عملية فردية وشعور خاص مختلف من شخص لآخر.

أما قوافي شاعرنا وحروف رويه فقد جاءت على النحو التالي:

أولاً: قافية الدال، وقد نظم عبيد عليها عشر قصائد، وقد جاء حرف الروى في هذه القافية مجروراً ثماني مرات ومرفوعاًمرتين، وتلي الدال الباء، وقد نظم عليها الشاعر تسع قصائد وقد جاء حرف الروى فيها مرفوعاً خمس مرات ومجروراً أربع مرات، وتلي الباء اللام وقد نظم عبيد سبع مرات وجاء حرف الروى فيها مجرورا في خمس قصائد ومرفوعاً في اثنتين، وتلت اللام الميم وقد نظم عليها الشاعر خمس مرات وقد ورد حرف الروى فيها شاملاً جميع الحركات.

البحر الوافر وله سبع من القصائد و المقطوعات، ثم المنسرح وله اربع قصائد، اما الخفيف والرمل فقد حظى كل منهما بقصيدتين، ويأتي الرجز والمتقارب والسريع في المرتبة الاخيرة فقد نال كل بحر من هذه البحور قصيدة واحدة.

[15] ـ انظر منهاج البلغاء لحازم القرطاجنى ص٢٦٠طبع دار الكتب الشرقية بتونس.

[16] ـ انظر اليازة هوميروستعريب سليمان البستاني مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٤ ص٩١ وما بعدها وانظر كتاب الشعراء وانشاد الشعرللدكتور علي الجندي حيث يقول بصلة المعاني بالاعاريض الشعرية ص١٠٠ وانظر المرشد الى فهم أشعار العرب للدكتور عبد الله الطيب المجذوب وبخاصة الجزء الأول منه وانظر موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم انيس، وانظر كتاب الاستاذ الدكتور عثمان موافى من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم فقد عالج هذه القضية وافاظ فيها ص٧٠ ـ ٧٧.

أماالنون والقاف والراء والزاي والحاء فقد نظم الشاعر على كل منها ثلاث قصائد جاءت حركة الروى فيها متنوعة. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حركة الروى عند عبيد وردت مشبعة في أربع قصائد وهي بالأرقام، القصدة رقم ٣٧ ومطلعها "وهي من الطويل:"

تَحَاوَلُ رَسْمَاً مِنْ سُلَيْمَى دَكَادِكَا خَلاءً تَعَفْيْهِ الرياحُ سَوَاهِكا

والقصيدة رقم٢٩ ومطلعها "وهي من البسيط:"

ماحَيَّةٌ مَيْتَةٌ أَحْيَتْ بمِيْتَتِهَا دَرْدَاءَ مَا أَنْبَتَتْ سِناً وأَضْراسَا

والقصيدة رقم٢١ ومطلعها "وهي من الكامل:"

وَلَتَأْتِيَنْ بَعْدِي قُرُونٌ جَمَّةٌ تَرْعَى مَخَارِمَأيْكَةٍ وَلُدُودَا

والقصيدة رقم٥٢ ومطلعها "وهي من الكامل المرفل:"

يَاذَا الَمَخُوفُنَا بِقَتْل أَبِيْهِ إِذْلالاً وَحَيْنَا

ومن القوافي النادرة الورود في الشعر العربي القديم، قافية الضاد، إلا أننا نرى عبيداً قد نظم عليها قصيدة واحدة وهي التي مطلعها "وهي من الطويل:"

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن سلكن غميراً دونهن غموض

ومثلها قافية الطاء، وقد نظم الشاعر عليها قصيدة واحدة ومطلعها:

بان الخليط الألى شاقوك إذا شحطوا وفي الحدوج مهما اعتنقها عيط

وهي من البحر البسيط وقد أشار بعض القدماء إلى استكراه بعض حروف الروى وقد أشار إلى هذه الحروف الدكتور علي الجندي في كتابه "الشعراء" وإنشاد الشعر مثل التاء والخاء والذال والزاي والشين والصاد والطاء والظاء والشين والواو، ويورد الدكتور الجندي رأي كل من أبي العلاء وابن الأثير[17] في هذا الموضوع:

"أم المحدثون فقد تحدث غير واحد منهم في هذه النقطة له آراء مختلفة في هذا الشأن"[18].

وعلى هذا فإن شاعرنا عبيد بن الأبرص يكون قد نظم بعض شعره على حروف روى مستكرهة كالصاد والضاد والزاي والطاء، أما الحديث عن زحافات عبيد في

---

[17] ـ انظر الشعراء وانشاد الشعر للدكتور على الجندى ص٢٠ نقلا عن اللزوميات لابي العلاء الجزء الأول ص٢٤ وللمثل السابق لابن الاثير الجزء الأول ص٦٩.

[18] ـ انظر عيار الشعر لابن طباطبا ـ تحقيق الدكتور طه الحاجى وزغلول سلام ص٥ طبع شركة فن الطباعة بالقاهرة عام ١٩٥٦. وانظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه للدكتور محمد النويهى الجزء الأول ص٦٣. وانظر النقد الادبي الحديث للدكتور محمد غنيمى بلال مطابع الشعب الطبعة الثالثة ١٩٦٤ وهو يعارض ما ذهب اليه الناقدان السابقان من وجود صلة بين القافية والموضوع.

المقاييس العروضية الخليلية واختلال أوزانه في بعض القصائد كبائيته الشهيرة وهي من مخلع البسيط والتخليع عيب من عيوب الشعر يقول عنه المرزباني في الموشح "ومثل ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص وفيها أبيات خرجت عن العروض البيتية، وقبح ذلك جودة الشعر حتى أصاره إلى حد الردى فمن ذلك قوله:

والمَــرْءُ ماعَــاشَ فِــي تَكْذِيــبٍ طُــولُ الحَيَــاةِ لَــهُ تَعْذِيْــبُ

فهذا المعنى جيد واللفظ حسن ولكن وزنه قد شانه وقبح حسنه وأخذ جيده"[19].

نقول أن اختلال الوزن في بعض قصائد عبيد لاينقص من قيمة شعره ولامن مكانته فالرجل يمثل أقدم الشعراء الجاهليين من جهة حيث لا قواعد عروضية ولا عروضيين، وهناك غيره من الشعراء كامرئ القيس فعنده من اختلال الوزن مايماثل الذي عند عبيد وقد جاءت قصيدته اللامية والتي مطلعها[20]:

عَيْنَــاكَ دَمْعُهُمَــا سِــجَالُ كَــأَن شَــأْنَيْهِمَا أَوْشَــالُ

على الوزن نفسه وهو مخلع البسيط، وإننا لنظن أن مثل هذا الأمر لهو دليل صحة على شعر عبيد وعدم العبث به من قبل الرواة والإخباريين ذلك أنه يمثل المرحلة المتقدمة من أشعار الجاهليين.

وقد لاحظ السيد تشارلز لايل هذه الحقيقة ونوه عنها في مقدمة ديوان عبيد[21] ويظل شعر عبيد على اختلاف وزنه في بعض القصائد رقيق الحاشية حلو المأخذ هذا إذا لم نتهم الرواة بسوء الرواية، وإننا لنجد الباء المضمومة في بائية عبيد سائغة معبرة عن غرض الحكمة والاعتبار الذي أراده الشاعر في القسم الأول من القصيدة وموحية في الوقت نفسه في منظر الصيد عن عنصر الحكة والقلق عند الفريسة كما برع الشاعر في تصويره للفرس وبيان عنصر السرعة عندها.

وجملة القول في أشعار عبيد من حيث الأوزان والقوافي هي أن الشاعر كان يتخير اللفظة الملائمة، ويراعي الانسجام في توالي المقاطع، وكان يعنى بنغم القصيدة ويختارٍ من البحور مايلائم موضوعاتها ومن الكلمات مايفي بأغراضه ومعانيه وقد رأينا مثلا

---

[19] ـ انظر الموشح للمرزباني ص١٢١ ـ ١٢٢.

[20] ـ انظر ديوان امرئ القيس ص١٨٩ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم طه دار المعارف بمصر.

[21] ـ انظر مقدمة ديوان عبيد ابن الابرص تحقيق السير تشارلز لايل طبع لندن عام ١٩١٣ "مجزوء البسيط بحر وزنه" مستفعل فاعل مفعول "ويكون المخلع منه باستعمال مفعول على وزن فعول وهو مستملح في المجزوء" وقد جائت بعض الابيات على وزن مستفعل بدل مفعول وهو غير جائز.

على ذلك بائيته الشهيرة. وإليك مثالاً آخر:

يقول عبيد مفتخراًوالقصيدة من الكامل المرفل[٢٢]:

يَـــاذَا المُخَـــو فُنَــا بقَتْـــ　　　ل أَبيــــهِ إذْلالاً وَحَيْنَـــا

إنَّـــا إذَا عَـــض الثقَـــا　　　فُ بـــرَأْس صَعْدَتِنَـــا لَوَيْنَـــا

نَحْمِـــي حَقِيْقَتَنـــا وَبَعْــ　　　ضُ القَـــوْمِ يَسْـــقُطُ بَيْـــنَ بَيْنَـــا

هَـــلا سَـــأَلْتَ جُمُـــوعَ كِنْـــ　　　دَةَ يَـــوْمَ وَلـــوْا أَيْـــنَ أَيْنَـــا

أَيّـــامَ نَضْـــرِبُ هَـــامَهُمْ　　　ببَوَاتِـــر حَتـــى انْحَنَيْنَـــا

نَحْـــنُ الأُلَـــى فَـــاجْمَعْ جُمُـــو　　　عَـــكَ ثُـــم وَجهَـــم إلَيْنَـــا

واعْلَـــمْ بِـــأن جيادَنَـــا　　　آلَيْـــنَ لا يَقْضِيـــين دَيْنَـــأ

وَلَقَـــدْ أَبَحْنَـــا ماحَمَيـــ　　　تَ وَلا مُبِيْـــحَ لِمَـــا حَمَيْنَـــا

لايَبْلُـــغُ البَـــانِي وَلَـــوْ　　　رَفَـــعَ الـــد عَـــائِمَ مابَنَيْنَـــا

إن الشاعر هنا يختار البحر الكامل المجزوء وماذاك إلا لأن هذا الوزن يمكنه من التعبير بكل حرية عن نزعة الفخر المملوءة بها نفسه وإننا لنشعر بهذا التقطيع البديع للجل وتوالي المقاطع بشكل انسيابي متوالي النغم وقد اختار عبيد حرف النون المشبع كروى للقصيدة وهذا مااستطاع بواسطته الانسجام مع غرض الفخر الذي قصده الشاعر وقد استطاعت القافية هنا القيام بأداء دورها وأضفت جلالاً على المعنى وموسيقية عنيفة صاخبة مما يتلاءم والموقف النفسي للشاعر.

ولئن كان عبيد يضطر إلى إيراد بعض الكلمات التي قد نراها ثقيلة وصعبة في وقتنا الحاضر فربما كانت تلك الكلمات مستعملة حين ذاك في لغة الجاهليين ومن الخطأ أن نحكم بثقلها وصعوبتها خاصة وأننا لانملك أدلة قاطعة عن تطور اللغة في تلك الفترة.

أما استخدام الشاعر بعض حروف الروى المستكرهة على رأي بعض الباحثين فهو دليل في الوقت نفسه على سعة نفس الشاعر وطول باعه في نظم الفريض ولعلنا بهذا السبب ذاته نفسر تصرف عبيد ببعض بحور الشعر واستخدام مجزوءاتها ومخلعاتها.

---

[٢٢] ـ انظر ديوان عبيد ص١٣٧ ـ ١٣٨.



الخاتمة:

في شمال شرقي نجد، وفي منطقتي حائل والقصيم على وجه التحديد تنسم شاعرنا عبيد بن الأبرص الحياة، حيث كانت قبيلة بني أسد بن خزيمة نازلة في تلك الربوع بمجاورة طيئاً وبعض القبائل العربية الأخرى ولا أحد يدري على وجه الدقة متى ولد عبيد؟ فليس بين أيدينا مايسعفنا بمعرفة طفولته، ونشأته الأولى غير بعض النتف من الأخبار والروايات المبتورة عن حياة هذا الشاعر، وإذ ذاك فلم يكن أمامنا إلا الاعتماد على شعره نتلمس من خلاله المكونات الأولى لهذه الشخصية الأدبية التي لم تنل حظها من البحث، والدرس كغيرها م الشخصيات المعاصرة لها رغم كونها من أصحاب المعلقات وتكاد تجمع الروايات، والأخبار على أن عبيداً قد نشأ نشأة فقر وعوز، وهذا على خلاف ما رأيناه في شعره، بل على النقيض من ذلك فنحن نرجح أن عبيداً قد نعم بطفولة هانئة، ونشأة هادئة، ويمكننا القول أنه ينحدر من أسرة كريمة ذات غنى وجاه في بني سعد بن ثعلبة[1].

ولقد ظل شاعرنا منسياً في أحاديث القدماء والمحدثين علىالسواء ولذا فقد أقدمنا على دراسة هذه الشخصية الأدبية المميزة علنا نسهم في إلقاء الضوء أو بعض منه على قسماتها تلك الشخصية التي اقتربت من الأساطير عند بعض الرواة.

وتقع دراستي هذه لحياة عبيد وشعره في ثلاثة أبواب:

فأما الباب الأول منها فقد درست فيه نشأة الشاعر وحياته وأوضحت فيه مواطن ومنازل قبيلة بني أسد بن خزيمة قبيلة الشاعر وقد فصلت في أنسابها، وحاولت أن أبرز دورها الرائد في النزاع الذي شب بين عرب الشمال، وعرب الجنوب، وكما بدا لي

---

[1] ـ انظر الفصل الخاص بشخصية الشاعر في هذا البحث.

من خلال البحث فإن قبيلة بني أسد تعتبر الشرارة الأولى في اندلاع نار الحرب بين الشماليين والجنوبيين من العرب، ورفض قبائل مضر سلطة عرب اليمن المتمثلة في قبيلة كندة وقد تمثل هذا الرفض في أجلى صوره في انتفاضة بني أسد على حجر ابن الحارث آخر ملوك كندة وقتلهم إياه، مما ترتب على هذا الأمر نتائج خطيرة بين القبائل العربية بعامة وقبائل مضر بخاصة، كما أوضحت أن هذه القبيلة كان لها منازل أساسية وأخرى جديدة ارتحلت إليها نتيجة لسبب أو لآخر، وقد رجحت أن بني أسد بن خزيمة استوطنوا في بادئ الأمر تهامة، ومن ثم انتقلا إلى نجد مع أغلب قبائل ربيعة،وقد ذيلت هذا البحث بخارطة مفصلة عن تلك المناطق والتي استوطنها بنو أسد، وذلك لما لهذه المواطن من صلة وثيقة بحياة الشاعر وفنه.

كما تطرقت لتحالفات هذه القبيلة وصلاتها بالقبائل الأخرى، وركزت على صلاتها مع كل من المناذرة، والغساسنة، وكندة، على أطراف شبه الجزيرة العربية، وذلك لما رأيته وتوخيته من النفع في إغناء هذا البحث، وكان حديثي عن البيئة التي عاش فيها شاعرنا هادفاً إلى إبراز العناصر التي تركت آثارها على شعره وبخاصة التعصب القبلي اللامحدود في ظل ظروف الحياة في تلك البيئة الجاهلية المتقدمة.

أما عن دراستي لنشأة هذا الشاعر وسيرته، فقد اعتمدت فيها على ماوصل إلينا من أخبار، وروايات في كتب القدماء محققاً وباحثاً ومتحرياً الحقيقة، فاستبعدت بعضها لما فيها منن التزيد، ومجافلة العقل والمنطق ذلك لاقتراب بعضها أحياناً من الخرافة والأسطورة، وقد أدليت بوجه نظري حول نشأة الشاعر وسيرته معتمداً في المقام الأول على شعر عبيد نفسه ويخيل إلي أنني قد نجحت في تصحيح بعض الجوانب في حياة هذا الشاعر الكبير، وفي إلقاء شيء من الضوء على تلك الجوانب، ولم يفتني أن أربط بين حياة الشاعر وبعض الاتجاهات البارزة في شعره ككثرة الحكمة وغلبة الفخر على ماسواهما من أغراض.

كما حاولت أن أجد تعليلاً لهذه الصبغة الحزينة، والنظرة السوداوية التي رانت على نفس الشاعر لفترة طويلة من حياته، وقد أدى بي هذا إلىدراسة شخصية هذا الشاعر من خلال شعره، والتي أفردت لها الفصل الثالث من هذاالباب، وقد رأيت أنه من المناسب والمفيد عقد مقارنة بين عبيد بن الأبرص وامرئ القيس بن حجر، وذلك لما ظننت من صلات وثيقة بين الشاعرين على الصعيدين الفني والاجتماعي.

وقد اتضح لي من خلال هذه المقارنة أن امرأ القيس قد تأثر بعبيد في أكثر من موضع، ويبدو هذا بوضوح في لوحة الصيد، ووصف الفرس كما أشرت إلى آراء بعض الدارسين والباحثين الذين عالجوا مثل هذه القضية الفنية.

وكانت دراستي لفنون شعر عبيد مبنية على أن هذا الشاعر يمثل أقدم المراحل التي نعرفها عن الشعر الجاهلي، والتي وصلنا شعر عنها، فهو إن صح التعبير يمثل طفولة ماوصلنا من أشعار الجاهليين، وقد درست فنون شعره تبعاً لكثرة ورودها في ديوانه، وكانت الصدارة للفخر غيرمنازع ثم تلاه الوصف، فالحكمة فالنظرات الشخصية، ومن ثم بقية الأغراض الأخرى وفي مقدمتها الغزل، وقد فرغت من دراستي لفنون وأغراض الشاعر بأنه لم يكن ليختلف أو يخرج عما قاله غيره من الشعراء الذين عاصروه، وإنما كان يسلك الطريق نفسها في أغلب الأحيان اللهم إلا في بعض الفروق الجزئية البسيطة التي تميزه عن غيره، وعرجت على أهم وأبرز صور البيئة في شعره فوجدت أنها تقتصر على ثلاث صور رئيسية وهي صورة الطلل وصورة الناقة وصورة الفرس، فدرستها وحاولت أن أتبين ما لهذه الصور من دلالات وأبعاد عند الشاعر.

وأما الباب الثالث والأخير من دراستي هذه فقد حاولت فيه دراسة شعر عبيد دراسة نقدية من حيث الشكل، وكانت بدايتي في هذا الباب إلقاء نظرة على ألوان التصوير الفني عند اشاعر، وانتهيت إلى الكشف عن سمات الصورة الفنية عنده، وإبراز أهم عناصرها وهو التفصيل، والتدقيق في أجزاء الموصوف، وكان الفصل الثاني من هذا الباب يدور حول لغة الشعر عند عبيد، وقد وقفت فيه على لغة الشاعر وصيغه وتراكيبه فرأيت فيها جنوحاً نحو معاني الحرب والفروسية شديداً، وميلها من جانب آخر إلى وصف مظاهر الطبيعة الساكنة منها والحية، وربطت كل هذا بحياة الشاعر وبيئته، كما وقفت على مهارة وقوة هذا الشاعر في قياد اللغة والتلاعب بها لإثبات قدرته الفنية، وكان لابد من أن أتعرض للبناء الفني للقصيدة عن الشاعر فخصصت لهذا الغرض الفصل الثالث من هذا الباب، وقد أوقفته على البناء الفني وحده، ورأيت أن هذا الشاعر لم يكن ليلتزم النهج المتعارف عليه عند الجاهليين من وقوف على الأطلال، وذكر للنسيب، ووصف للناقة...الخ، دائماً بل كان ينوع ويعدد من مطالع قصائده، وربما رأيته يعزف عن المقدمة الطللية كلها، ويطرق غرضه بصورة مباشرة.

وأما الفصل الرابع والأخير من هذا الباب فقد خصصته للأوزان والقوافي عند

شاعرنا، ولقد أوضحت فيه الأوزان التي نظم عليها الشاعر قصائده ومقطعاته وأوردت آراء بعض الباحثين في مسألة ربط المعنى بالوزن الشعري، وأبديت رأي الباحث في ذلك، كما حصرت القوافي التي جاءت في ديوان الشاعر وهي على أية حال متنوعة منها المقيد ومنها المطلق، ومنها الغريب الذي عده القدماء من النقاد شذوذاً، ورجحت أن يكون مرد هذه الغرابة إلى تلاعب الشاعر باللغة إظهاراً لقوته وطول باعه في الشعر.

وبعد: فهذه دراسة متواضعة عن حياة عبيد بن الأبرص وشعره آمل أن تكون قد وفت ببعض الغرض لاكله كما آمل أن تكون مقدمة لأبحاث أخرى أعم وأشمل.

وا لله من وراء القصد.

المصادر والمراجع

١ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني طبع ليدن أوربا.

٢ ـ أديان العرب لمحمد نعمان الجارم مطبعة السعادة عام ١٩٢٣ ميلادية.

٣ ـ الأزمنة والأمكنة للمرزوقي الطبعة الأولى حيدر راباد عام ١٣٣٢هجرية.

٤ ـ الأساطير العربية قبل الإسلام لعبد المعيد خان نشر القاهرة عام ١٩٣٧م.

٥ ـ الأصنام لابن الكلبي تحقيق الدكتور أحمد زكي نسخة مصورة عن دار الكتب طبع الدار القومية عام ١٩٢٤م.

٦ ـ الأطلس التاريخي للدكتور عبد المنعم ماجد.

٧ ـ أطوار الثقافة والفكر للدكتور علي الجندي الطبعة الأولى عام ١٩٥٩م.

٨ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني طبع دار الفكر ببيروت ١٩٥٦م. وطبعة دار الشعب بمصر.

٩ ـ أمراء غسان. نولدكة المطبعة الكاثوليكية ببيروت عام١٩٣٣م.

١٠ ـ الياذة هوميروس تعريب سليمان البستاني مطبعة الهلال بمصر ١٩٥٤م.

١١ ـ أيام العرب في الجاهلية تحقيق محمد جاد المولى ورفاقه.

١٢ ـ بلاد العرب لأبي الغدة الأصفهاني تحقيق حمد الجاسر الطبعة الأولى ١٩٦٨ نشر دار اليمامة بالرياض.

١٣ ـ بلوغ الأرب للألوسي تحقيق محمد بهجت الأثري الطبعة الثالثة نشر دار الكتاب العربي والمطبعة الرحمانية ١٩٢٤م.

١٤ ـ البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الثالثة نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، وطبعة أمين هندية بالقاهرة بلاتاريخ.

١٥ ـ تاريخ الآداب العربية لكارلو نالينو دار المعارف ١٩٥٤م.

١٦ ـ تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي الطبعة الأولى مطبعة الاستقامة ١٩٤٠م.

١٧ - تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام للسباعي بيومي الطبعة الثانية مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٥م.
١٨ - تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) للدكتور شوقي ضيف طبع دار المعارف بمصر.
١٩ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان مطبعة دار الهلال ١٩٥٧م.
٢٠ - تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن الطبعة الرابعة ١٩٥٧م.
٢١ - تاريخ الإسلام العام للدكتور علي إبراهيم حسن نشر مكتبة الفلاح بالكويت.
٢٢ - تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضري مطبعة الاستقامة ١٣٧٠هجرية.
٢٣ - تاريخ سيني الملوك والأنبياء لحمزة الأصفهاني طبع دار الفكر ببيروت.
٢٤ - التاريخ السياسي للدولة العربية للدكتور عبد المنعم ماجد طبع القاهرة ١٩٦٧م.
٢٥ - تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب مطبعة النهضة المصرية ١٩٥٣م.
٢٦ - تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري للدكتور نجيب محمد البهبيتي طبع مؤسسة الخانجي ١٩٦١م.
٢٧ - تاريخ الطبري طبعتا الحسينية والهيئة المصرية العامة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٦٧م.
٢٨ - تاريخ العصر الجاهلي لمحمد هاشم عطية طبعة الحلبي ١٩٣٦م.
٢٩ - تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون للدكتور عمر فروخ طبع دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٦م.
٣٠ - تاريخ اليعقوبي نشر المكتبة المرتضوية ببغداد عام ١٣٥٨هجرية.
٣١ - تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام للدكتور شكري فيصل طبع دار العلم للملايين بيروت الطبعة الرابعة.
٣٢ - تقويم البلدان لأبي الفداء مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر.
٣٣ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي مطبعة المدني ١٩٦٥م.
٣٤ - جغرافية شبه جزيرة العرب لعمر رضا كحالة المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٤م.
٣٥ - جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي نشر المكتبة المرتضوية بالنجف ١٣٥٨هجرية.
٣٦ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي تحقيق عبد السلام هارون طبع دار المعارف ١٩٦٢م.
٣٧ - الحكم والأمثال لحنا الفاخوري طبع دار المعارف (سلسلة فنون الأدب).
٣٨ - الحياة والشاعر تأليف استيفن اسبندر تعريب مصطفى بدوي (سلسلة الألف كتاب).
٣٩ - حياة الحيوان الكبرى للدميري طبع بيروت ١٣٠٩هجرية المطبعة الخيرية.
٤٠ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي مطبعة نهضة مصر.
٤١ - حيوات العرب للدكتور عبد المحسن سلام طبع الهيئة القومية ١٩٦٨م.
٤٢ - الحيوان للجاحظ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع مصطفى البابي الحلبي.

٤٣ ـ خزانة الأدب للبغدادي تحقيق عبد السلام هارون طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤٤ ـ الخصائص لابن جني طبع دار الكتب المصرية ١٩٥٢م بتحقيق محمد علي النجار.

٤٥ ـ دائرة المعارف الإسلامية النسخة العربية إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي والدكتور عبد الحميد يونس.

٤٦ ـ دراسات في الأدب العربي غوساف غرنباوم ترجمة الدكتور إحسان عباس نشر دار مكتبة بيروت ١٩٥٩م.

٤٧ ـ دراسة الحب في الأدب العربي للدكتور مصطفى عبد الواحد طبع دار المعارف بمصر.

٤٨ ـ الدعوة إلى الإسلام توماس أرنولد ترجمة الدكتور حسن إبراهيم مطبعة الشبكشي.

٤٩ ـ ديوان امرئ القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار المعارف بمصر.

٥٠ ـ ديوان بشر بن أبي خازم تحقيق الدكتور عزت حسن طبع وزارة الثقافة السورية ١٩٦٦م.

٥١ ـ ديوان عامر بن الطفيل تحقيق تشارلز لايل طبع ليدن١٩١٣م.

٥٢ ـ ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار الطبعة الأولى ١٩٥٧م. مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

٥٣ ـ ديوان علقمة الفحل تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب نشر دار الكتاب العربي بحلب ١٩٦٩م.

٥٤ ـ ديوان مجنون ليلى جمع وترتيب أبو بكر الوالبي تحقيق جلال الدين الحلبي مطبعة مصطفى البابي ١٣٥٨هـ.

٥٥ ـ الروض الأنف للسهيلي المطبعة الجمالية ١٩١٤م.

٥٦ ـ سمط اللآلي للبكري تحقيق عبد العزيز الميمني طبع بالقاهرة بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٣٠٨هـ. .

٥٧ ـ سيرة ابن هشام تحقيق طه عبد الرؤوف سعد شركة الطباعة الفنية المتحدة بالعباسية.

٥٨ ـ شرح ديوان الأعشى للدكتور محمد محمد حسين طبعة بيروت.

٥٩ ـ شرح ديوان زهير صنعة ثعلب طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٤م.

٦٠ ـ شرح شواهد المغني للسيوطي المطبعة البهية ١٣٢٢هجرية.

٦١ ـ شرح المعلقات العشر للتبريزي تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة نشر دار الكتاب العربي بحلب ١٩٦٩م.

٦٢ ـ الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه للدكتور محمد النويهي نشر الدار القومية.

٦٣ ـ الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه للدكتور محمد النويهي نشر الدار القومية.

٦٤ ـ شعر الطبيعة في الأدب العربي للدكتور سيد نوفل طبع مكتبة الخانجي بمصر ١٩٤٥م.

٦٥ ـ الشعراء وأنشاد الشعر للدكتور علي الجندي طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

٦٦ ـ الاشتقاق لابن دريد تحقيق عبد السلام هارون طبع مؤسسة الخانجي والسنة المحمدية ١٩٥٨م.

٦٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر الطبعة الثالثة دار المعارف ١٩٧٧م.

٦٨ ـ الصاحبي لابن فارس نشر المكتبة السلفية ١٩١٠م والطبعة المحققة لأحمد صقر.

٦٩ ـ صفة جزيرة العرب للهمزاني تحقيق محمد بن بوليهد النحدي مطبعة السعادة ١٩٥٣م.

٧٠ ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق علي محمد البجواي ومحمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي بمصر.

٧١ ـ طبقات فحول الشعراء الجاهليين لابن سلام الجمحي تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني بمصر.

٧٢ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد طبع دار صادر بيروت ١٩٥٧م.

٧٣ ـ العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه تحقيق إبراهيم الأبياري الطبعة الثالثة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م.

٧٤ ـ عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق الدكتور طه الحاجري والدكتور محمود زغلول سلام طبع شركة فن الطباعة بالقاهرة ١٩٥٦م.

٧٥ ـ فجر الإسلام لأحمد أمين الطبعة الثانية لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٧٦ ـ الفخر والحماسة لحنا الفاخوري طبع دار المعارف الطبعة الرابعة.

٧٧ ـ فن الوصف إيليا الحاوي مطبعة دار العلم ببيروت ١٩٥٩م.

٧٨ ـ في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين الطبعة الرابعة دار المعارف بمصر.

٧٩ ـ القرآن الكريم.

٨٠ ـ قضايا النقد الأدبي المعاصر للدكتور محمد زكي العشماوي طبع دار الكاتب العربي للطباعة بالإسكندرية.

٨١ ـ قضايا الشعر في النقد العربي للدكتور إبراهيم عبد الرحمن نشر مكتبة الشباب ١٩٧٧م.

٨٢ ـ القيان والغناء في العصر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.

٨٣ ـ من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم للدكتور عثمان موافي نشر مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ١٩٧٥م.

٨٤ ـ من قيثارة الشعر العربي للدكتور فتحي محمد أبو عيسى دار المعارف ١٩٨٠م.

٨٥ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير طبعة دار الفكر بيروت وطبعة صادر بيروت أيضاً.

٨٦ ـ الكامل في اللغة للمبرد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦م.

٨٧ ـ لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت ١٣٧٤هـ .

٨٨ ـ المؤتلف والمختلف للآمدي تحقيق عبد الستار فراج طبع الحلبي ١٩٦١م.

٨٩ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير تحقيق الدكتور أحمد الحوفي وبدوي طبانة الطبعة الأولى مكتبة نهضة مصر ١٩٦٢م.
٩٠ ـ المجاز بين اليمامة والحجاز لعبد الله محمد بن خميس النجدي نشر دار اليمامة بالرياض.
٩١ ـ مجمع الأمثال للميداني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة دار الفكر ببيروت ١٩٧٢م.
٩٢ ـ المحبر لابن حبيب تحقيق إيلزا ليختن اشتيتر منشورات المكتب التجاري للطباعة بيروت.
٩٣ ـ مختار الشعر الجاهلي تحقيق مصطفى السقا الطبعة الرابعة ١٩٧١م. مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
٩٤ ـ في مرآة الشعر الجاهلي للدكتور فتحي أحمد عامر مطبعة دار الشروق ١٩٧٦م.
٩٥ ـ المرشد إلى فهم أشعار العرب للدكتور عبد الله الطيب المجذوب طبع دار الفكر بيروت ١٩٧٠م.
٩٦ ـ مروج الذهب للمسعودي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد نشر دار الكتاب المصري ١٩٦٦م.
٩٧ ـ مسالك الممالك للاصطخري الكرخي طبع بريل ليدن عام١٩٢٧م.
٩٨ ـ مظاهر الشعوبية في الأدب العربي للدكتور محمد نبيه حجاب مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٩٦١م.
٩٩ ـ المعارف لابن قتيبة تحقيق الدكتور ثروت عكاشة الطبعة الثانية دار المعارف بمصر.
١٠٠ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي طبع دار صادر بيروت عام١٩٥٥م.
١٠١ ـ معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة طبع دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨م.
١٠٢ ـ معجم مااستعجم للبكري تحقيق مصطفى السقا الطبعة الأولى ١٩٤٥م. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
١٠٣ ـ المعمرون لأبي حاتم السجستاني مطبعة السعادة عام١٩٠٥م.
١٠٤ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي مطبعة التفيض بالنجف ببغداد ١٩٥٠م.
١٠٥ ـ المفضليات للمفضل الضبي تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الخامسة بمصر.
١٠٦ مقدمة ابن خلدون مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية وطبعة دار الشعب بمصر.
١٠٧ ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي للدكتور حسين عطوان نشر دار المعارف بمصر.
١٠٨ ـ الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي الطبعة الثالثة مطبعة حجازي ١٩٤٤م. بعناية محمد محي الدين عبد الحميد.
١٠٩ ـ موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس الطبعة الثالثة ١٩٥٢م.

١١٠ ـ الموضح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني تحقيق علي محمد البجاوي مطبعة نهضة مصر ١٩٦٤م.

١١١ ـ النقائض لأبي عبيدة معمر بن المثنى طبعة ليدن ١٩٠٧م.

١١٢ ـ النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال مطابع دار الشعب الطبعة الثالثة ١٩٦٤م.

١١٣ ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر المطبعة المليجية ١٩٢٤م. تحقيق عيسى منون.

١١٤ ـ نهاية الأرب للنويري نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية طبع المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر.

١١٥ ـ الهجاء والهجاؤون للدكتور محمد محمد حسين طبع دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٠م.

١١٦ ـ وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية للدكتور نوري حمودي القيسي دار الطباعة والنشر بالموصل ١٩٧٤م.

١١٧ ـ الوحشيات لأبي تمام تحقيق عبد العزيز الميمني الطبعة الثانية دار المعارف بمصر.

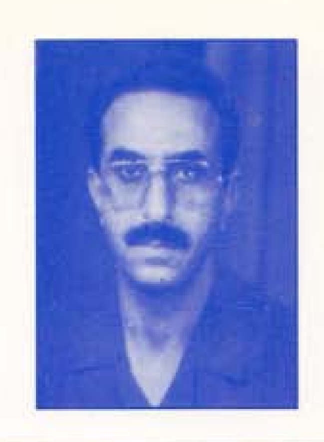
"الدوريات"

١ ـ مجلة المشرق الكاثوليكية طبع بيروت ١٩٣٨م.

٢ ـ مجلة المعرفة السورية العدد الرابع حزيران ١٩٦٣م.

المحتوى





الدكتور أحمد موسى الجاسم:

ولد المؤلف في قرية من قرى محافظة حلب سنة ١٩٤٩م. وهي قرية أم اشكيف.

تلقى تعليمه في مدينة حلب بعد أن ارتحل والده اليها للعمل في التجارة.

أنهى دراسته الجامعية عام ١٩٧٤م. من كلية الآداب بجامعة حلب قسم اللغة العربية ثم تابع تعليمه العالي في جهورية مصر العربية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراة في الأدب والنقد.

حصل على درجة الماجستير سنة ١٩٨٣م. وكان عنوانها عبيد بن الأبرص: حياته وشعره "دراسة فنية".

وحصل على درجة الدكتوراه في الأدب والنقد وكان عنوانها "شعر بني أسد في الجاهلية".

ينحدر المؤلف من قبيلة عربية صميمة هي قبيلة الأبوبطوش التي تعود في أصولها الى قبيلة العبيد الزبيدية.

يعمل حالياً في المملكة العربية السعودية في التدريس الجامعي.